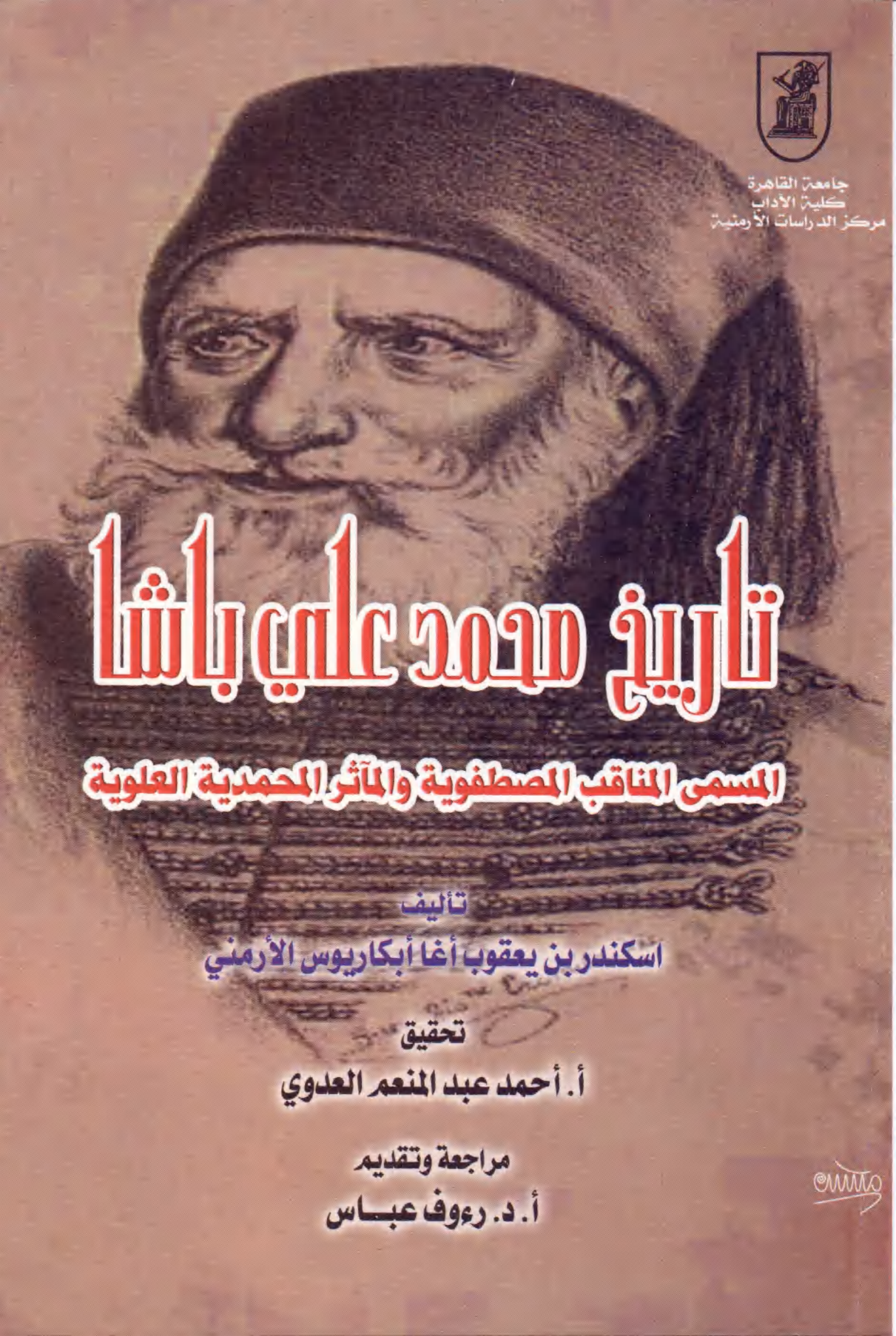

جامعة القاهرة
كلية الآداب
مركز الدراسات الأرمنية

تاريخ محمد علي باشا

المسمى المناقب المصطفوية والمآثر المحمدية العلوية

تأليف

اسكندر بن يعقوب أغا أبكاريوس الأرمني

تحقيق

أ. أحمد عبد المنعم العدوي

مراجعة وتقديم

أ. د. رءوف عبـاس

جامعة القاهرة
كلية الآداب
مركز الدراسات الأرمنية

تَاريخ محُمَّد عَلي بَاشا

المُسمّى

المنَاقب المُصْطَفويّة والمَآثِر المُحمَّديّة العَلويّة

تأليف

اسكَندَر بن يَعقُوب أغَا أبكَاريُوس الأرمني

حقّقه وقدّم له وعلّق عليه ووضع حَواشيه وصَنع فَهارسه

أحمَد عبد المنعم العدوي

راجَعهُ وقدّم له

د . رءُوف عبّاس

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر
١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م

الكتاب : تاريخ محمد علي باشا
(المسمى المناقب المصطفوية والمآثر المحمدية العلوية)
المؤلف : اسكندر بن يعقوب أغا أبكاريوس الأرمني
المحقق : أ. أحمد عبد المنعم العدوي
مراجعة وتقديم : أ. د. رءوف عباس
الناشر : مركز الدراسات الأرمنية - كلية الآداب - جامعة القاهرة
رقم الإيداع : ١٦١١٨ / ٢٠٠٩

إهداء

إلى أستاذي الجَليل

رءُوف عَبَّـــاس

لعلّ الشّاعر كان يعنيك حين قال:

كَمْ مِنْ طَوِيلِ العُمْرِ بَعْدَ وَفَاتِه ... بِالذِّكْرِ يَصْحَبُ حَاضِراً أَوْ بَادِي

فَاذْهَب كَمَا ذَهَبَ الرَّبيع وإِثْرُهُ ... بَاقٍ بِكُـــلِّ خَمَائِـــلٍ وَنِجَـــادِ

فإلى روحك الطاهرة أهدي هذا العمل

تصدير

ها نحنُ أولاء نسير – وبحمد الله – على الدَّرب الذي رسمناه لأنفسنا في مركز الدِّراسات الأرمنية بكلية الآداب جامعة القاهرة؛ بنشر الأعْمَال الأكاديمية الجادة والتي تتعلق بدوائر التماس ونقاط التلاقي بين كل من الحضارتين العربيَّة والأرمنيَّة، وقد بدأت تلك السياسة تؤتي بثمارها، ذلك أن المركز صار في الفترة الأخيرة قبلة الباحثين لنشر دراساتهم وأبحاثهم فيما يتعلق بهذا الصَّدد.

ليس هذا فحسب، بل إنَّ سياسة المَركز – في سياق هذا النَّهج – القائمة على تشجيع شباب البَاحثين لتقديم إنتاجهم العلمي الجاد والمتميز بدأت تثمر بدورها، ذلك أن محقق هذا العمل الذي ننشره اليوم هو باحث شاب واعد ما يزال بعد في مرحلة الدكتوراه.

والكتاب الذي نحن بصدده في هذه النشرة الجديدة من إصدارات المركز هو كتاب: "المناقب المصطفوية والمآثر المحمدية العلوية"، والذي أطلق عليه مُحقِّقه على سبيل الاختصار اسم "تاريخ مُحمَّد علي بَاشا" وهو من تصنيف واحد من ألمع وأشهر الأُدباء الأرْمَن في النصف الثاني للقرن التاسع عشر، ألآ وهو اسكندر بن يعقوب أغا أبكاريُوس، وهو مثقف أرمني موسُوعي، يتميز بغزارة إنتاجه الأدبي والفكري، لكن مُعظم آثاره الآن بين مفقود ومخطوط لم ير النور بعد، أو في حكم النادر بسبب ضياع النُسخ الأصلية، وبالتالي عدم إعادة طباعتها لاحقاً.

ومن هنا تأتي أهمية هذا العمل، ففضلاً عن قيمته التاريخية؛ فهو

أحد أعمال هذا المؤلف الموسوعي المخطوطة، ومن ثم فهي من الأهمية بمكان في سياق إعادة نشر وتحقيق أعمال هذا المؤرخ والأديب الأرمني الكبير.

والكتاب يتناول تاريخ محمد علي باشا، بدءاً من وصوله لحكم مصر في أعقاب جلاء الحملة الفرنسية عنها وحتى وفاته عام ١٨٤٨، ثم يتطرق إلى ولاية إبراهيم باشا القصيرة على مصر والتي لم تتعد العام الواحد، والذي سرعان ما لحق بوالده بعد عدة أشهر.

والكتاب مصدر هام جداً للباحثين المتخصصين في تاريخ مصر والشام في عصر محمد علي باشا، ذلك أن مُصنِّفه أظهر اهتماماً خاصاً بالوثائق، ونشر العديد منها في ثنايا كتابه، كما أنه تعرض لجوانب عديدة من مظاهر الحكم المصري للشام، وأوضاع الدولة العربية قصيرة الأجل التي نجح محمد علي باشا في إقامتها بحد سيفه، كذا فالكتاب من الأهمية بمكان للدَّارسين والمهتمين بتاريخ الأدب العربي في العصر الحديث، حيث جمع المؤلف في ثنايا كتابه شتات عدد كبير من القصائد النادرة للفيف من الأدباء والشعراء الشوَّام من معاصريه، ممَّن قصدوا بلاط إبراهيم باشا لعرض إبداعاتهم عليه.

لا أريد أن أخوض كثيراً في أهمية هذا العمل وقيمته التاريخية، سيَّما وقد قدم له بمقدمة ضافية العالم الجليل الراحل المغفور له الأستاذ الدكتور رءوف عباس حامد، والذي كانت مراجعته لهذا الكتاب والتقديم له آخر ما خطته يداه قبل أن توافيه المنية في السادس والعشرين من يونيو ٢٠٠٨، بعد صراع قصير مع المرض.

ومركز الدراسات الأرمنية بجامعة القاهرة يعد نشر هذا العمل في هذا التوقيت، ومع حلول الذكرى السنوية الأولى لرحيل ذلك العالم الجليل

بمثابة احتفاء بذكرى هذا الأستاذ والعالم الجليل وآخر جيل العمالقة الرواد من المتخصصين في تاريخ مصر الحديث والمعاصر.

أما محقق هذا الكتاب، وهو الأستاذ احمد العدوي؛ فهو باحث شاب واعد، من أبنائنا بكلية الآداب، وهو ما يزال بعد طالباً بمرحلة الدكتوراه بقسم التاريخ، وفي اعتقادي - وأرجو أن تثبت الأيام صدق حدسي - ينتظره مستقبل مشرق على الصعيد الأكاديمي إذا ما واصل حياته العلمية بنفس الجدية والحماس، وقد قدم لعمله بمقدمة وافية، وذَيَّل عليه بستة أنواع من الفهارس الفنيَّة التفصيلية ليَسْهُل على الباحث الوصول إلى بُغيته، كما بذل في عمله جهداً علمياً متميزاً يستحق الإشادة والتقدير، ويَنُمُّ عن تمكُّنه في علم تحقيق المخطُوطات.

وأخيراً وليس آخراً؛ لا يفوتني في هذا المقام أن أشكر العالم الجليل الأستاذ الدكتور عُبَادة كُحيلة، الأستاذ بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة، فهو الذي رشَّح هذا العمل المُتميِّز ليكون ضمن نَشَرات المَركز، وهو الذي تابع نشره خُطوةً بخُطْوة، وهو ما يعكس ثقة سيادته وتقديره للمركز ونشاطه العلمي.

والله تعالى ولي التوفيق

أ.د/ زينب أبو سِنَّة

مُدير مَركز الدراسات الأرمينية

كلية الآداب - جامعة القاهرة

تقديم

بقلم المُؤرِّخ الكبير
د. رءوف عبَّاس حامد

لعلَّ المَصادر الأدبيَّة من أقلِّ المصادر حظّاً من اهتمام المُؤرِّخين، وخاصَّة في عالمنا العَربي؛ فقد نالت نصيباً وافراً من الاهتمام عند غيْرنا، فالأعمال الأدبيَّة التي يكتُبها من عاصرُوا الأحداث أو عايشُوا شهُودها؛ تُقدِّم للمُؤرِّخ ما تعْجز عن تقديمه المَصادر الأُخرى الأثريَّة والوثائقيَّة وغيرها من الأصُول التي يتَّخذ منها المُؤرِّخ حجر الزَّاوية في إعادة تركيب الحَدث أو الظَّاهرة التي يتصدَّى لها بالدِّراسة، لأنَّها تنقل إليه؛ أو حتَّى تنقُله إلى الجوِّ العام الذي دارت فيه الأحْداث، وتجعله يقف على أحَاسيس صنَّاعها ومشَاعرهم.

حقّاً يحرص أصْحاب الأعْمال الأدبيَّة على قدر ملحُوظ من المُبالغة بقدر ما يتطلَّب الغرض الذي كُتب العمل من أجْله ذلك، تضْخيماً للذَّات أو تَعْظيماً لطرف وتَقْزيماً لآخر، ولكنَّ اعتماد المُؤرِّخ على العمل الأدبي يُتيح له اتِّقاء الوقُوع في أسْرِ مثل هذه المُبالغَات على ضوء ما بين يَديه من مَصادر أثريَّة ووثائقيَّة، فهو لا يبحث في تلك الأعْمَال عن وقائع ما جَرى، ولكنَّه ينشُد استنشَاق عَبق الجوّ التَّاريخي الذي دارت فيه الأحْداث، وإدراك أبْعاد الحالة المزاجيَّة والنَّفْسيَّة للمُشاركين فيها، حتى يَستطيع تجْسيد الحَدث أو الظَّاهرة موضُوع

دراسته، هذا فضلاً عن الوقُوف على العَادات والتَّقاليد والقِيَم الاجْتماعيَّة والخُلقيَّة التي نادراً ما نجد تَسجيلاً لها إلاَّ في كتابات من عاشُوا الحِقْبَة أو عاصَرُوها .

لذلك كان الكَشف عن أيِّ عملٍ أدَبي يُعْنَى بتسجيل حِقْبَة تاريخيَّة ما؛ من الأهميَّة بمكان للبَاحثين في التَّاريخ، حتَّى لو توفَّرت المَصَادر الوثَائقيَّة الأصليَّة؛ من هُنا تأتي أهميَّة هذا العَمل : "المَناقب المُصْطفويَّة والمَآثر المُحمَّديَّة العَلويَّة" لاسْكندر بن يعقُوب أغَا أبْكَاريُوس؛ الذي حقَّقهُ الأُستاذ أحمد عبد المنعم العدوي، وجعلهُ يرى النُّور بعد ما يقرُب من القَرن وربُع القرن من الزَّمان، فقد فرغ مُؤلِّفهُ من كتابته عام ١٨٧٣ .

ولعلَّ بقاء العَمل مخطُوطاً طوال هذه المُدَّة له ما يُبرِّره على ضوء أحْداث العام الذي فرغ فيه المُؤلِّف من كتَابته، فقد تناول هذا العمل مَناقب مُحمَّد علي بَاشا وولده إبراهيم باشا تملُّقاً لمُصْطَفى فاضل باشا بن إبراهيم -وحفيد مُحمَّد عَلي- والشَّقيق الأصْغر للخديوي إسْماعيل – وكان يَصغُره بعامَيْن – والمُرشَّح الطبيعي لولاية العهد وفْق فَرمَان عام ١٨٤١ الذي جعل حُكم مصر للأرْشَد من أبْناء مُحمَّد علي باشا وذُريَّتهم، ولمَّا كان إسْماعيل قد نَجح في التَّخلُّص ممَّن كانُوا يكبرُونه سِنَّاً من أمراء الأُسرة حتى يصل إلى أريكَة الحُكْم – سَواء كان ذلك التَّخلص من صُنع القدر أو من صُنعه هُو – فقد كان مُصْطفى فاضل يقف حَجر عَثْرة في طريق تغيير نظَام وراثَة حُكْم مصر ليُصبْح

من نصيب أكبر أبناء الخديو إسماعيل (مُحمَّد تَوْفِيق باشا) وهُو ما تحقَّق فعْلاً في نفس العام الذي انْتَهى فيه اسكندر أبْكَارِيُوس من كتابة هذا الكتاب ليُهديه إلى مُصْطفى فاضِل بَاشا، ويَنال منهُ ما قد يفيض به عليه من عَطاء، وهو العَام الذي قُطِعَت فيه صلة مُصْطَفى فاضل باشا بمصر، واخْتَار استَانْبُول مَقرّاً له، مُحاولاً إعَاقة صدُور ما سُمِّي بالفَرمَان الشَّامل الذي وسَّع من صَلاحيَّات حاكِم مِصْر ليَرقى بوضْعها إلى "الحُكْم الذَّاتي الكَامل" الذي لا يُبْقي من الصِّلات بين مصر والدَّولة العُثْمانيَّة سوى السِّيادة الإسْميَّة، ومظهرها سَداد الخَراج السَّنوي لاستَانبُول، وهو الخَراج الذي اقْتَرضت الدَّولة العُثْمانيَّة بضمَانه من البنُوك الأُولى قَرضاً خصِّصت خَراج مصر لسَدادِه، ووافَق الخديو على ذلك، واستمرَّت مصر تُسدِّد الدَّيْن (الخَراج) حتَّى بعد زوال السِّيادة العُثْمانيَّة بما يزيد عَلى العقْديْن من الزَّمان .

وتضمَّن "الفَرمان الشَّامل" تغْيير نظام ولاية العَهد (وراثَة الحُكْم) من أرْشَد أبْناء أُسرة مُحمَّد عَلي إلى أكْبَر أبْناء الخِديوي، وحتَّى يضْمَن الخديو إسْماعيل بقاء أخيه مُصْطفى فاضِل بعيداً عن مصر، فقد أرْغَمهُ – بعد مُفاوضات طَويلة – على أن يَتنازل لهُ عن جميع أمْلاكه في مصر لقَاء مبلغ مَالي كَبير .

في هذا الجَو المُلبَّد بغيُوم الصِّراع على الحُكْم والمُؤمَرات – الذي جرَت فيه أمْوال الرِّشى التي أنْفقَها الخديو إسْماعيل في استانبُول

أنْهاراً – فرغَ الأديب الهُمام اسكندر أبْكاريُوس من "المَناقب المُصطفويَّة والمآثر المُحمديَّة العَلويَّة" ولا أظُنُّ أنَّه وجد الفُرصة المُتاحة لإهداء هذا العَمل فعْلاً إلى مُصْطفى فاضل بَاشا، وإلاَّ كان الأخير قد دَفع بـــه إلـــى المَطْبعَة ليخْدُم قضيَّته في الصِّراع السِّياسي مع إسْماعيل، ولعلَّ اسكندر أبْكاريُوس لم ينل جَائزته على هذا العَمل إلاَّ على يدِ مُحقِّقهُ أحمد عبـــد المنعم العدوي الذي أخْرجهُ إلى النُّور، فمن الواضـــح أنَّ المخطُوطـــة بقيت بمصر حتَّى وجدت في مَكتبة الأزْهَر مُستقرَّاً لها.

ولعلَّ اسْكندر أبْكَاريُوس استفاد من هذه المخطُوطة في الكتـــاب الذي صنَّفه مُشاركةً مع مُحمَّد مِكَّاوي ونُشر عام ١٢٩٩هـــ بالمطْبعـــة الوهبيَّة بعنوان "المنَاقب الإبْراهيميَّة والمآثر الخِديويَّة " وما كَالـــهُ مـــن مديحٍ للخِديوي إسْماعيل وتَوْفيق فـــي كتابـــه "نُزْهـــة النُّفُـــوس وزينـــة الطَّرُوس" فيما يُمكن أن نُسمِّيه "تَوْفيقاً للأوْضَاع"، كَفَّر فيه عـــن ولائـــه لمُصْطفى فاضل باشا في "المَناقب المُصْطفويَّة"، وخاصَّة أنَّه لقي إحْساناً من إسْماعيل عندما قَصد مصر عام ١٨٧٤، وتقلَّب في مَنَاصب الإدارة المصريَّة زُهَاء عَشْر سنَوات، قبل أن يَدْهمُه المَرض ويعُود إلى بـــلاده حيث تُوفِّي بعد عام ١٨٨٧.

ورغم ما في الكتاب من مُبالغَات؛ إلاَّ أنَّه يُتيح لمن يَهْتم بدراسة الوجُود المصْري في الشَّام على عهدِ مُحمَّد علي الوقُوف علـــى المُنـــاخ

الذي دارت فيه الأحداث وبعض ما اتّصل بعلاقات السّلطة وأحوال النّاس، كما يُقدّم لدارسي تاريخ الأدب العربي في القَرن التّاسع عشر مَعيناً من المادّة النّافعة .

وقد بذل المُحقّقُ جهداً مُتميّزا في ضبْط النّص والتّعليق عليه خدمةً للتّاريخ والثّقافة العربيّة، يَستحقُّ التّقدير والثّناء .

رءوف عبّاس حامد

أستاذ التاريخ الحديث

كلية الآداب جامعة القاهرة

مُقدمة المحقق

جدُّ نادرة هي المصادر الأدبيَّة التي أرَّخت لعصري مُحمَّد علي باشا الكبير (١٨٠٥/١٨٤٨) وإبراهيم باشا (١٨٤٨)، ولا أظُنني مُبالغاً إذا ما حَصرتها في كتابات الجَبرتي الذي وصل بتاريخه إلى عام ١٢٣٦هـ/ ١٨٢١م، وخليل بن أحمد الرَّجبي المُتوفى تقريباً في حدُود عام ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م في كتابه "تاريخ الوزير مُحمَّد علي باشا"[١]، أما بالنسبة لإبْراهيم باشا فلا شيء يَسترعي الانتباه سوى عمل المؤلف الدِّمشقي المجهُول الذي رصَد أخبار حملته على الشام[٢].

---

(١) نُشر مؤخَّراً باعتناء دانيال كريسليوس وحمزة عبد العزيز بدر وحسام الدين اسماعيل ، القاهرة ١٩٩٧.

(٢) عثر عليه أولاً الخوري قسطنطين باشا في مكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت التي كانت قد حصلت على صورة منه عن نسخته الأصلية الفريدة المحفوظة بمكتبة برلين ثم نشره أواخر القرن التاسع عشر ، تحت اسم "مذكرات تاريخية بقلم أحد كتاب الحكُومة الدِّمشقيّين" ثم أعاد نشره المُحامي أحمد غسان سبانو تحت اسم "مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سورية"، ولا يمكن أن نغفل أيضاً في هذا الصدد أهمية كتابات كلوت بك، وهناك أيضاً عملين هامين جداً لمؤرخ مُعاصر لمحمد علي وهو فليكس منجن Félix Mengin وهما:-

Histoire de l' Egypte sous le Gouvernement de Mohammed Aly ou récit des événements politiques et militaires qui ont eu lien dipuis le départ des françis jusqu' en 1823, paris 1823 ; Histoire sommaire de l' Egypte sous la gouvernement de Mohammed Aly , Paris 1839 .

ومن الملاحظ أن نُدرة الكتابات التاريخية المُعاصرة قد أضفت أهمية كبيرة على بعض الكتابات المتأخرة نسبيًا ككتابات علي باشا مبارك وأمين سامي بك والأمير عُمر طوسون وميخائيل شاروبيم وإلياس الأيوبي وهي من بعض الزوايا ترقى بالفعل إلى درجة المصادر الأصلية.

وبين يديك الآن أحد هذه المصادر الأدبيَّة النَّادرة وهو كتاب "المناقب المُصطفويَّة والمآثر المُحمَّديَّة العلويَّة" لاسكندر بن يعقُوب أغا أبكاريُوس.

المُؤلِّف

كتاب "المناقب المُصطفوية والمآثر المحمدية العلويَّة" من تصنيف اسكندر بن يعقُوب أغا أبكاريُوس الأرْمَني وهو كاتبٌ لبناني معرُوف، وعلى الرَّغم من كونه أحد أشهر الكُتَّاب البارزين من الشُّوام في النِّصف الثاني من القرن التَّاسع عشر، وبالرغم أيضاً من نشاطه العلمي الجَم فإن المعلُومات المُتوفِّرة لنا عن حياته لا تتوازن مع ذلك الدَّور الذي لعبه في الحياة الثَّقافية في عصره، كل ما نعرفهُ عنه أن جذُوره تَنْحَدر من أصول أرمنيَّة[1].

ومن غير المعرُوف على وجه التَّحديد تلك الظروف التي حتَّمت على عائلة أبكاريُوس النُّزوح من أرمينيا إلى بيروت، إلا أنَّ جُرجي زيدان ينفرد من بين جميع من أرَّخُوا لأبكاريوس بهذه الرواية التي تلقي بعض الضوء على شخصية يعقُوب أبكاريوس وظرُوف هجرته إلى الشام، يقول جرجي[2]:-

> "في أواخر القرن الثَّامن عشر للميلاد وأوائل القرن التَّاسع عشر حدث في أرمينيا حدثٌ بعث على مُهاجرة جماعيَّة من كبار الأكليرُوس الأرمني، نزحُوا من أرمينيا إلى برِّ الأناضُول، ووصل

(١) لويس شيخو: تاريخ الآداب العربية ، بيروت (١٩٢٤) ٣ : ١٣٢.

(٢) تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، بيروت، د.ت، ٢ : ٣١٣.

إلينا أسماء ثلاثة منهم: وهم أُسقُفَان احدهما ترابيب[1] ديونسيُوس والثّاني يعقُوب أبكاريوس، والثالث برتبة ورتباد[2].

ولا نعلم سبب تلك المُهاجرة، وقد يكون السبب اختلافاً في المذهب أو الرّأي، ويقال أنّ الكنيسة الأرمنية ادّعت عليهم أنهم تصرفوا بأموال ديرٍ أو كنيسة هناك؛ فانضموا إلى الكنيسة الإنجيلية، ولجأوا الى سفير انكلترا في الأستانة اللورد ستراتفورد *Stratford*، فلمّا تفحّص قضيتهم اعتقد ببراءتهم فأخذ يُناصرهم، وتوسّط في إطلاق سراحهم وأشار عليهم بالذهاب إلى سُورية وأرفقهم بكتاب توصية إلى قُنصل الإنكليز في بيروت واسمه بطرس أبُوت *Peter Abbot*[3].

شخص هؤلاء إلى سُورية والمرسلون الأمريكان لأوّل عهدهم فيها فرحّبوا بهم فأقاموا فيها وتزوّجوا فأقام يعقوب أبكَاريوس في بيروت وعرف بيعقُوب أغا، واشترى منزلاً قرب القُشلاق عُرف باسمه ثم اشتراه الأرْمَن وجعلوه ديراً لهم ، ولا يزال إلى الآن ، وعائلة أبكاريوس مَشْهُورة".

على أي حال فقد استقرّ يعقُوب أبكَاريُوس ببيروت، وصار أحد كبار أعيانها، ثم لم يلبث أنْ ربطت أواصر التقدير المُشترك بينه وبين إبراهيم باشا نجل مُحمّد علي، وارتبط به ارتباطاً وثيقاً، وصار خصيصاً به لا سيما بعد استيلاء إبراهيم باشا على بيروت[4].

(1) رتبة دينية كبيرة في الإكليروس الأرمني.
(2) راجع حاشية ٢ أعلاه، مع ملاحظة أنها أقل شأناً من الرتبة الدينية المتقدمة.
(3) سيشير اسكندر أبكاريوس إلى دوره في الأحداث التي سبقت حصار إبراهيم باشا لعكّا، انظر ص ٧٥ من هذه النشرة.
(4) شيخو: نفسه، نفس الجزء والصفحة.

ومن هُنا نشأت صلة كبيرة بين الأسرة العلويَّة في مصر وبين آل أبْكَاريُوس في الشَّام، فبُعيد وفاة الأب في بيْروت عام ١٨٤٥م[١] هاجر ولداه اسكَندر ويُوحنَّا إلى أوربا طلبا للعلم[٢]، ثم عادا إلى بيروت في وقت ما خلال النِّصف الثاني من القرن التَّاسع عَشر، ثم غادر اسكندر بيْرُوت إلى القاهرة عام ١٨٧٤ قاصداً الاستقرار بها - وغالباً فإنَّ صلة عائلته القَديمة بالعائلة الخديويَّة في مصر كانت وراء إقدامه على تلك الخُطوة - فقد أحْسَن الخديو إسْمَاعيل وفادته، وأسند إليه عدة مناصب تقلَّب فيها حتَّى أصبح رئيس دائرة إسماعيل باشا صدِّيق[٣] الشَّهير بالمُفتِّش - وزير المالية وقتئذ - ثم غادر إلى بيروت للاستشفاء من مرض السُّحج[٤]، ويُجمع من ترجمُوا لاسكندر أبكاريوس على أن مرضه كان قصيراً إذ لم يلبث أن توفي عام ١٨٨٥.

لكن هذا التاريخ الذي تحدده المصادر ليس صحيحاً على الإطلاق ، فالثابت لديّ أن اسكندر كان على قيد الحياة حتى مُنتصف عام ١٨٨٧ على الأقل ، فهُناك خطاب على شكل إهداء على غُلاف أحد

---

(١) ذكر شيخو أن يعقوب أبكاريوس قد توفي عام ١٨٤٥ واستدل على ذلك بأبيات للكاتب والأديب الشهير إبراهيم اليازجي أرَّخها اليازجي بذات العام يرثى فيها يعقوب أبكاريوس بقوله:

مضى إلى الله من طابت سريرته ... بالله وهو بعفو الله مصحوبُ
فقُل لمن جاء بالتاريخ يطلبهُ ... قد صار في حضن إبراهيم يعقوبُ

شيخو: نفسه ، نفس الجزء والصفحة.

(٢) جورجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة (١٩٥٧) ، ٤ : ٢٨٨.

(٣) يوسف إليان سركيس: مُعجم المطبوعات العربية، مكتبة آية الله العظمى، النجف (د.ت) ١ : ٢٣.

(٤) مرض شديد يصيب الجلد ويؤدي إلى تقشره وانسلاخه، ربما كان أحد أنواع الجديري أو نوعاً من أنواع الجذام، انظر الخوازمي: مفاتيح العلوم، نشرة جودت فخر الدين، بيروت (د.ت) ص ١٥٣.

مُؤلفاته بخط يده وهو كتاب "نوادر الزّمان في ملاحم عربستان" أهـداه أبكاريوس لأحد الأعيان – ولم ينص على اسمه– مُؤرّخاً إيّاه بتـاريخ ٣ حزيران (يونيو) ١٨٨٧[١].

على الأرجح فإن اسكندر أبكاريوس قد انـزوى عـن الحيـاة العامة، واختار الإقامة بالأماكن النائية عن بيروت، وعلى الأرجح أيضاً أن ذلك كان بسبب الندب والبثور التي تركت آثارها على وجهه وجسده، بحيث صعب على متتبعي أخباره معرفة تاريخ وفاته على وجه الدقـة، أو ربما حدث نوع من اللبس والخلط عند مُعاصري الأخوين أبكاريوس في تحديد تواريخ وفاة كلا الشقيقين اسكَندر ويُوحنّا الذي تُجمع المصادر على وفاته بإحدى ضواحي بيروت عام ١٨٨٩[٢]، علـى ذلـك يكـون يُوحنا هو الذي توفي عام ١٨٨٥، ثم تلاه شقيقه اسـكندر عـام ١٨٨٩ وهذا أيضاً يشكل افتراضاً معقولاً.

وعلى أي حال فالخطاب المذكُور لا يثبت فقط بقاء اسكندر على قيد الحياة حتى ما بعد عام ١٨٨٥ وإنّما يلقي بعض الضوء على حيـاة اسكندر في أُخريات أيّامه، وعلى حالته النفسية والمزاجية التي سيطرت عليه أواخر أيامه، يقول اسكندر موجّهاً الحديث إلى من أهدى له كتابـه نوادر الزّمان:–

سيدي الأجل الأفخم أطال الله بقاه:

لُحبُّ سعُود أوقاتكم والسؤال عن عزيز خاطركم الكريم، اعرض أنه إذ لم يمكنني لحد الآن الحصُول على خدمة مُناسبة من تدريس

---

(١) انظر ظهر غلاف الكتاب المذكُور بعاليه، مخطوط بالمكتبة الآصـفية، حيـدر آباد، الدكن برقم ٧٣٦ تاريخ.

(٢) شيخو: نفسه، ٣ : ١٣٣ .

أو خلافه في هذه المدينة؛ فقد صمّمت على الرجُوع إلى بيروت في وقت قريب، وحيث من سُوء الحظ لم تسنَح الفُرصة باجتماعي مع حضرتكم في أثناء هذه المُدّة الطويلة؛ فأرجو من جنابكم قبول هذا التّأليف على سبيل التّذكار.

وأطال الله تعالى بقاكم .

الداعي لجنابكم

اسكندر أبكاريوس

في ٣ حزيران سنة ١٨٨٧

ومن هذا الخطاب يتبيَّن أن خروج اسكندر من مصر لم يكن بهدف النّقاهة والاستشْفَاء، وإنّما كان نزُوحاً نهائياً عنها، فقد استقر ولمدة طويلة بإحدى المُدن التي لم يُفصح عن اسمها، وكان يبحث خلال تلك المُدة عن عمل يناسب قدراته ومُؤهلاته كتدريس أو خلافه على حد قوله، فلما أيس من ذلك قرّر الرجوع إلى بيرُوت بشكل نهائي، وهو ما حدث بالفعل حتى توفي بها بعد عام ١٨٨٧.

مُؤلّفاته

ترك الأخوان أبكاريُوس العديد من المؤلّفات التي جعلت منهُما بحق اثْنان من رواد النهضة الثقافية في مصر والشّرق في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبصفة خاصّة اسكندر الذين كان أغزر إنتاجاً من شقيقه[1]، ومن أشْهر مُؤلفاته كتابه "نهاية الأرب في أخبار

---

(١) كان يوحنا أبكاريوس أقل إنتاجاً من شقيقه إلا أنه كان أكثر تجريدا وعمقاً في=

العرب" الذي طُبع أولاً بمرسيليا عام ١٨٥٢[١] ثم زاد عليه وجدَّد طباعته في بيروت ١٨٦٧ ونشره باسم "تزيين نهاية الأرب في أخبار العرب"[٢] وكتاب "روضة الأدب في طَبقات شُعراء العرب" والذي صدر ببيروت ١٨٥٨[٣] "ومُنية النَّفس في أشعار عنتر عبس" وطبع ببيرُوت عام ١٨٦٤[٤] وكتاب "نُزهة النُّفوس وزينة الطُّروس" وهو كتاب في المدائح والمَراثي والتَّهاني ، مدح فيه كل من الخديوي إسْماعيل وتَوْفيق ، وطُبع بمطبعة جريدة الزمان عام ١٨٨٣[٥] وديوان شعره الذي لا زال

= أسلوبه الأدبي من شقيقه اسكندر الذي أغرم بالسجع - الذي كان أسلوبا مفضلاً لكتاب ذلك العصر من المتمكنين من العربية - وقد صنف يوحنا كتابا قيما في التاريخ أسماه "قطف الزهور في تاريخ الدهور" واحتفظ في خزانتي الخاصة بنسخة نادرة منه طبعت ببيروت عام ١٨٧٣، وينسب شيخو له كتاب اسمه "نزهة الخواطر" لم أقف له على أثر، إلا أن شيخو يقول أن مؤلفه قد جمع به بعض الأخبار وبعض المقاطع الأدبية ، شيخو المصدر نفسه ٣ : ١٣٣، ومن أشهر آثاره قاموس انجليزي - عربي يعتبر معجماً قيماً عني بتنقيحه بعد وفاته نجله يوسف أبكاريوس، ثم أعاد تنقيحه ونشره البروفسيور فرانكلين وهي ذات الطبعة التي بين أيدينا اليوم.

(١) شيخو: نفسه، ٣ : ١٣٣.

(٢) إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين بأسماء الكتب والمصنفين، بيروت ١٩٨٢ ، ١ : ٢٠٦؛ قارن أيضا إيضاح المكنُون في الذيل على كشف الظُّنون للمؤلف نفسه، بيروت (د.ت) ١ : ٥٩٢.

(٣) البغدادي: هدية العارفين، نفس الجزء والصفحة.

(٤) إدوارد فنديك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، بيروت ١٩٨٧، ص ٤٢٩.

(٥) نفسه، نفس الصفحة؛ سركيس: معجم المطبوعات ١ : ٢٤.

مخطُوطاً لم يُنشر بعد، وعدَّة كُتب في التَّاريخ أبرزها "ديوان الـدَّواوين في أجْوَاد المُتقدمين والمُتأخِّرين"[1] .

وله ترجمة مُفردة لإبراهيم باشا دعَاها "المناقـب الإبْراهيميَّـة والمآثر الخديويَّة" صنَّفه مُشاركة مع مُحمَّد مكِّـاوي[2] وطبـع بمـصر بالمطبعة الوهبيَّة ١٢٩٩هـ ودوَّن في آخره ثبتاً بمُؤلفاته - وهذه الطَّبعة غدت اليوم جدُّ نادرة إذ لا علم لي بطبعات منها بعـد طبعـة المكتبـة الوهبيَّة - ومن الجليِّ أن كتاب المناقب المُصْطفويَّة كان النَّواة الأولـى لهذا الكتاب .

هذا بالإضافة إلى كتابه قصَّة شَهْريار، وله كتاب لقي حظـه من النَّشر مؤخَّراً وهو كتاب "نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان"[3]، كما يُنسب إليه كتاب "خرابات سُوريَّة" وهو عبارة عن رسـالة فـي آثـار سُوريَّة القديمة، ولكن هناك شكٌّ كبير أن تكُون هذه الرِّسالة من تصنيف ميخائيل زكريا الخُوري صاحب جريدة "حديقة الأخبار"[4].

وثمَّ كتاب ذكر المُؤلِّف أنَّه من تآليفه، ولم أجد له ذكراً فيما بين يدي من المَراجع التي ترجَمت لأبْكاريُوس وهو كتاب "البَدر السَّافر فـي أعيان القرن الحَاضر"[5] وغالباً فإنَّ أبكاريوس لم يتمكَّن مـن طباعتـه لسببٍ ما.

---

(١) شيخو: نفسه ٣ : ١٣٣.

(٢) شيخو: نفسه، نفس الجزء والصفحة.

(٣) نشر باعتناء إبراهيم السمك، لندن ١٩٨٧.

(٤) سركيس: معجم المطبوعات، ١ : ٢٥.

(٥) انظر ص ٦٧.

موضُوع الكِتَاب

يتناول الكتاب تاريخ مُحمَّد علي باشا وإبراهيم باشا مع التَّركيز بشكل واضح على إبراهيم باشا وفتُوحاته لا سيَّما في الشَّام والأناضول، ومن الواضح تماماً أن المُؤلف لم يرد كتابة التَّاريخ للتاريخ في حدِّ ذاته، بل قصد كما ذكر في مُقدِّمته أن يُجامل الأمير مُصطفى فاضل بن إبراهيم باشا -وشقيق الخديوي إسْماعيل- الذي أحْسَن وفادته وأجزل له العطاء عندما زاره المُؤلِّف بالأستَانة عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م وقدَّم له نُسختين من كتابيه "روضة الأدب في طبقات شُعراء العَرب" ونوادر الزمان في وقائع جبل لبنان" ثم عاد إلى بيروت وصنَّف هذا الكتاب في ذات العَام، كما يُفهم من مُقدِّمة المُؤلف بجلاء:-

" .... فجاء - بحوله تعالى - كتاباً نفيساً جليلاً ، وتاريخاً مُفيداً جميلاً يلتذُّ بمُطالعته القَارئ والسَّامع، ويأخذ بمجامع القلوب والمسامع، وكان ترتيبي له في مدينة بيرُوت المحميّة، سنة ألف ومائتين وتسعين هجريّة، المُوافقة لسنة ألف وثمانماية وثلاث وسبعين مسيحيّة ..... قُلت:- وكان السَّببُ في وضع هذا الكتاب وتقديمه إلى حَضْرة الوزير المُشار إليه - من جعل الله مقاليد السيادة والسعادة طوع يديه - هو أنني لما كنت بالأستانة العليّة، في أواسط [عام] ١٢٩٠هجرية تشرَّفت بلثم أعتابِ دولته، وتطفَّلت على عالي حضرته بتقديم نُسخة من كتابي "روضة الأدب في طبقات شُعراء العَرب"، مع نُسخة من كتاب "نوادر الزَّمان في وقائع جبل لبْنان"، فوقعتا عنده في حيِّز القبُول وانعم عليّ بأحسنِ مأمُول، ولمَّا رجعت إلى الأوطان، وتذكرت ما

أولاني به من جزيل الإحسان – الذي يعجز عن وصفه اللسان – بادرت حالاً بهذا التاليف، وسرت بنفسي لأقدّمه إلى جنابه الشريف، مُلتمساً من حضرته أن يَشملني – وإيّاه – بالنظر السّامي المنيف لأنّي من جُملة عبيده وخُدّامه، المُنتمين إلى سُدّة مقامه "[1].

ويبدو ممّا ذكره المؤلّف أن مُصطفى فاضل باشا لم يُكلّفه مُباشرة بتأليف هذا الكتاب عن مآثر أبيه وجدّه، وأن المؤلّف قد بَادر من تلقاء نفسه إلى تأليف هذا الكتاب كردٍ للجَميل أو التماسٍ للعطاء، وأنّه فرغ منه على حدّ قوله ببيْروت عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م وسمّاه المناقب المُصطفويّة مُجاملة للمُهْدى إليه مُصطفى فاضل.

ومن اللاّفت للنّظر أن المؤلف لم يتناول تاريخ مُحمّد علي باشا منذ بداية حُكمه وحتى وفاته وكذا إبراهيم باشا على نحو تقليدي مُرتّباً حولياً أو حتى موضُوعيّاً، وإنّما جاءت مُعالجته لموضُوعاته على نحو انتقائيٍّ تماماً، فالمؤلف لا يكاد يحفل إلا بأخبار إبراهيم باشا وأخبار حملاته المُظفرة في الشّام والأناضُول، وإدارة إبراهيم باشا للشّام وثورات الدُروز في عهده، والإجراءات التي اتخذها إبراهيم باشا لإخْماد تلك الثورات، ثم خلافته لوالده وأخيراً وفاته.

ومن الواضح أن المؤلف يُكنُّ إعجاباً خاصّاً بإبراهيم باشا، فالمؤلف شأنه شأن الشّوام من سُكان مُدن وحواضر الشّام قد تفتّح وعيه على دولة عربيّة مُترامية الأطراف تمتد من جبال طُوروس وحتى وادي

[1] انظر مقدمة المؤلف، ص ص ٣٧ ، ٣٨.

النِّيل – كان إبراهيم باشا قد نجح في إنشائها بحد سيفه – ومن ثم نظر كغيره إلى إبراهيم باشا نظرة المُخلِّص من نير الحُكم العُثماني الذي لم يكن يُعني إلا باستنزاف مواردهم أولاً فأوّل، وكأحد الشوام أيضاً من الذين أكملوا تعليمهم في أوربا وبالتالي كانوا أقرب من غيرهم في تفهُّم تجربة إبراهيم باشا في الشام والتي حاول فيها تطبيق نفس نمط التحديث مُقتدياً بتجربة أبيه في مصر .

أضف إلى ذلك تلك الثقافة والرُّوح العربيَّة الخالصة التي كان إبراهيم باشا – على العكس تماماً من والده – يتميَّز بها ، والتي كان بثّ الرُّوح القومية العربيَّة من أهم الدَّعائم التي اعتمد عليها إبراهيم باشا في توطيد حُكمه بالشَّام، ومن ثم شهدت تلك الدولة العربية – قصيرة الأجل – حركة إحياء ونهضَة حقيقية وملحُوظة للثقافة العربيَّة الكلاسيكية، وربما لهذا السبب ظلَّ إبراهيم باشا يتمتَّع بتقدير وإعْجَاب الأدباء والمُثقفين الشَّوام.

كذلك لا يجب أن نُغفل انتماء المُؤلف إلى طائفة نصارى الشَّام والذين عانُوا كثيراً إبَّان الحُكم العثماني، ومن ثم لم يكُن من المُستغرب أن يكونُوا أكثر من غيرهم ترحيباً بالحُكم المصري الأكثر تسامُحاً –إن لم يكن تعاطُفاً– مع أهل الذِّمة مُقارنة بالحكم العُثْماني ، وفي المُقابل كان هؤلاء النُّصارى أيضاً الأكثر تضرُّراً من غيرهم من عودة الشَّام إلى السيادة العُثمانية مرة أُخرى، لذا كان لإبراهيم باشا مكانة كبيرة في نفُوسهم، هذا أخذاً في الاعتبار أن والد المُؤلف نفسه كان واحداً من هؤلاء المُقربين من إبراهيم باشا.

ومن المعقول كذلك أن المؤلّفَ -ذو الأصل الأرمنيّ- كان كغيره من أرْمَن المَهْجَر الذين يكنُّون مشاعر البُغض والكراهية للدولة العُثمانية- تأثُّراً بادعاءات بني جلدتهم في الوطن بانتهاج الأتراك لسياسة تطهير عرقي مُنظَّمة ضدهم- لم يكترث إلا بتسجيل هزائم وانكسارات الدولة العُثمانية، ولم يحفل إلا بأخبار تلك المَعارك التي لم يكن نصيب تلك الإمبراطورية العظمى إلا الهزيمة والإذْلال المرَّة تلو الأُخرى على يد إبراهيم باشا.

كذلك كان لاسكندر أبكاريوس أيضاً دافعاً خاصاً وهي العلاقة الحميمة التي ربطت والده يعقوب أبكاريوس وإبراهيم باشا، وإعلاء إبراهيم باشا من قدر والده، وقد أفصح اسكندر نفسه على أن هذا السبب كان من أسباب سعيه إلى جمع مناقب إبراهيم باشا، يقول اسكندر أبكاريوس:-

> "وكان إبراهيم باشا مُحبّاً لسيِّدي المرحُوم الوالد، والأب العزيز الماجد، وهو يعقُوب أغا المشهُور، صاحب الفضل والصِّيت المشكُور، الذي كان من أكابر زمانه، وأجود أهل عصره وأوَانه، وكان يزوره في أكثر الأحيان، ويُعامله باللُّطف والإحسان، ويخلع عليه الخلع الحسان، كما هو معلُوم للخاص والعام، من أهل بيروت وبر الشَّام، وبهذه الوسيلة ارتفع أبي بفضله جاهاً وقدراً، واكتسب بصفاء أنظاره شرفاً وفخراً، وكان مسمُوع الكلام، مرفوع المقام، عند الولاة والحُكَّام، مقصد الحل للمعَاقد والمشاكل، وكهفاً تلتجئ إليه الأيْتَام والأرامل.

وكان من جملة مساعيه الخيريّة، وأفعاله الحميدة المرضيّة؛ أنه أطلق عشرة ألفار من أهل بيرُوت من الخدمة العسكريّة، ممن كانوا فُقراء الحال، وأصْحَاب عيال، منهم أحمد مرزا البيرُوتي، وعبد الرحمن المغربل، وأحمد العالوتي، وأحمد طقطق الدلال، وغيرهم من الرِّجال، وهذا حظٌّ عظيم، والتفات جسيم، لم ينله غير والدي من مكارم جناب إبراهيم، وهذه المعاملة الجميلة هي التي حملتني إلى جمع مآثره الجليلة، وتدوينها في هذا الكتاب، ليبقى ذكراً لحضرته على مدى الأحقاب»[1].

كل هذه العوامل مُجتمعة جعلت المؤلف لا يكترث إلا للتَّأريخ لتلك الدولة العربيَّة الوليدة التي كانت انتصارات وأمْجاد إبراهيم باشا وحُروبه ومَعاركهُ الظَّافرة في الشَّام والأناضُول هي ما مهَّد السَّبيل لميلادها.

مصَادر المُؤلِّف

لا يُفصح المُؤلف عن مصادر معلُوماته في أغلب الأحْيَان، ومع ذلك فالظَّاهر أنَّه استَقى أكثرها من الرِّوايات الشَّفهية من أعْيَان الشَّام والضبَّاط الشُّوام الذين رافقُوا إبراهيم باشا في حملاته سواء في الشام أو الأنَاضُول؛ من ثم فالمعلُومات التي أوْرَدها المُؤلِّف عن معارك إبراهيم

[1] اسكندر أبكاريوس: المناقب الإبراهيمية والمآثر الخديوية، القاهرة ١٢٩٩هـ، ص ١١٩.

باشا وفتوحاته في الشّام والأناضول تستمد أهميّتها من أن المؤلف استمدها من أفواه شهود عيان، فالمؤلف ينصُّ على ذلك بقوله:-

"وكانت لإبراهيم باشا في حصار عكّا مواقف غريبة، ومشاهد مُدهشة عجيبة، تدلُّ على شدة بأسه وشجاعته، وحسن تدرُّبه في أبواب الحَرب وبراعته، فمن ذلك ما حدثني به بعض الأعيان من أهالي عربستان ممن كان في خدمته، ومُقدما بين رجَال دوْلته، قال ...." [1].

إلى جانب ذلك فمن الواضح أنَّ المؤلف كان واسع الاطّلاع على الوثائق الرسميَّة، خاصة تلك التي تتعلق بالبلاغات الحربيَّة وموقف إبراهيم باشا الحربي ونشرات الجيش المصري، إلى جانب تلك الوثائق المُتعلقة بمُراسلات مُحمَّد علي باشا مع دول أوربَّا بخصوص مُفاوضاته مع الباب العالي بعد نجاحه في فتح عكّا وضم الشّام إلى مصر، ويبدو أن المؤلف قد استفاد من كونه أحد كبار موظفي الحكُومة المصرية في عهد الخديوي إسماعيل وفي الوقت ذاته واحداً من المُقرَّبين من الأسرة الخديويَّة، وأن تلك القُربى قد لعبت دورها في إتاحة الفُرصة للمؤلّف للاطّلاع الواسع على المحفُوظات والسّجلات الوثائق والمُراسلات الرَّسمية المُعاصرة والتي حرص المؤلف على الاستشهاد بجُملة منها إضافة إلى نشره بعضها حرفيَّاً في ثنايا كتابه.

بعبارة أخرى فقد مزج المؤلّف بين الروايات الشّفهية التي حصل عليها من أفواه الضُباط والأعيان الشّوام المُقرَّبين من إبراهيم باشا

---

[1] انظر ص ٨٣ .

والذين رافقوه في حملاته سواء في الشّام أو الأناضُول وبين تلك المعلُومات التي استخلصها من الوثائق.

وعلى الرّغم من أنّ المُؤلف قد صنّف كتابه هذا خصّيصاً -بل وأهداه أيضاً- إلى أحد أحفاد مُحمّد علي على سبيل التزلُّف والمُجاملة؛ أي أنّه لا يخلُو من شُبهة التملُّق فإنّه بالمُقابل لا يخلُو من معلُومات قيّمة، خاصة تلك التي تتعلّق بإبراهيم باشا وفتُوحاته الظّافرة في الشّام والأناضُول، وكذا أخبار تمرُّد وثورة درُوز لبنان وسُكّان الجبل إبّان حُكم إبراهيم للشّام في عهد والده مُحمّد علي باشا.

كما يعدُّ أيضاً من الأهميّة بمكان للدّارسين المُهتمّين بتطوُّر الجيش المصريّ في عصر مُحمّد علي، وكذا تطور التكتيكات العسكريّة في الشّرق الأوسط خلال القرن التّاسع عشر، بالإضافة إلى أنّه يُلقي ضوءً لا بأس به على أوضاع الشّام خلال عصر مُحمّد علي، وخصُوصاً تلك المُتعلّقة بالحياة الثّقافية.

وصْف المخطُوط

اعتمدت في نشرتي لهذا الكتاب على نُسخة خطيّة فريدة بخط المُؤلف ذاته وممهُورة بختمه، محفُوظة بخزانة مكتبة الجامع الأزهر بالقاهرة تحمل أرقام ٥٣١ خاص، ٨٣١٤ عمُومي/تاريخ، فرغ منها مُؤلّفها عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م، واعتزم إهدائها إلى مُصطفى فاضل بن إبراهيم باشا كما تقدّم القول، ومن غير المعرُوف على وجه الدّقة ما إذا كان المُؤلّف قد أهداها بالفعل إلى مُصطفى فاضل أم لا، وغالباً فالمؤلف لم يفعل لسببٍ ما، فالمخطُوطة ليس عليها ما يُفيد اقتناء مُصطفى فاضِل

لها، كذلك فإن الرَّبط بين استقرارها في خزانة الجَامع الأزهر بمصر، وعدم عودة مصطفى فاضل إلى مصر بعد استقراره في الأستانة يدل أن تلك النُسخة ظلَّت بحوْزة المُؤلِّف بعد أن عاد من بيروت إلى القاهرة إلى أن آلت بطريقة ما إلى خزانة الجَامع الأزْهر.

وعلى أي الأحوال فتلك المخطُوطة بحالة مُمتازة كُتبت بعناية وبتأنُقٍ واضح بالمِداد الأسْود بخط نسخ مُعتاد، وأبعادها ٢٠×١٢سم وتشغل المساحة المكتُوبة منها مساحة ١٦,٥×١٠,٥سم وعدد أوراقها ١٢٩ ورقة، وعدد مُسطراتها ١٢ سطراً في الصفحة الواحدة، جاء على غلافها :-

"كتاب المناقب المصطفوية والمآثر المحمدية العلوية تأليف الفقير إليه تعالى اسكندر بن يعقوب ابكاريوس عُفي عنه"

وفي آخرها :-

" قد تم نسخ هذا الكتاب بقلم مؤلفه الفقير إليه اسكندر بن يعقوب ابكاريوس عُفي عنه" .

ويشغل وجه الورقة السَّادسة من المخطُوط بورتريه لمُحمَّد علي باشا، ومن الواضح أن المُؤلف قد أعاد النَّظر في كتابه فهناك مواضع شطبٍ واستدراك متعدِّدة في الكتاب، وأخطاء المُؤلف قليلة بشكل عَام، ولا شيء يسترعي الانتِبَاه سوى بعض الاخْتِلافات الطَّفيفة في طُرق رسْم بعض الكلمات التي درج كُتَّاب القرن التَّاسع عشر على رسمها بشكل يُخالف ما اعتدناه الآن، كما أنَّ المُؤلف وإنْ كان قد اهتم بضبط

الكلمات بالشّكل إلا أنّه لم يُظهر تلك العناية نفسها فيما يتعلّق بالهمزات، وإن كان إغفاله بعضها حرصاً منه على انتظام السّجع في عباراته.

طَريقتي في إخْرَاج النّص

نظراً لأنّ النُّسخَة التي اعتَمدت عليها في نشري لهذا الكتاب هي نسخة وحيدة كُتبت بخطّ المُؤلف نفسه فقد آثرت عدم التّدخُّل في النّص إلا في أضيّق الحدُود؛ ولأغراضٍ تتعلّق بانتظام السّياق فحسب، وعليه فقد تركتُ النّصّ على حَاله ليكون شَاهداً على ثقافة المُؤلّف من جهة، وليقف الباحثُون بجلاء على طُرق وأسَاليب كُتّاب القرن التّاسع عشر في الكتابة، لذا فقد اقتَصر عملي في هذا الصّدد على التّنويه بمواضع الأخْطاء وتصْويبها في الحَواشي كُلّ في موْضعه.

كما عرّفت بالأعْلام والمواضع والاصْطِلاحات الواردة بالنّص، وقابلت الحَوادث التّاريخية الواردة به على المَصادر المُعاصرة، كما صَنعت له ستة فهارس خصّصت الأول منها لقوافي الأشْعار الواردة بالنّص، أما الثّاني فقد جعلته لأسْماء الكُتب التي سمّاها المُؤلف في كتابه، أما الثّالث فقد خصّصتَهُ للأعْلام، والرّابع للأُمَم والقبائل والجَماعات والطّوائف، أمّا الخامس فللأمَاكن والبِقاع، وجعلت السّادس للاصْطلاحات الفنيّة وألفاظ الحَضارة.

*** *** ***

وفي الختام لا يسعني سوى التقدُّم بأسْنى آيات الشُّكر والعرفان والتّقدير لهؤلاء الذين كان لهم فضل في إنْجَاز هذا العمل، أخصُّ بالذّكر

منهم زوجتي الحبيبة التي بذلت معي جُهداً كبيراً وأنْفقت السَّاعات الطُّوال في مقابلة النَّص الذي قمت بانْتسَاخه على الأصل.

ولا أعرف حقّاً كيف أشْكُر أُستاذي الجليل الدكتور عُبَادة كُحيلة الذي تابع هذا العمل خطوة بخطوة، وتحمَّس لعرضه فور انتهائي منه على الراحل الكبير الأستاذ الدكتور رءوف عباس، كما لم يبخل عليَّ بالنُّصح والإرشاد، ولولاه ربما لم يكن قد قدر لهذا العمل أن يرى النور، فجزاه الله عنِّي خير الجزاء.

كما أدين بالشكر لوالدي وأُستاذي وصَديقي الأستاذ الدكتور محمُود عَرفة مَحمُود والذي فتح لي أبْواب مكتبتهُ الخَاصَّة أنْهَل منها حيث شِئت، فضلاً عن ذلك التَّشجيع والدَّعم المعْنوي الذي لقيتهُ منه ومن أُستاذتي الفاضلة الدكتورة مُنى حسن محمُود أثْنَاء إنْجَازي لهذه النَّشرة.

ويظلُّ الدكتور أيْمَن فُؤاد سيِّد -بمدرسته المُتميِّزة في فنِّ تحقيق التُّراث العَربي ونشْره- أُستَاذي وقُدْوَتي ومَثلي الأعْلى في هذا المِضْمار، وعلى طَريقته المُتميِّزة في إخراج النُّصُوص تحسَّست أثر خُطاه، وبذلتُ وسْعي في السَّير على مِنْهاجه في إخْراجي لهذا النَّص، كما أفدتُ كثيراً بمُلاحظاته في تلافي العَديد من الأخْطَاء والهنَّات.

الشكر كل الشكر أيضاً للأستاذ الدكتور أحمد زايد عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة وكذلك للأستاذة الدكتورة زَيْنَب أبو سِنَّة مدير

مركز الدّراسات الأرْمِينيَّة، على هذه الحَفاوة التي تلقوا بها هذا العمـــل، وعلى هذا الإخراج الفني الرّائع للكتاب.

أمّا أُستَاذي المغفُور له العَالم الجليل، والمُؤرّخ الكَبير الـــدُكتور رءُوف عبّاس فقد طوّق عُنقي بجميله أوّلاً في قبول مُراجعة هذه النّشرة، وشرّفني ثانياً بإجازته للعَمل وإطْرَائه وثنائه على الجهد الذي بذلته فيـــه، وليس يُخفِّف عندي من مَرارَةِ فقده إلا عزائي بتلك السُطور التي كتبهـــا لي كمقدمة لهذا العمل، والتي رُبَّما كانت آخر ما خطّـــه قلمـــه قبـــل أن يدهمه المرض اللعين.

وإذا كان ذلك العالم الجليل قد رأى أن استَكْدر أبْكـــاريُوس قـــد نَال جائزته على يدي بنشري لهذا العَمل بعد أكْثر من قرن وربع القرن، فقد نلت جائزتي على جَهْدي في هذا العَمل على يديه، وكفَاني إطْـــراؤه لي وثناؤه عليّ شرفاً.

احمد العدوي

القَرم في ٢٠ من رجَب الفرد ١٤٣٠ هجرية

الموافق ١٣ من يوليو ٢٠٠٩ ميلادية

اللوحات

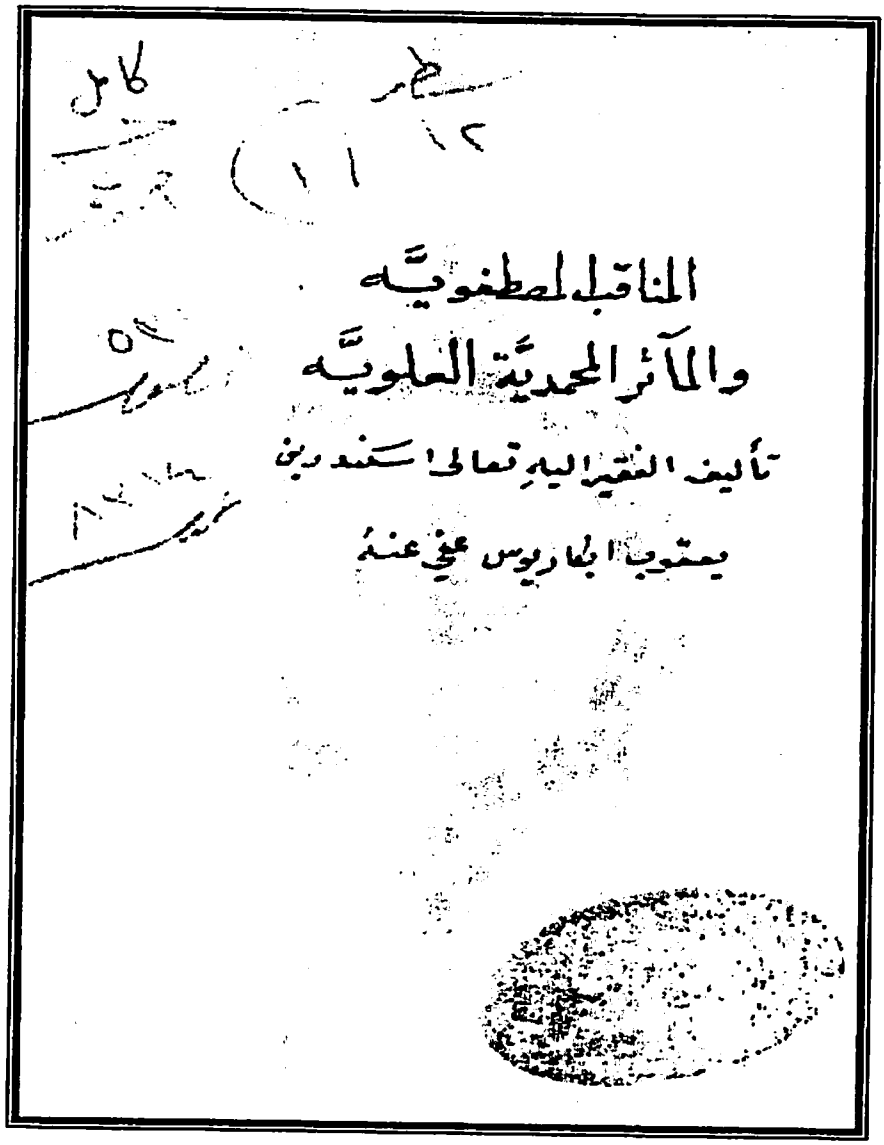

اللوحة الأولى

غلاف المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الذي أحيى ذكر الأولين
بنشر المؤرخين، وجعل جواد نهم تذكاراً للمتأخرين
على مدى الأيام والسنين، فأصبح فيشول الجيد
الفقير، الى عفو ربه القدير، استفنوس بن
يعقوب البطاريوس المعروف بالجرجي والمقيم بأبي
قير وصف هذا الكتاب في نحو أوقية المسمى المنطق
بالدولة المحمدية العلوية، ذات المآثر السنية
والتحفة العاطرة الزكية، وجمعت فيه من المحاسن
أحسنها، ومن الطرائف أندرها، ومن الغرائب
أغربها، وجعلت بين يديه بطون الصحف والدواوين
وانتقيت فيه نفائس المجموع المجرد، صاحب الحية
الظهور

المشهور، والفضل المأثور، السهم الصمام، والبدر
الباسل الضرغام، ابراهيم باشا ابن محمد الصعلوك، وفقه
الليالي والأيام، وصارت تهابه في البر والبحر وقطر
الشام، وصارت الناس منه بين الخوف والاقدام
والحلم وعدالة الأحكام، والحكمة والحياء الجم
والذكاء، الى غير ذلك مما يستحق به الثناء
ويقترن به صدور الأسماء، فجاء بحمد الله تعالى
كتاباً نفيساً جليلاً، وتاريخاً مفيداً جميلاً، يلتذ
بمطالعته القارئ والسامع، ويأخذ بمجامع القلوب
والمسامع، وكان تأسيس هذا في مدينة بورصة
المحمية سنة ألف ومائتين وتسعة وثلاثين هجرية،
الموافقة لسنة ألف وثمانمائة وثلاثة وعشرين مسيحية

اللوحة الثانية

ظهر الورقة الأولى ووجه الثانية من المخطوط

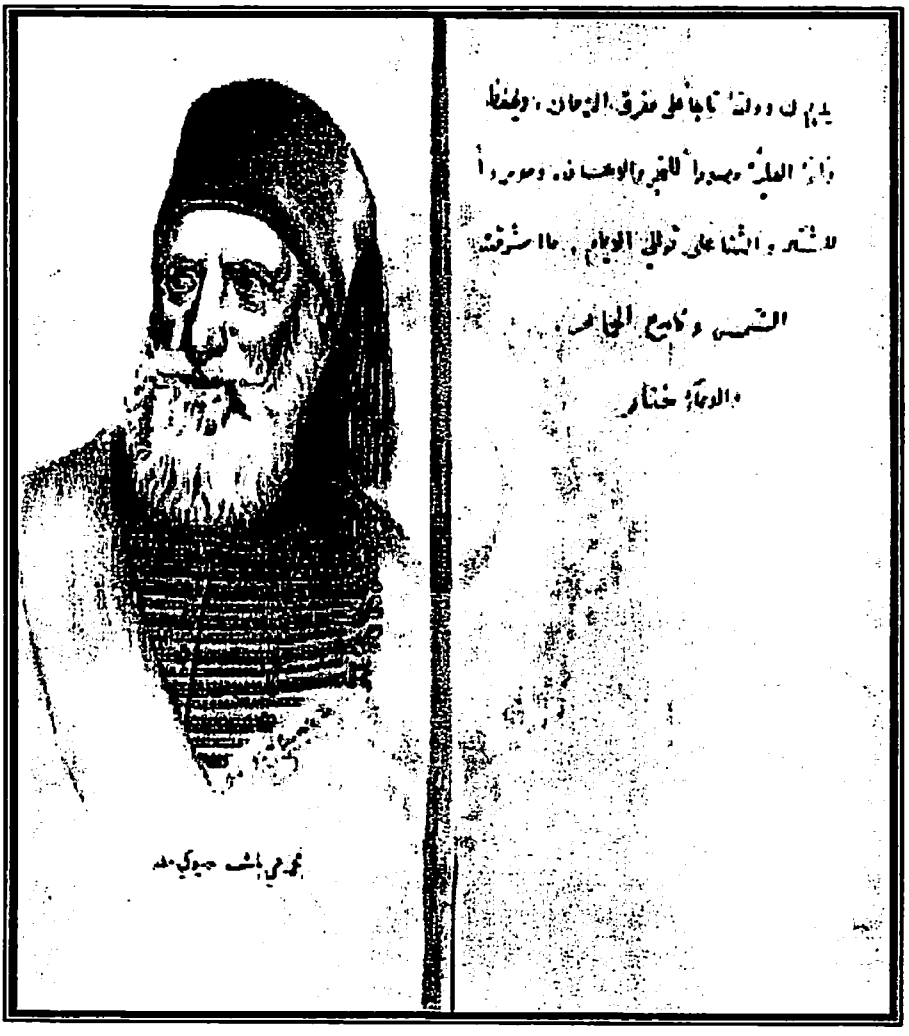

اللوحة الثالثة

ظهر الورقة الخامسة ووجه السادسة من المخطوط

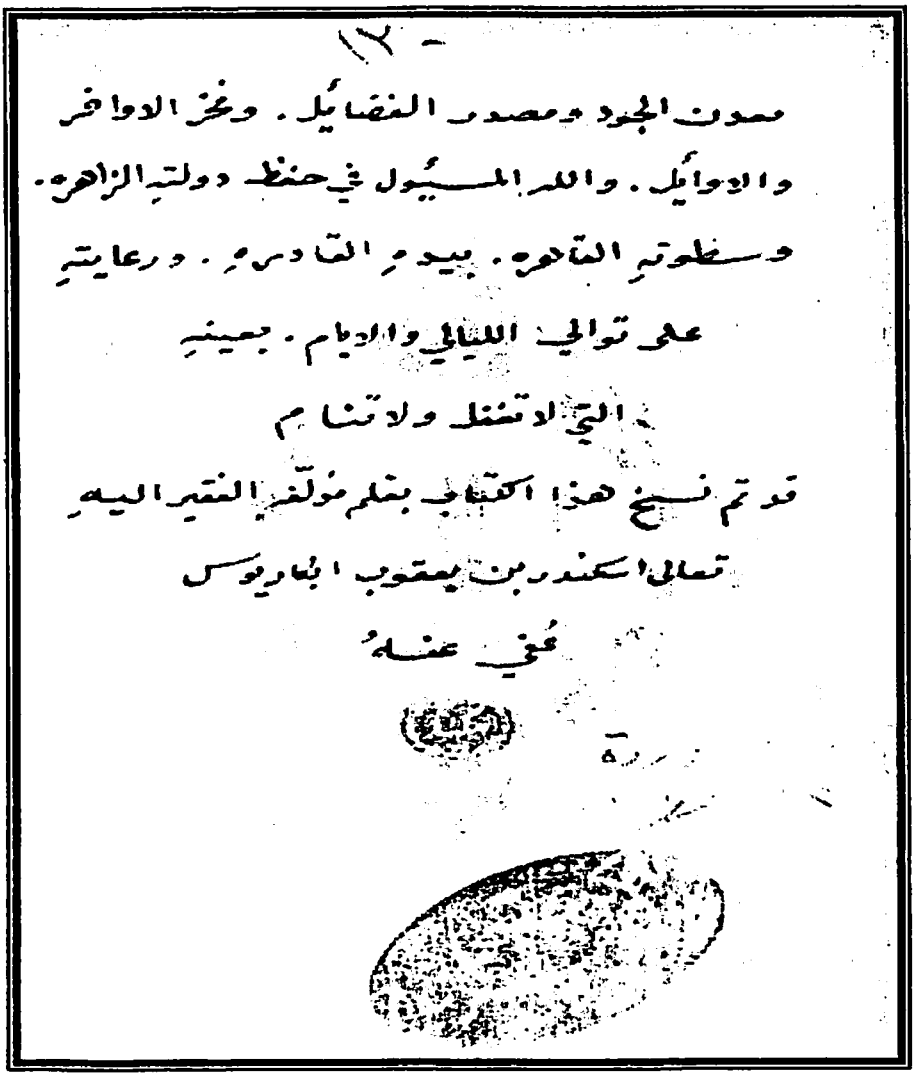
١٧ -

معدن الجود ومصدر الفضائل . ومخزن الذخائر
والاوائل . والفرع المسئول في حفظ دولته الزاهرة .
وسطوته القاهرة . بيمن القادر . ورعايته
على توالي الليالي والايام . بعينه
التي لا تنفل ولا تنام
قد تم نسخ هذا الكتاب بقلم مؤلفه الفقير اليه
تعالى اسكندر بن يعقوب البارعوسي
عفي عنه

اللوحة الرابعة

الورقة الأخيرة من المخطوط

المناقب المصطفوية
والمآثر المحمدية العلوية

تأليف

الفقير إليه تعالى
اسكندر بن يعقوب أبكاريوس
عفي عنه

/[1ظ] بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله رب العالمين، الـذي أحيَـى[1] ذكـر الأولـين بقلـم المُؤرِّخين، وجعل حوادثهم تذكاراً للمُتأخرين، على مدى الأيّام والسِّنين.

أمَّا بعد فيقُول العبد الفقير إلى عفو ربه القـدير اسـكَندر بـن يعقُوب أبكاريُوس - المُعترف بالعجز والتَّقصير - إنِّني قد وضعت هذا الكتاب في الحوادث المِصرية المُتعلِّقة بالدولة المُحمديَّة العلويـة - ذات المآثر السَّنية، والصفات العاطرة الزكيّة - وجمعتُ فيـه مـن محاسـن أخبارها، ولطائفها ونوادر آثارها، كل ما طاب وراق، وتحلَّت بمحاسـنه بطُون الصُّحف والأوراق، وأضفت إليـه وقـائع المرحـوم المبـرُور، صاحب الصيت /[2و] المشهُور، والفضل المأثُور، الشَّهم الهُمام، والليـث الباسل الضرغام، إبراهيم باشا فارس الصدام، وغُرَّة الليـالي والأيـام، وسائر فتُوحاته في بر التُّرك وقُطر الشام، وما رأت النـاس منـه مـن البطش والإقدام، والحلم وعدالة الأحكام، والحكمة والـسياسة، والنباهـة والفراسة، إلى غير ذلك مما يستحق الاعتبـار، وتتـزيَّن بـه صـدُور الأسفار.

فجاء -بحوله تعالى- كتاباً نفيساً جليلاً، وتاريخاً مُفيـداً جمـيلاً يلتذ بمُطالعته القَارئ والسَّامع، ويأخذ بمجامع القلُوب والمسامع، وكـان ترتيبي له في مدينة بيرُوت المحميّة، سنة ألف ومائتين وتسعين هجريَّة، المُوافقة لسنة ألف وثمانماية وثلاث[2] وسبعين مسيحيّة.

---

(1) كذا بالأصل.

(2) كلمة ثلاث جاءت استدراكاً من المُؤلِّف أعلى السطر.

/٢ظ وبعد أن تمّ جمعهُ وانتظم، وصار يليقُ أن يُهدى لكبار الملوك وعظماء الأمم، سميته المناقب المُصطفويّة، والمآثر المُحمديّة العلويّة، وقدمته خدمة إلى أعتاب فخر الوزراء الكرام، وعُمدة الكُبراء الفخام، صاحبُ الفضائل والمكارم، والهمّة التي هي أمضى من الصّارم، الوارث رُتب المجد كابراً عن كابر، والنّاهض برفيع نسبه لأعلى ذُرى النُجوم الزواهر، حضرة أفندينا المُعظّم مُصطَفى فاضل باشا المُفخّم.

شعر :-

هو الهُمام الذي باهى الأنام ومن ... فاق الكِرام فلم يلحقهُ مُشتركُ

يُدعى وزيراً لجهلٍ بالصّوابِ فمن ... ن أصاب قال -لعُمري- أنّهُ ملكُ

كيف لا وهو نادرة الزمان، وكعبةُ المجد والإحْسَان /٣و المحمُود بكل شَفةٍ ولسان، والجوهرة الثمينة في هذا الأوان، الذي اتّصف بجميل الصّفات، وشاعت مكارمهُ في جميع الجهات، وأشرقت شمُوس معَاليه، وابتهجت الأقطار بنور تجلّيه فكان كما قُلت فيه:-

يا مُصطفى المِفْضَال يا من جُوده ... عمّ المَلا وبذا الخلايق تشهدُ

أنت الذي منهُ الفضائل تُجتنى ... والفخر والشّرف العَلي والسُّودد[1]

فُقت الوَرى همّماً ومَجْداً باذخاً ... لا بدع إذ أنت الهُمام المُفرد

إن قُلت كِسرى كُنت أعلى همّةً ... أو قُلت حاتمٌ أنت منه أجْود!

---

[1] كذا بالأصل : ولعله أراد "السؤدد".

فيك المَحامد واللطائف والتُّقـــى والحِلمُ والعزم الـذي لا يُجحـد

لم تجتمع فيك المَحاسـن إنَّمـا أنت المَحاسن وهي فيك تُعـدَّد

يتْلُو عليك الحَمـد فـي صَـلواته من قال بســم الله ثم يـردِّد

صدق المُخبر عن صفاتك قَوْمـه حتى أطـال فقال إنَّـك أوْحـد

/٣ظ شهدت لك الأنام أنـك ربُّهـا والله يشهد أنهـا لـك أعبـدُ

ما أكثر الجُهلا! لكن شرُّهم مـن كان عن أبواب فـضلك يـشردُ

وقلت أيضاً في حضرته عند تَقْدمة الكتاب إلى أعتاب دولته :-

مولاي يا من به الأستَار قد لَهجت وغرَّدت ألسُن الأقـلام تغريـدا

إليك سِفْراً لقد أودعته شَرفـاً لـذكر آثـارك الغـرَّاء تخليـدا

زيَّنتهُ باسمك العالي السَّني فـأتى يَتيهُ حُسْنَاً كَدُرٍّ جـاء منـضُودا

هَبْهُ القبُـول ودُم بـالعز مُفْتَخِـراً على الدوام عَظيم الفَضل مقصُوداً

قلت :- وكان السَّببُ في وضع هذا الكتاب وتقديمه إلى حـضرة الوزير المُشار إليه، من جعل الله مقاليد السيادة والسعادة طوع يديه، هو أنني لما كنت بالأستانة العليّة، في أواسط [عـام][1] ١٢٩٠هجريـة /٤و تشرَّفت بلثم أعتابِ دولته، وتطفَّلت على عالي حضرته بتقديم نُسخة من كتابي "روضة الأدب في طبقات شُعراء العرب"، مع نسخة مـن كتـاب "نوادر الزَّمان في وقائِع جبل لبنان" فوقعتا عنده في حيِّز القبُول وأنعـم

[1] زيادة اقتضاها السياق.

عليّ بأحسنِ مأمول، ولمّا رجعت إلى الأوطان، وتذكرت ما أولاني بـه من جزيل الإحسان – الذي يعجز عن وصفه اللسان – بادرت حالاً بهذا التأليف، وسرت بنفسي لأُقدّمه إلى جنابه الشريف، مُلتمساً من حـضرته أن يَشملني – وإيّاه – بالنظر السّامي المنيف لأنّني مـن جُملـة عبيـده وخُدّامه، المُنتمين إلى سُدّة مقامه، لعمري إنّه بحـر الفـضائل، وكعبـة العوارف والفواضل، وفخر الأواخر والأوائل.

/٥ شعر :-

هذا الهُمام الـذي شَـاعت مكارمـهُ ... فلُذ بـه فهُـو ربُّ المجـد والكـرم

هذا الذي جرت الأقْدار حين جَـرت ... أقلامُه في فـصُول الحُكْـمِ والحِكَـمِ

هذا ابن من صِيتهُ قد طار مُنتشراً في ... الشّرق والغَرب بين العَـرب والعَجـم

يَـداه مـا خُلقـت إلا لبـذل نـداً ... للسّائلين، وفخر السّيُـفُ والقلـم

زهـت بدولتـه الأيّـام وابتهجَـت ... بـه المـنازل فاستغنت عن الـذّيم

تاجُ الزّمان فريـد العـصر أفـضل ... من أمّت حماه مَطايا العَزم مـن أُمـم

وبالجُملة فإنّه فريد العصر، وتاج رأس هـذا الـدهر، أعمالـه محمُودة، ومآثره ظاهرة مشهُودة، لا يُنكرها إنـسان، ولا يقـوم بحـق شُكرها لسان، ولا تحتاج إلى دليل ولا برهان، وهو مع هذه الأوصـاف الحميدة، والمناقب الجليلة الفريدة، في غاية /٥ الرّقة واللُطـف، جامعـاً بين البأس والظُرف ممدوحاً محمُوداً، جميل الخلق مـسعوداً، ذا حـزم وفراسة، ومعرفة بأحوال السياسة.

وفضلاً عن بصيرته في الأمور السياسية، له بصيرة عظيمة في علم العربيّة، واللُغات الإفرنجية، سالكاً سيرة الخُلفاء الفاضلين، مُتمسكا بتقوى الله رب العالمين، يحب العُلماء والشُعراء، ويُكرم الأُدباء والفُضلاء، ويَمُدُهم بهباته الوافرة، وصلاته الجَزيلة المُتكاثرة، لا يَحْرِم من قصده، واستغاثَ به واعتمده.

هذا وإنني مُعترفٌ بالقصُور عن تقدمة الثُناء على أخلاقه الكريمة، واستيفاء الشُكر على مكارمه العَميمة، والله المسؤول أن /٥ظ يُديم لنا دولته تاجاً على مَفْرِق الزَمان، ويحفظ ذاته العليَّة مصدراً للخير والإحْسَان، ومورداً للشُكر والثنا على توالي الأيَّام، ما أشرقت الشَمس وناح الحمام، والدعاء ختام.

٥٦/و

محمد علي باشا خديوي مصر

/٥٧ ذكر ولاية مُحمّد علي بَاشا العظيم الشان، تغمّده الله بالرّحمة والرّضوَان وسَقى ثرى رمسه غيث النّعم[١] من أعلَى غرف الجنان

وكانت الدِّيار المِصرية في زمن المماليك البَحريَّة -وهي الحكومة الكُولمَانيَّة- عديمة الانْتظام من جَوْرِ الولاة والحكَّام، الذين استولوا على البلاد وأضرُّوا بالعباد، فاندثرت معارف عُلومها، وانْدَرسَت معالم رسُومها من كثرة المظالم والضَّرائب والمغَارم التي لا يستوفيها قلم كاتب ولا يُحصيها رقم حاسب.

ومازالت في انْحِطاط واختلال إلى أن خرجت من تلك /٥٧ظ الحال، وبلغت إلى أعلى درجةٍ من التمدُّن والكمال في أيام حضرة الخديوي الأعْظَم والداوري الأكْرَم الأفْخَم، أنمُوذَج الفخر والجَاه المرحُوم مُحمَّد علي باشا طاب ثراه الذي لم يوجد [في][٢] الزمان مثله، ولم يُحاك أحد فضله في الحِلم والحزم، وشدَّة البأس والعَزم.

شعر :-

عزيزٌ سَما في مجده وصِفاته ... له فوقَ هام الفَرقدين منازلُ

به تفخر الأيَّام والمَجد والعُلى ... وكل مديحٍ لم يكُن فيه باطلُ

---

[١] قوله: "غيث النعم" استدراك أثبته المؤلف أعلى السطر.

[٢] زيادة اقتضاها السياق.

وكان مولد هذا البطل الهُمام، والليث الباسل الضرغام، بمدينة قَوالة[1] من بلاد الأرْنَاؤُط[2] – وهي مدينة شهيرة في تلك الحُدود والخطُـوط – سنة ألف ومائة وثلاث وثَمانين هجريَّة، المُوافقة /٨٠ لـسنة ألـف وسبعمائة وتسع وستِّين مسيحية. ومات أبُوه[3] وهو صغير فتوكَّل بـه

---

(١) قوالة "Kavalla" (أو قولة كما ترسم في بعض الأحيان) مدينة شاطئية كبيرة تقع على الشاطئ الشمالي لبحر إيجة قبالة مدية سالونيك Salonica اليونانية.

(٢) الأرناؤط : سكان إيالة أرناؤطلق، وتضم بعض مناطق غربي اليونان وألبانيا الآن، وهي الولاية التي كانت تمتد على الشاطئ الشرقي للبحر الادرياتي بين خطي عرض ٣٩ و٤٣ شمالا، والأرناؤط أو الألبان شعب من أصول آرية، اعتنق الإسلام إبان خضوع ألبانيا للعُثمانيين، وأصل لفظة أرنـاؤط Arnaut يرجع إلى بلاد آربري التي تمد على الشاطئ من كورفو الى آولونيه وسُكانها الذين عرفوا باسم الآربن Arben وتحرفت عند الترك إلى الارناؤط، انظـر :– ك. سوسهايم، دائرة المعارف الاسلامية، ترجمة إبراهيم زكي خورشـيد وآخرون، القاهرة ١٩٦٩، ٣ : ١٣٢، مادة أرناؤط.

(٣) لم يُحقق بعد أصل ونسب محمد علي باشا في بحث مستقل، كذلك فإن الفتـرة التي قضاها من عُمره في مسقط رأسه بقوالة قبل قدومه إلى مـصر صُـحبة جيش الصدر الأعظم لإجلاء الفرنسيين عنها غامضة وقليلة التفاصيل، وغالبـاً فإن المعلومات الضئيلة التي توفرت لنا عن أصله وحياته ما قبل قدومه إلـى مصر مصدرها هو مرويات مُحمد علي باشا نفسه كلما سُئل عن نفسه أو عَنَّ له الحديث عن صباه وشبابه أمام أولاده وحاشيته ورجال بلاطه، فالباشا أكـد على أنه ولد عام ١٧٦٩ بقوالة، وأن والده "إبراهيم أغا" – الذي كـان يـشغل منصب رئيس خفر الطرق في قوالة – ما لبث أن توفي قبيل ولادته ثـم تلتـه والدته بعد ذلك وكفله عمه "طوسون أغا" الذي ما لبث أن توفي أيضاً فلم يبـق له أحد من ذويه ليكفله حتى قبل شوربجي "قولة" – أي حاكمها – إسماعيل أغا كفالته والإنفاق عليه، والذي ما لبث أن اكتشف ما حبته الطبيعة لهذا الشاب من همة وذكاء فطري فأوكل إليه عدة مهام في بلاطه، وظل يرتقي في المناصب حتى وصل إلى أمير آلاي فرقة من الجند، فاشترك في تطهير بحـر مرمـرة وجزر الأرخبيل من نشاط القراصنة، وما لبث شوربجي قوالة أن زوجه مـن إحدى قريباته من ذوات الثروة وكان اسمها أمينة هانم التي كانت إما مطلقـة=

أحد الذُّوات المَشاهير، وكان بينه وبين أبيه محبَّـة، ومـودَّة قديمـة وصُحبة، فاعتنى به وربَّاه، وأحسن إليه ودَاراه، وكان عنـدهُ كالولـد

-أو أرملة وهو الغالب، وليس هناك ما يدعو للقطع بشأن كونها مطلقـة كمـا ذهب باول كالة، انظر :-
دائرة المعارف الاسلامية، مادة إبراهيم باشا، ١ : ١٥٧.
وغالباً فإن هذا الزواج قد تم عام ١٨٨٧، ثم انضم محمد علي على كره وتمنُّع شديد وبأمر صارم من الشوربجي إلى ابنه في قيادة الثلاثمائة رجل الذين كان على شوربجي المدينة جمعهم وتجنيدهم لينضموا إلى جيش الـصدر الأعظـم السائر إلى مصر لقتال الفرنسيين، انظر :- إلياس الأيوبي : محمد علي سيرته وأعماله، مطبعة الهلال، القاهرة ١٩٢٣، ص ص ٥ - ١٧.
وهذه المعلومات التي قدمها الباشا عن نفسه هي في الأغلب الأعم صـحيحة، فهي ترتبط بأسماء أشخاص حقيقيين كان لهم الفضل على محمد علي وأثـروا فيه في فترة شبابه الأولى حتى أن محمد علي حاول استقدامهم فيما بعـد إلـى مصر ليعيشوا في كنفه كشخصية المسيو ليون وهو ديبلوماسي فرنـسي كـان يعيش في قوالة وتولى تعليم الشاب محمد علي وتثقيفه واعتمد عليـه اعتمـاداً كاملاً في مشروعاته التجارية - وغالباً كان تأثر الباشا بمسيو ليون هو سـبب ميله الواضح وثقته بالفرنسيين واعتماده عليهم أكثر من غيرهم في مـشروعه الإصلاحي - لكنه توفي غداة سعي الباشا لاستقدامه إلى مصر فأرسل محمـد علي خطاب تعزية مؤثر مصحوباً بعطاء لا بأس به إلى شقيقته التي كانت تقيم بمرسيليا.
لكن القصة التي قدمها محمد علي عن نفسه (أو قُدِّمت عنه) لا تخلو بالمقابل من طابع مسرحي واضح، من ذلك قصة الحلم الذي رأته والدته غداة ولادتـه بأنها شاهدته يشرب من ماء النيل فلا يرتوي والذي فُسِّر لها بأنه يملك مـصر ولا يكتفي بها، كذلك فالتاريخ الذي حدده الباشا لميلاده غالباً مُفتعل ليتطـابق مع تواريخ ميلاد كل من الإمبراطور نابليون والسير ولنجتون ولفيف أيضاً من أبرز الشخصيات التاريخية التي ولدت في هذا العام تحديداً، كذا فـإن قـصة نشأته الأولى قد صيغت بمهارة بحيث تبدو قريبة الشبه إلى حد بعيـد بقـصة ميلاد ونشأة النبي محمد ﷺ، إضافة إلى أن تمنعه أمام شوربجي قولـة عـن المسير مع الصدر الأعظم إلى مصر يذكر بموقف صلاح الدين حـين أُجبـر على مرافقة عمه في السير إلى مصر.

المحبُوب، وأعزّ من يُوسف عند يعقُوب، فنشأ شابّاً نجيباً حازماً أديباً، شُجاعاً مهيباً، لا يُقدِّر العواقب ولا يخشى حلُول النوائب، وكان يُصاحب الأبطال، ويُلقي [بـ][1]ـنفسه في الأخطار والأهوال، أملاً بالارتقاء وبلوغ الآمال، ولقد أجاد من قال :-

بقدر الكدّ تُكتسب المَعالي ومن طلبَ العُلا سَهِرَ الليالي[2]

/٨ظ وما زال على تلك الحال، ونَجمهُ في سعُود وإقبال ؛ حتى تغلّبت الفرنساوية على الديار المصرية سنة ١٧٩٨ مسيحية في زمن حضرة ساكن الجنان السُّلطان سَليم خَان[3]، فلما ملكُوا زمامها واستقلُّوا بتدبير أحكامها ؛ أرسل السُّلطان سليم الأوامر والمراسيم إلى وُلاة الأقاليم يحثُّهم بالنُّهوض والقيام، والمبادرة لقتال الأخْصام،

---

(١) زيادة اقتضاها السياق.

(٢) البيت يُنسب للإمام الشافعي.

(٣) السلطان سليم الثالث (١٢٠٣ : ١٢٢٣هـ / ١٧٨٩ : ١٧٩٨م) وهو ابن السلطان مصطفى الثالث تولى السلطنة عام ١٢٠٣هـ/١٧٨٩م وكان عمره حينئذ يناهز الثامنة والعشرين، قام بسلسلة كبرى من الإصلاحات لا سيما على الصعيد العسكري لكن انقلاب الإنكشارية عليه أجبره على التنازل عن السلطنة لخلفه مصطفى الرابع، ثم ما لبث أن توفي في سجنه عام ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م، انظر :-

يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دمشق ١٩٨٥، ص ص ١٣٩ – ١٤١.

ولمزيد من التفاصيل عن إصلاحاته انظر الدراسة الواسعة التي قام بها ستانفورد شو Stanford Jay Shaw بعنوان :-

Btween old and new, The Ottoman empire under Sultan Selim III, Harvard university press, 1971. ; Erik J. Zürcher: Turkey, A modern history, third edition, London 2004, PP 21 – 29.

ونُودي بالنفير العام في بلاد الإسلام ؛ فهاجت الشُبان في كل جهة ومكان، واجتمع في بلاد الشام لهذا القصد والمَرام عالم لا يُحصى ولا يُرام، غيرة لنصرة الدين وطرد عَساكر الفرنساويين، وقصدوا مصر القاهرة امتثالا للأوامر الصَّادرة.

/[٩و] وكانت الدولة الإنكليزية قد اتحدت مع الدولة العُثمانية لمحاربة الجيوش الفرنساوية، وإخراجهم من الديار المصرية بالقوَّة الجبرية، وأرسلت عمارة بحرية إلى بُوغاز الإسكندرية مشحُونةً بالعساكر والمُهمَّات الحربيّة، فكتب حضرة السُّلطان إلى ولاة أساكل عربستان يُعلمهم بذلك الاتحاد، ويحرضهم على الحَرب والجهاد، وأنَّه مهما مر عليهم من قباطين الإنكليز الرَّاسين بالمراكب على الثُّغور والبَواغيز يقدِّمون لهم الإكرام، ومزيد الوقار والاحترام، وهذه صورة اكتتابه[1] حرفاً بحرف، مُؤرَّخة في ٩ جمادى الآخرة سنة ٢١٣ بعد الألف :-

" إنَّهُ لا يخفَى عليكم أن الجيُوش الفرنساويّة قد هجمُوا /[٩ظ] على الديار المِصرية، وافتتحوا مصر القاهرة وما يليها، واستولوا على يَافا وغزَّة والرَّمْلة ونواحيها، ومُرادهم أن يُبيدوا أُمَّة الإسلام ويتغلبوا على المَملكة بالتمام، والآن حضرة المُحب الصادق، والخِلُّ الوفي المُوافق، جلالة أخينا المُعظَّم سلطان الإنكليز المُفخم، المُتَّحد معنا بإخلاص الطَّوية على قتال الطائفة الفرنساوية - لعزيز مكارمه، ووفُور

[1] كذا بالأصل، ولعله أراد "كتابه".

مراحمه – قد أنعم وجاد، وقضى حقّ الوداد، وسَيّر من لدُن سدته المُلوكية عمارة إنكليزية مع العمارة العُثمانية، تحت لواء افتخار الأمراء الكرام في الطائفة المسيحية، وعظيم الكبراء الفخام في الأمّة العيسوية، جناب محبنا المحترم السّار[1] /١٠و وليم سدني سميث الأكرم، بالتفويض الخاقاني، والإمداد السلطاني ليُدبّر أمور تلك الديار بحُسن السياسة والاختبار.

فليعلم كل منكُم تفويض محبته من لدُنّا في سائر الأقطار، ومهما مرّ عليكم من مراكبه وأتباعه فقدّمُوا لهم مزيد الاعتبار، والإكْرَام والوقار، وليكن معلُوم الخاص والعام إخلاص صَداقته مع الإسْلام والإعانة لهم منه على حرب الفرنساويّة الأخْصَام، اعلمُوا ذلك واعتمدوه غاية الاعْتماد والسّلام".

وكان مُحمد علي – صاحب الجأشِ القوي – قد نهض نهضة الأسد، واتحد مع شُجعان ذلك البلد، وانضمُّوا مع ذلك الجيشِ العَرمْرم، وساروا /١٠ظ إلى مصر بمعيَّة الصدر الأعظم[2]، فحارب

(١) السّار وترسم أيضا "ستر" وتعني الرأس أو القائد في التركية، أثير الدين الاندلسي: الإدراك للسان الأتراك، نشرة جعفر أوغلي أغا، استانبول ١٩٣٠، ص ٥٧.

(٢) أوكل السُّلطان سليم للصدر الأعظم يوسف باشا ضيا مهمة قيادة الجيوش العثمانية لإخراج الفرنسيين من مصر، انظر :-
الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٩٨، ٣: ١٤٠.

في تلك الوقائع، واشتهر بالشَّجاعة في هاتيك المَعامع وامتاز على الأقران، وانتظم في سلك الفُرسان، وفي مُدَّة قصيرة وأيام يسيرة انتشر ذكره وشاع أمره، وصار ذا كلمة نافذة عند الأعيان والجَهابذة، وأكابر الأشراف والأساتذة، واستمرت الحروب بين الفرنساوية والدولة الإنكليزية والعثمانية مُدة مديدة وجرى[1] بينهم وقائع عديدة إلى أن آل الأمر إلى خرُوج الفرنساويين من مصر تحت شروطٍ معلُومة وروابط مفهُومة.

وكان جنابُ الصَّدر الأعظم قبل رحيله من مصر قد جاد وأنعم على محمد باشا أبي مَرق[2] – وكان /١١و من الشُّطَّار الحُذق – بولاية الديار المصريَّة وأمره أن يرفق بالرعية، ويجعل مركزه في القلعة السُّلطانية، حسب الأيام السَّالفة بدون مناقضة ولا مُخالفة.

وما زال مُحمَّد علي يتقدَّم في المراتب، ويرتقي في الوظائف والمناصب، حتى صار في رتبةٍ عليَّة، ومنزلةٍ رفيعة سنيَّة، وكان قد صمَّم العزم، وأخذ بالسداد والحزم على أن يمد باعه للقبض على زمام المُلك، وينظم الأحكَام على أحسَن سلك، فأخذ ينفق الأموال على الفُرسان والأبطال، ويستجلب خواطر النَّاس أهل الشَّوكة والبَاس، ويستميلهم إليه باللطف والإيناس، حتى استعبدهم بطيب الخُلق، وحسن السَّريرة واللين والرفق، فكانوا يحبونه /١١ظ ويكرمونه،

---

(١) كذا بالأصل، والصواب "وجرت".

(٢) محمد باشا الشهير بأبي مرق والي غزة والقدس والذي ولاه السلطان على مصر في أعقاب جلاء الفرنسيين عن مصر، ثم سرعان ما عزله وولى محمد باشا خسرو بدلا منه، عجائب الآثار ٣ : ١١٤.

ويميلون إليه ويحترمونه، ويتمنون له النجاح وبلوغ الأرب، والارتقاء إلى أعلى الرتب.

وكانت شوكة مماليك الغُز قد انكسرت بعد ذلك الاقتدار والعز ؛ لأنهم كانوا في سالف العصر قبل دخول الفرنساويّة إلى مصر أصحاب النهي والأمر، وبأيديهم مقاليد الأمُور ونظام الجمهُور، ومحافظة الحدُود والثغور.

وكانت الناس تهابهم مهابةً عظيمة، نظرا لشوكتهم القوية وسطوتهم الجسيمة، لا سيما في زمن أميرهم الشهير المدعو علي بك الكبير[1] ؛ فإنه كان قد أظهر العصيان، وخلع طاعة السُلطان وضرب باسمه السكّة، ونفى وزير الدولة إلى مكّة، وتسلم زمام

---

(1) علي بك الكبير (١٧٢٨ : ١٧٧٠) أحد المماليك الجلبان من ذوي الأصل الأبخازي، جلب إلى مصر وهو صبي وفي عام ١٧٤٣ التحق بخدمة الأمير إبراهيم كتخدا، ثم ظل يرتقي بالمناصب حتى أصبح كبير المماليك بمصر، وفي عام ١٧٦٠ طرد الوالي العثماني وتلقب بشيخ البلد واستطاع الاستقلال بمصر لبعض الوقت، وعزز موقفه بتحالفه مع الظاهر عمر بالشام مستفيداً في الوقت نفسه من الدعم الروسي.

Arther Goldschmidt : Biographical dictionary of modern Egypt, Pennsylvania, 2000, P 18.

ثم ما لبث أن أجهضت حركته بواسطة زوج شقيقته وربيبه محمد بك أبو الدهب الذي نجح السلطان في استمالته، إسماعيل الخشاب : خلاصة ما يُراد من أخبار الأمير مراد، تحقيق حمزة عبد العزيز بدر، دانيال كريسليوس، القاهرة ١٩٩٢، ص ١٨، وانتهى الأمر بوفاته متأثراً بجراحه عقب معركة عنيفة مع محمد بك أبو الدهب قرب الصالحية، الجبرتي : عجائب الآثار، ١: ٥٩٠ - ٥٩١.

القلعة، /١٢و وألبس الوجَاقات السبعة[١]، واستبد بتدبير الأحكام وأطاعه الخاصُّ والعام، وصفا له الوقت وراق، وانتشر صيته في الآفاق، وحدثتهُ نفسه أن يسطُو على الشَّام والعراق، ويعيد إلى مصر دار السلطنة كما كانت في سالف الأزمنة، وكان له مزيد الفخر والاعتبار في تلك الديار حتى كان يُخطب له يوم الجُمعة على المنابر، ولم يكن للدولة من حُكم مصر في أيامه إلا مُجرد الاسم الظَّاهر.

ولما صفت للدولة العليَّة أحكام الديار المصريَّة بعد رحيل الفرنساوية، صدر أمرها العالي إلى مُحمَّد باشا [خِسرُو][٢] الوالي أن

---

(١) الوجاق كلمة تركية تعني الفرقة من العسكر والوجاقات السبعة هم إجمالي الحامية التركية في مصر، وقد انقسمت إلى المستحفظان والعزبان وأوجاق المتفرقة وأنيطت به مهمة حراسة الوالي، وأوجاق الجاووشان وأنيطت به مهمات المراسلات والبريد والجونوللیان وكان يتكون من المتطوعين بالحامية العثمانية والتفنجيان وهم حملة البنادق واخيراً أوجاق الجراكسة، انظر :-
احمد الدمرداش كتخدا عزبان : الدرة المصانة في أخبار الكنانة، نشرة دانيال كريسليوس وعبد الوهاب بكر، القاهرة ١٩٩٢، ص ٣٠.

(٢) زيادة لازمة، ومحمد خسرو باشا كان يشغل منصب كتخدا حسين باشا القبودان، وصدر فرمان تعيينه والياً على مصر في جمادى الأول ١٢١٦هـ/١٨٠١م، وحاول تنفيذ ما أوكل إليه من القضاء على المماليك بشكل نهائي وعدم قبول الصلح معهم، إلا ان هزائمه المتكررة أمامهم حالت دون تنفيذه لأهدافه وسقط أسيراً في يد عثمان بك البرديسي ومحمد علي فسجن في القلعة لبعض الوقت، ثم أطلق سراحه واستعاد منصبه ليومين فقط وانتهى الأمر بطرده من مصر وترحيله إلى استانبول بعد اعتراض كبار أمراء المماليك على إعادة تنصيبه من جديد كوال على مصر، انظر :-
الرجبي : تاريخ الوزير محمد علي، ص ص ٧٧ – ٧٨.

يُبادر في الحال بالجنود والأبطال إلى قتال المماليك المذكورين والفجرة /[١٢ظ] المُعتدين، ويضع السيف فيهم ويلاشيهم عن بكرة أبيهم، حتى تنطفي أخبارهم وتمحي آثارهم.

وكان بينهم قائدان وهما من أكابر الأعيان قد اتصفا بالشجاعة وقوة الجنان أحدهما يدعى عُثمان بك البرديسي[١]، والآخر مُحمد بك الألفي[٢]، فلما اتصل بهما هذا الخبر وكان قد شاع واشتهر، أخذا في الاستعداد للمُدافعة والجلاد، فجمعا الأخلاف والأحزاب، وانحاز إليهما الأعوان والأصحاب حتى صارا في [جَمعٍ][٣] جَمٍّ غفير وعدد كثير، ونهضا لمُقاومة الوزير.

وكان الباشا قد جهّز لقتالهما جيشاً عَرمْرماً، وقدم عليه قائداً جليلاً مُعظّماً[٤]، فاستظهرا عليه وكسراه، وهزما جيشه وفرّقاه، /[١٣و

---

(١) عثمان بك البرديسي أحد كبار مماليك مراد بك، لقب بالبرديسي لتوليه منصب كاشف نواحي برديس بالوجه القبلي، تحالف معه محمد علي ضد خسرو باشا ثم أن انقلب عليه وانتهى الأمر بهربه ووفاته بنواحي منفلوط بأسيوط، انظر، عجائب الآثار ٤ : ٧٠ -٧١.

(٢) محمد بك الألفي أحد أكبر مماليك مراد بك، قاتل مع استاذه مراد بك ضد الفرنسيين في أعقاب دخولهم مصر ثم لم يلبث أن انقلب على أستاذه عقب صلحه مع الفرنسيين ثم لجأ إلى انجلترا زمناً وعاد إلى مصر ولم يلبث أن توفي بها بعد نزاع قصير مع محمد علي، عجائب الاثار ٤ : ٤٦ - ٧٠؛
Arther Goldschmidt : op.cit, PP 17, 18.

(٣) زيادة اقتضاها السياق.

(٤) الإيماءة إلى يوسف بك الذي أرسله خسرو باشا لقتال المماليك وعضده بمحمد علي فتسرع يوسف بك دون التنسيق مع محمد علي واشتبك مع قوات البرديسي قرب دمنهور فكانت النتيجة هزيمة مُنكرة لقوات يوسف بك الذي كانت قواته أضعاف أعداد المماليك لدرجة أن الإنجليز نصحوا المماليك ألا يخاطروا بمهاجمة العثمانيين، عجائب الآثار، ٣ : ٣٦٧.

وكان مُحمَّد علي – الأسد الغَضنْفَر – من جُملة ضباط العسكر تحت رياسة القائد الأكبر، فاستشاط القائد حنقاً وغَضباً، واتَّهم محمد علي بأنه كان لتلك الكَسْرةِ سبباً، ثم وقعت بينهما المُنافرة وأدَّت إلى الخصام والمُشاجرة.

وكان ذلك القائد يُعهد منه الطمع في الاستيلاء على تخت القاهرة، فاجتمع بالوالي في بعض الليالي، وعند إمكان الفرصة قصَّ عليه تلك القصة قائلاً أن فُلاناً قد اتخذ له أحزاباً وأعواناً من العُلماء المشهورين، والذوات المُعتبرين، وهو كل يوم في همَّة وحركة، وقصده استخلاص المَملكَة، ومازال يقدح في حقه بزناد شتمه، ويمزق ستر حُرمته بمخالب /[١٣]ذمِّه، حتى أوْغر صدره عليه، واستدعاه ليلاً إليه، وكان قد صمَّم النيَّة على أن يُلقيه في أشْراك المنيَّة، وبلغ مُحمَّد علي الخبر فأخذ لنفسه الحَذر، وحَاول[1] تلك الليلة ولم يحضُر.

وفي اليوم الثاني لم يمكنه التَّواني، فنهض بالعجل خوفا من حلُول الأجل، وانحاز إليه كل شُجاع وبطل، وانضم إلى جماعة المماليك البَحريَّة، واتحد مع عُثمان بك وعُصبته القويَّة، وجاهر الوالي بالعصيَان، واستعان بمن تعصَّب معه من الشُجعان، فبادر الباشا لقتاله بجنُوده ورجاله، فالتقاه مُحمَّد علي بأبطاله وأسُوده وأشْباله، فأعانه الله ونصره وكسر جيشه وعسكره، وقبض عليه /[١٤]و وأسره، وكانت هذه الكَسرة والنُصرة في سنة ألف ومائتين وثماني عشرة من سني الهجرة[2].

---

[1] كذا بالأصل.

[2] انظر هذه الأحداث في عجائب الآثار ٣ : ٤٤٨.

ولما بلغت هذه الحوادث مسامع السلطان سليم الثالث عظُم عليه ذلك الأمر، وأرسل علي باشا الجزايرلي[1] إلى مصر ليجلس مكان محمد خسرُو باشا، ويقبض على العُصاة ويتصرَّف بقصاصهم كيفما شاء، وعند وصوله إلى هناك أخذ يحتال على المماليك والأرناؤُط ليُلقيهم في شرك الهلاك، فخلعوا طاعته وخذلوه ثم حاربوه وقتلوه، وبعد ذلك بأيام وقع النزاع والخصام بين مُحمَّد بك الألفي وعُثْمان بك البَرديسي رغبة في السياسة وطمعا بنوال الرياسة، فنادى[2] بعضهما /١١٤ظ بعضاً وازدادا حسدا وبغضاً.

وكان لعسكر الأرناؤُط مالٌ مكسُورٌ عند عُثمان بك المذكُور منذ ثمانية شهُور، فلما رأوا ضعف حاله وقلة أنصاره ورجاله،

---

(١) لُقب علي باشا الجزايرلي بهذا الاسم لكون كان فيما سبق كان مملوكاً لباي الجزائر، ثم تورط في نهب طرابلس الغرب، وفر من وجه حمودة باشا والي تونس ولجأ إلى مصر واستجار بمراد بك، وصدر أمر الباب العالي بنفيه إلى النوبة لكن مراد بك عوضا عن أن يقوم بنفيه كما أمر السلطان أرسله للقيام بفريضة الحج، وكاد يموت في مكة لاتهامه باقتراف عمل غير أخلاقي مع أحد الغلمان بالقرب من الحرم إلا أن توسط بعض أمراء المصريين حال دون تنفيذ الحكم فيه، ومن غير المعروف على وجه الدقة تلك الظروف التي قربته مرة أخرى من الصدر الأعظم يوسف باشا والذي وافق على انضمامه لجيشه الذي جهزه لحرب الفرنسيين وإجلائهم عن مصر، ولعل تطوعه للاشتراك في هذه الوقائع قد غفر له ما سلف منه في حق الدولة، فعفا عنه يوسف بك الصدر الأعظم ولم يلبث أن تعطف عليه بعقد ايالة مصر له فنزل الأسكندرية وحاول الاستيلاء عليها عنوة وانتهى الأمر بمقتله بإيعاز من محمد علي والبرديسي، انظر عجائب الآثار ٣ : ٤٣٤ ، وتجد سيرة مفصلة لهذا الوالي في إلياس الايوبي : سيرة محمد علي، ص ص ٣٣ – ٤٠.

(٢) كذا بالأصل، ولعله أراد "فعادى".

طالبوه بالرواتب والجَوامك[1] وشدَّدوا عليه في ذلك باتفاق مُحمَّد علي ليث المعارك، وإذ لم يكُن له قدرة على مُقاومتهم ولا طاقة في دفع مُصادمتهم اضطَرَّهُ الحال أن يوزِّع المال على أكابر البلاد ليُرضى العَساكر والقوَّاد فلم يُجيبوه إلى طلبه، ولم يكْتَرث أحد به.

ولمَّا خابَ أمله وضاقت حيله انْحَصر في داره في جماعة من أنْفاره، فوفدت عليه العساكر والأغوات وأحاطُوا بقصره /١٥و من جميع الجهات في طلب الرواتب والنفقات، وكذلك فعلُوا بغيره من البكاوات وأكابر المَماليك أرباب الولايات، وبقى عُثمان بك في منزله على[2] بضعة أيام وهم يتردَّدون إليه بالتهديد وطلب الانْتِقام، إلى أن ساعدته الفُرص ففر من بين أيديهم كما يفر العُصفور من القَفص، وقصد بلاد الصعيد وانْكَسر عزمه الشَّديد.

وإذ كان مُحمَّد علي قد حصل على صداقة العُلماء ومحبَّة الأهالي ؛ ارتقى بهذه الواسطة إلى أن يكون هو الوالي، وفي أثناء ذلك اجتمعت الأكابر والعُمد وأقاموا مُحمَّد علي قائم مقام على البلد، وأرسلوا مُحمَّد خِسْرُو باشا إلى القُسطنطنية وولُّوا مكانه رشيد باشا مُحافظ الإسكَندرية /١٥ظ ولقَّبُوه نائب الحضرة السُّلطانية على الديار المِصريَّة.

---

(١) الجوامك جمع "جامكية" ما يماثل الراتب انظر :-

محمد قنديل البقلي : التعريف بمصطلحات صبح الاعشى، القاهرة ١٩٨٣، ص ٨٢.

(٢) كذا بالأصل.

ولم يمض إلا زمنٌ يسير بعد هذه الحركة حتى توفِّي عُثمان بك ومُحمَّد بك، وصفت لمُحمَّد عَلي ولاية المملكة، ولما بلغ مسامع حضرة السلطان ما جرى وكان من الشِّقاق والخلاف في تلك النَّواحي والأطْراف ؛ أخذه القلق والضَّجر، وزاد به الغمُّ والكَدر، وأمر مُصطفى باشا باش قُبُطان أن يسير إلى مصر من غير توان، باستعداد تام، وجيش لهُمام[1]، ويدَّارك بحسن التَّدبير والاهْتِمام ما اختلَّ هناك من النِّظام، واصحبهُ بفرمان إلى مُحمَّد علي باشا – عليُّ الشَّان – يأمره بالتوجُّه إلى ولاية سَالونيك[2]، وأن يصير تسليم مصر إلى جماعة /١١٦د المَماليك، بشرط أن يدفعُوا في كل سنة خمسة آلاف كيس إلى خزينة السَّلطنة.

فأجاب وامْتَثل، وسار على عجل بجنُودٍ كافية، وسُفن حربيَّة وافية، وعند وصُوله إلى مصر شرع في ذلك الأمر، فلم تقبل بذلك أهالي البلاد ورُؤساء العَساكر والأجْنَاد، وتوجَّه منهم العُلماء والأعْيان، وأكابر العُمد والأركان، وقصدوا ذلك الوزير الأكرم، والمُشار إليه الأفْخَم، ودخلُوا عليه وتمثَّلوا بين يديه، فالتقاهم بالبشَاشة والتَّرحاب، وآنسهُم بالخِطَاب، وجاراهم بالسُّؤال والجَواب، فقالوا له عن فرد لسان:–

---

(١) كذا بالأصل، ولعله أراد "هُمام".

(٢) سالونيك مدينة كبيرة وقصبة لإيالة عرفت بالاسم نفسه، تقع على الشاطئ الشمالي لبحر ايجة.

"إنَّنا عبيد الله والسُّلطان، ومن جملة الرعايا والأعْوَان، ومهما برزت به /١٦ظ الأوامر الشَّريفة، والمَراسيم السَّامية المَنيفة نتلقَّاه بالقبُول والامتثال، ونسلُك بمُوجبه في الحال، إلا في هذا الأمر الفَظيع، فإنَّا لا نسمع ولا نُطيع، لأنَّه كما لا يخفى على مَعَاليك أنَّ جماعة المماليك هُم موادُّ الظُّلم والفَساد في هذه البلاد، وقد أهْلكوا بجُورهم العباد، فلا يُوجد بينهم من يصلُح للرياسة، ولا من يُعتمد عليه في الأحْكام والسِّياسة"، ثم أخذوا يثنُون على مُحمد عَلي ويطنبون، ويصفُونه بحسن الشَّمائل ويُسهبون، وأنهم لا يقبلون والياً غيره على الإطلاق، نظراً لما فيه من اللياقة والاستحقاق، ومحاسن الشِّيم ومكارم الأخْلاق.

فلما رأى شِدَّة ميلهم /١٧و إليه، واعْتمادهم دُون غيره عليه أجابهم إلى مطلُوبهم، ولبَّى دعوتهم كمرغُوبهم، وأنهى فيه إلى الباب العالي، حسب التماس الأهالي، فصدرت الأوامر السنيَّة، والإرادة المُلوكيَّة الشَّاهانيَّة، من ديوان القُسطنطينية ؛ بتقريره على ولاية المملكة المصريَّة، وذلك في سنة ألف ومائتين وتسع عشرة هجريَّة.

ولما تمكَّنت دولته، وامتدت صولته، واستقرت له الولاية، وبلغ القصد والغاية، بدَّد دولة المماليك لراحة العباد، وسَعى في إصلاح البلاد بعد ذلك الفساد، فمهَّد ثغُورها وأمْصَارها، وأمَّن سُبلها وأقطارها، وأبْطَل ما كان فيها من المظالم، وقَمعَ شَوْكَة كل باغٍ /١٧ظ وظالم، وأصْلح الأحْكام والقَضايا، وجعل التَّسوية بين الرعايا، ورتَّب فيها التَّعليمات العَسكَريَّة، وبني التَّرسخَانات البحريَّة، والسُّفن الحَربيَّة، وأسَّس فيها المدارس والمَطابع، وجدَّد ما كان مُندرساً من

الفنُون والصَّنائع، وصيَّرها وطن الآداب والمَعارف، وكعبـــة تُجتنـــى منها نفائس التُّحف واللطَائف، فابتهجت بطلعته أقطار البلاد، وقـــرَّت به أعيُن العِـــباد.

فقرَّت به عينُ الأنـــام مَـــسرَّة ... وكلّ غدا يُبدي الثَّنـــا لـــه جَهْـــرَا

فذا رافعٌ كفـــاً وذا بَاسِـــطٌ يَـــداً ... وذا ناشرٌ حَمْداً وذا سَاجدٌ شُـــكْرَا

وبالحقيقة أن هذا العزيز يستحق أن يُقام له تمثالٌ من الـــذَّهب الإبْريز، لتَخْليد ذِكره /١٨و في تلك الـــدِّيار علـــى مَمـــرّ[1] الـــدهُور والأعْصار، حسبما جرت به عادة المُلوك الكبار، أصـــحاب الـــشَّوكة والاقتدار، الذين طار صيتهم في الأقْطار، وفتحوا المُدن والأمْـــصار، لأنه لم يكن دون الاسْكَندر، ولا رمسيس الأكبر في الشَّرف والفخار، ورفعة المقام والاعتبار، ولا في الفضائل وكثرة الآثـــار، لأن هـــذين الملكين، والسُّلطانين العَظيمين تقلَّدا زمام السلطنة، وحـــصلا علـــى مزيد الفخر في تلك الأزْمنة بدون أدْنى تَعب ولا مَشقَّة ولا نَـــصب، وإنما كان ذلك الشَّرف يتناوله الخلفُ عن السَّلف، وأما حضرة ساكن الجنان مُحمَّد علي باشا – عليّ الشان – فإنه تبـــوَّأ ســـدة /١٨ظ هـــذا المقام بما كان عنده من الحزم والإقدام، وصدق النظر فـــي سياســـة الأحْكام.

وقد ظهر مما تقدَّم فضل هذا الأسد الغَشمْشم الذى عـــاد بـــه للدولة المصريّة شبابها، بعد أن كانت قد هرمت وهـــوت قِبَابُهـــا،

---

[1] كذا بالأصل، ولعله أراد "مر".

وأخرجها من ذلك الظلام، ومتّعها بالأمن والسّلام، ورتب أحكامها على أحسن هيئة وأكمل نظام، وجعلها من أشهر ممالك الدُول، كما كانت في زمن الفراعنة الأُول.

شعر :-

هكذا هكذا وإلا فلا لا ... من[1] تسامى بمجده واستطالا

ملكٌ جلّ في الفَخار فأمسَى ... للسّلاطين قُدوة ومثالا

آصفيٌّ علا على كل عال ... بفعال تستغرق الأقوالا

قد دعُوه العَليّ فخراً فقُلنا ... صدقُوا إن شَأنه قد تعالى

/ ودعوه مُحمَّداً وعليه آل ... حمدٌ من كل أُمّة قد توالى

عرفت مصر فضله فهي تُثني ... كل يوم عليه ما الدّهر طالا

٥ وكان مُحبًّا للعُلماء والنبلاء، يُعز الأدباء والفضلاء، يصغي إلى كلامهم، ويبالغ في احترامهم، مُغرماً بمُطالعة أخبار الأوّلين وسير الملوك والسّلاطين، وكان قويّ الذكر والمُخيلة، إذا عُرضت له دعوى أو مسئلة[2] لا ينساها أبداً ولو طال عليها المدى، فتح اليمن وبلاد السُّودان، واستولى على عرب استان، وحارب عبد الله باشا

---

[1] كذا بالأصل، ولعله أراد "لمن".

[2] كذا بالأصل، والصواب "مسألة".

والي عكّا وكَسره، وقبض عليه وأسره عن[1] يد الأسد الكرّار، والبطل المغوار، الذي افتتح المدن والأمصار، وخضع له كل صنديد وجبّار، صاحب الهمّة العلية، والصَّولة الحَيْدَريَّة /١٩ظ حضرة نجلهُ الكريم، سميُّ الخليل إبراهيم كما سيأتي بيان ذلك في مكانه.

وكان مع عظمته وعلو شأنه لطيف الذّات، ظريف الصِّفات، مُتَّصفاً بمكارم الأخلاق، وعُلو الهمّة، ومُعامَلة الكبير والصَّغير بالمكارم والرَّحمة، لا يُميِّز بين الغني والصُّعلوك، ولا يُحابي مع المالك على المَمْلُوك.

ومن أخباره اللطيفة ونوادره الظَّريفة أنه مرَّ في بعض الأحْيَان بصبيان يلعبُون في بُستان، فلمَّا رآهم وقف ينظرُ إليهم، ويتفرَّج عليهم، فبينما هم يلعبُون بعضهم مع بعض إذ وقع طِرْبُوش أحدهم على الأرض، وكان الطربُوش رثيثا حقيراً؛ لأن الولد كان مِسكيناً فقيراً، فاقتحم الصبيُّ ليتناوله /٢٠و فالتقطه مُحمَّد علي بمِحْجَنٍ[2] كان فى يده وتناوله، وقابل الأوْلاد بوجهٍ بشُوش، وقال من يشترى هذا الطِربُوش ؟، فأقبل الغُلمان إليه وجعلوا يتزايدُون عليه، فقال الغُلام لا أبيعهُ إلا بمائة دينار، ولا أنقصُ شيئاً عن هذا المِقْدَار، فالتفت إلى الولد وقال يا للعَجب !!، ما هذا الطَّلب؟!، فقال يا صاحب المنَّة الجَسيمة، والمنزلة الرفيعة العظيمة، إن الطِّربُوش الذى يكون دلاَّله مُحمَّد علي باشا لا يكون بأقل من هذه القيمة، فعجب من خطابه

---

(١) كذا بالأصل، ولعله أراد "على يد".

(٢) المحجن : الصولجان.

وسرعة بديهته في جوابه، وقال لقد قُلت حقّاً ونطقت صدقاً، وأمر له بمائة دينار، وقال استعن بها على ما تختار.

ومما قيل من هذا القبيل /٢٠ظ أن رجُلاً من أهل البصرة يُقال له الدرويش أميني[1] وقف أمامهُ مرّة فأمر له بألفٍ من الفضّة يستعين بها على شأنه، فأخذها ومضى وهو مُستخفٌ بإحسانه، ثم عاد في اليوم الثاني إليه ووقف بين يديه، فأمر له بمثل ذلك القَدر، فأخذهُ وشكر، ثم عاد في اليوم الثالث فضجر منه، وأعرض وجهه عنه، فقال الدَّرويش :- "أطال الله بقاك، ورفع مَجدك وسَناك، إنّني رجلٌ فقير ضعيف الحال حقير، قد قصدت جَنابك ويمّمت بابك طمعاً بإحْسَانك ونوالك، وجزيل كرمك وأفضالك لعلمي بأنّك كهفُ الفُقراء وملاذ الغُرباء، ومحطُّ الرِّحال وغيثُ النَّوال، وكعبةُ الآمال، وقد /٢١و ضجرت منّي وانتهرتني، وأعرضت وجهك عني واحْتقرتَني، لأنك أعطيتني خمسين غرشاً في تِردادي عليك نوْبتين، فاجعلني مكانك وتردَّد عليّ في السَّاعة مرتين وأنا أعطيك كل مرة ألف غرش يتبعها بعض أمْتِعة من نفائس اللبس والفَرش، فتبسَّم ضاحكاً من هذا الكلام، وأمر له بثلاثة آلاف غرش على التَّمام، فتوجَّه مُنشرح البال، مُنبسط الآمال وهو يدعو له بطولِ العُمر والبقاء، ودوام العز والارتقاء.

وبالجملة والتَّفصيل فإنه كان من أفراد هذا الجيل ليس له شبيه ولا مثيل، أقام معامل كبيرة، وأبنية كثيرة منها المسجد الشهير والجامع الكبير، الذى بناهُ داخل قلعة المدينة، /٢١ظ وحلاّه بأعظم

---

[1] كذا بالأصل.

أنواع الزِّينة من نفائس الأقمشة والذخائر الثمينة التي تُـذهل عيُـون الناظرين، وتُدهش أذهان المُتفرجين، لا سيما جنينة شُبرا، وغيرهـا من المُتنزهات الأُخرى، كالقصور الزهية المُبهجة، والمَباني الجميلـة المُدبَّجة المُزخرفة بأنواع التُحسين من لطائف النُقوش والتزيين، التي تُضاهي بارتفاعها الأبلق[1]، وتُباهي غَمـدان[2] والخَورنَـق[3] فـي النُزاهة وحُسن الرَّونق.

وكانت أيَّامه كالطِّراز المُذهب، تُعدُّ من أيام الهَنا والطَّـرب، كثُرة[4] فيها التجارة والغنى، وبلغ النَّاس بها غاية المُنى، واتَّـسعت دائرة المُعاملات بين مصر وبقية الجهات، وازدحمت عليها الخلايـق من المَغارب والمشارق، وازداد /٢٢و أهلها وسُكانها، وارتفع قـدرها ومكانها، وانتشر صيتها وشأنها، وعاد إليها شبابها القديم في أيام هذا الخديوي العَظيم، بعد أن كانت عجوزاً عقيم.

---

(١) القصر الأبلق الذي بناه الظاهر بيبرس غربي دمشق، راجع بشانه ابن كثيـر : البداية والنهاية، بيروت ١٩٩٦، ١٤ : ٢٧٥.

(٢) قصر غمدان، قصر أسطوري بصنعاء، يقال أن من بناه هو يعرُب بن قحطان وأن المُكمّل لبنائه بعده وائل بن حمير بن سبأ، بالغ القدماء في وصفه وكـان قصراً مربعاً مبنيَّة أركانه بالرخام الملون وله سقوف طباق ما بين السقف إلى السقف خمسون ذراعا وطوله في الهواء نحو ثلثمائة ذراع وفي كل ركن من أركانه تمثال أسد مجوف مفتوح الفم والمؤخر والهواء يـدخل مـن مـؤخره ويخرج من فمه فيسمع له اذا هب الهواء زئير مثل زئير الاسد، شيخ الربوة : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بيروت ١٩٩٨، ص ٤٧.

(٣) الخورنق : قصر أسطوري بالحيرة بأرض العراق ينسب بناؤه إلى النعمان بن المنذر، راجع بشأنه الطبري : تاريخ الرسل والملوك، نشرة محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة ١٩٦٩، ٢ : ٦٥.

(٤) كذا بالأصل، والصواب "كَثُرَت".

ومن آثاره الفخيمة، ومشرُوعاته العظيمة ذات المنافع الجَسيمة حفر ترعة المحمُودية التي كانت تدعى بالأشْرفية، نسبة إلى الملك الأشْرف المنعُوت بالفضل والشُرف، وكانت فيما سبق من الزمن المُتتابع خليجاً صغيراً قليل الفوائد والمنافع، ثم تعطل على تمادى الوقت واندرم[1]، وصار وجُوده كالعدم، فأعاده على أحسن طريقة، وجعله ترعة واسعة وعميقة، بحيث تسلُك فيها السفن البُخارية حاملة الركاب والبضائع /٢٢ظ التِّجارية، وبذلك اتصلت القاهرة بالإسكندرية على أقرب وأسْهل سبيل، بعد تلك المسافة الشاقة والمدى الطويل، وقد اجتمع عليها من الفعلة والخدمة أكثر من ثلاثماية ألف نسمة، وكان مدة حفرها نحو سنة وشَهر، واكتسب بهذا المشروع الحميد مزيد المدح والشُكر، ومن مساعيه الخيرية سدُّه الترعة الفرعَوْنيَّة التي كانت عديمة النَّفع، ومُضرة بأراضي الزرع، وكان تَتْميم هذا العمل بعيداً عن الأمل لالتزامه تحويل جانبٍ عظيم من النِّيل عن مجراه العَريض الطَّويل، وبعد بذل الجهد، ومقاساة التعب والكد انسدت على أحْسن أُسْلوب وحصل المطلُوب /٢٣و طبق المرغُوب، جزاه الله خيراً على هذا الإحسان وجعل اسمه مُخلَّداً على مَمر[2] الزَّمان.

---

[1] كذا بالأصل.

[2] كذا بالأصل، ولعله أراد "مر".

خبر ظهور عبد الله بن سعود وهجومه على مكّـــة بالفُرســـان والجنـود

وكان قد ظهر في قبائل الأعْراب رجل يُدعى عبـد الله بـن سعُود الوهَّاب، وكان مـن الطُّغـاة المُلحـدين، لا يعتقـد بالأنْبيـاء والمُرسلين، إلا أنه كان أسداً هصُوراً، وشجاعا جسُوراً، وبطلاً فـي الحروب منصُوراً، وكان دأبه مُبارزة الفُرسان، والغزو علـى قبائـل العُربان، وفي مُدة يسيرة وبرهة قصيرة تبعه جموع كثيـرة، فـدوَّخ بلاد الحجاز، وانتصر على أهلها وفاز.

فلما كانت /٢٢٣ظ سنة ١٢٢٢ هجرية الموافقـة لـسنة ١٨٠٧ مسيحية زحف بعسكر جرَّار إلى نواحي مكَّة وتلك الديار، واعترض الحُجَّاج والزُّوار، ونهب المُسافرين والتُّجار، وعـاث فـي الأمـاكن الشَّريفة، وبدل أمْن الحَرمين بالخيفة، وتعدَّى حدود الدِّين، وفعل ما لا يليق بالمُسلمين[1]، فلما عمَّ النَّاس شرُّه وضرره، وبلغ مُحمَّـد علـي باشا خبره جهز ولده طُوسُون باشا لقتاله، وتفريق جمُوعه وأبْطَالـه، فسار بالعساكر المصريَّة إلى الـديار الحجازيـة، وقاتـل العـرب الوهَّابية، وجرى بينه وبينهم حروبٌ عديدة، ووقائع هائلة شديدة.

---

[1] واقع الأمر أن عبد الله بن سعود الوهاب لم يمنع الحاج من أداء الفريـضة وإنما طلب من أمير الحاج عبد الله باشا ألا يأتي إلى مكة ومعه المحمل وما يصحبه من طبل وزمر وغيره مما يخالف الشرع، لكن عبد الله باشـا لـم يستجب لتلك الشروط وعاد أدراجه بالحجيج دون تأدية الفريضة، انظر: عجائب الآثار ٤ : ٨٣.

ولما طال القتال، واشتد الحال التزم مُحمَّد علي باشا – ليث الطِّراد – أن يركب /٢٤و بنفسه إلى تلك البلاد، فشمَّر عن ساعد الجد والاجتهاد ليغتنم ثواب هذا الجهاد، وتدرَّع بدرع الله العزيز الجبَّـار، وسار إلى تلك الدِّيار بهمةٍ عليَّة، وعزمة قوية، لو صَدم بهـا جَـبلاً لتزعزَع وانْصدع، أو صرف الزمان لاعْتَراه الجزع.

وسار بهمـةٍ يطـوي الفَيـافي ... ليـردع كـل جَبَّـارٍ عنيـد

وأرسل رُسـله قبـل التلاقـي ... فما انتصحوا لإنـزار[1] الوعيـد

فبادر منزل الأعـداء صُـبحاً ... بفُرسـان أشـد مـن الأسُـود

بفرسان يـرون القتـل مجـدا ... كـأنَّ قلـوبهم صَـلد الحَديـد

فحارب طوائف العرب وقهرها، ومزق جمُوعها وكَسرها، وقبض على عبد الله بن سعُود، وأرسـله إلـى الأسـتانة بـالأغْلال والقيُود، ثم رجع إلى مصر بالعز /٢٤ظ والنَّصر بعـدما نـشر رايـة العدل والإنْصاف فى تلك النواحي والأطْرَاف، بعـد ذلـك الجـور والاعْتِساف.

في وصف نَجله الكَريم، سَميُ الخليل إبراهيم

ومن تمام سَعده، وإقبال عـزِّه ومَجـده أن الله رزقـه أولاداً كراماً لم ترمُق الألحاظ أشْخَاصاً تُضاهيهم رفعةً ومقامـاً، وشـجاعةً

---

[1] كذا بالأصل، والصواب "لإنذار".

وإقْداماً، وآداباً وكمالاً، وسعادةً وإقبالاً، وحُسناً وجمالاً، وسَماحةً وإفْضَالاً، وحزماً وعزماً، وفهماً وحلماً، ولطافةً ووداعة، وفصاحةً وبراعة، منهم إبراهيم- وهو أكبرهم - وطُوسُون وسعيد وإسْمَاعيل وحُسين وحليم ومُحمد علي وهو أصْغَرهم[1].

٥ وكان إبراهيم أعظمهم، /٣٥و وأشْهَرهُم وأشْجَعهُم وأقْدَرهم، ولد في مدينة قُوالة بعد زواج أبيه بسنتين[2]، وكان مُتوسط القوام

---

(١) كان إبراهيم باشا ابن محمد علي الأكبر وإلى جانب إبراهيم أنجب الباشا من زوجته الأولى أمينة هانم ولده طوسون باشا وإسماعيل كامل باشا والأميرة توحيدة هانم التي تزوجت من محرم بك قائد اسطوله، والأميرة نازلي هانم التي تزوجت من احمد بك الدفتردار، أما جواريه فقد استولد إحداهن وتدعى أم نعمان بولد وحيد منها هو نعمان بك، وجاريته عين الحياة قادين هانم ولده محمد سعيد - هو نفسه سعيد باشا الذي تولى الخديوية فيما بعد - وجاريته ممتاز قادين ولده الأمير حسين بك، وجاريته ماهوش قادين ولده الأمير علي صديق بك، وجاريته نام شاز قادين ولده الأمير محمد عبد الحليم بك، وجاريته زينة خديجة قادين وأنجب منها ولده محمد علي باشا الملقب بالصغير وجاريته شمس صفا قادين هانم وأنجب منها ابنتاه الأميرة فاطمة والأميرة رقية، وجاريته شمع نور قادين وأنجب منها ابنته الأميرة زينب، وكان له عدة جواري أخر لم ينجبن له كنايلة قادين هانم، جلفدان قادين وقمر قادين هانم، إلياس الايوبي : محمد علي، ص ١٦.

(٢) هناك رواية مفادها أن إبراهيم لم يكن ابناً حقيقياً لمحمد علي بل كان ابن زوجته الأولى وربيبه وولده بالتبني، انظر :- مجهول : مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سوريا " نشرة أحمد غسان سبانو، دمشق (د.ت) ص ١٢، والأصل في هذه الشائعات هو أن محمد علي كان ينوي جعل طوسون ولده الأصغر الرجل الثاني بعده، فعينه حاكماً للقلعة منذ اليوم الأول لوصوله إلى مصر، متجاهلاً بذلك الأحقية المنطقية لولده الأكبر إبراهيم في ذلك المنصب، وهو ما جعل ذهن البعض ينصرف إلى أن إبراهيم لم يكن ابنا حقيقياً لمحمد علي.

مُمتلئ البدن أشْهل العينين مُستطيل الوجْه والأنْف، يُعد في الرجـــال بألف، أجشُّ الصَّوت لا يهاب الموت، وقد ذكرت ترجمته في كتـــابي "البَدر السَّافر في أعيَان القرن الحاضر فقُلت فيه :-

"هو صدر الوُزراء الأماجد، وجرثُومة الفَضائل والمحامـــد، صاحب الرُتبه العلياء، وأحد أفراد الدُنيا، عزيز مـــصر ووزيرهـــا، وقائد جنُودها، ومُشيرها، الوارث المَجد عن آبائه الكرام، الذين زهت بذكرهم الليالي والأيَّام، من يقول لسان الحال في شـــأنه /[٢٥]ظ وعُلـــو قدره ورفعة مكانه:-

أسدُ الهيجاء ضـــرْغَامُ الـــوغَى ... فرعُ أصل قد تسامى في العُلـــى
قاصم الأعداء مَن قـــاصٍ ودان ... عزُّه يكسوُ العِدا ثـــوبَ الهـــوان

لو رآه الإسكندر لاقْتَفى أثره في وضع التَّنظيمات السِّياسية، أو رمسيس الأكبر لفضَّلهُ على نفسه بالشَّجاعة والفُروسية، كيـــف لا وهُو فخرُ الموالى، وتاج هام المَعالي، الذى اعتَدل به الزَّمن، وسكَنَت بأيَّام دولته الفتن، وافتَتَح المُدن والبُلدان، ونثر بصليل حُسامه كتائب الفُرسان.

كان رجلاً مهيباً، وسيِّداً حازماً نجيباً، أشـــدُّ النَّـــاس باســـاً، وأصعبهم مِراساً، وأثبتهم فُؤاداً، وأعظمهم إقْدَاماً واجتهاداً، /[٢٦]و عالي الهمَّة، مشهُوراً بالفراسة والحكْمَة، مُؤيَّداً فـــي حرُوبـــه ومغازيـــه، منصُوراً في وقائعه ومراميه، شديد الصَّلابة على الأستَار، لا يُبـــالي بالمَشقَّات والأخْطار، وكان مُحباً لعسكَره، لا يُميِّزُ ذاته عنهم، جاعلاً نفسه في الأستَار والحرُوب كواحدٍ منهُم، فكانوا يخضعُون له تعظيماً لمقامه واعتباراً، ويبذلون أنفسهم قُدَّامه طوعاً واختياراً.

وكان أبوه يُحبُّه ويميل إليه، ويُعوّل في أمْرِه عليه، ويُقلِّده أعظَم المُهمَّات، ومُباشرة الحروب والغَارات، لعلمه بحزمه، وشدة بأسه وعزمه، فما سار في أمر إلا انتَصر، ولا قصد حرب قوم إلا ظَفر، وغنم وأسَر وبلغ القصد والوطَر.

/[ب٢٦] في مسير إبراهيم باشا بالعَساكر المصرية لافتتاح الدِّيار الشاميَّة

وكان قد حدث فى تلك الأيَّام بين مُحمَّد علي باشا وبين عبد الله باشا والي عكَّا نفورٌ وخِصَام، وكان عبد الله باشا المذكُور لا يُركن إليه في أمرٍ من الأمُور، شديد الطَّمع، عديم الوفاء، ذميم الأخلاق ، مُتقلِّبُ الآراء، لا يحفظُ وُدّاً، ولا يَرعى عهداً، ولا يثبت على حال، ولا يصدُق إذا قال، عاكفاً على المَلاهي واللذات، مشغُوفاً بسمَاع الأغاني والأصْوات.

وكان أبُوه من مماليك أحمد باشا الجزَّار[1]، يُقال له علي أغا الخزندار، فساعدته يد العناية حتى تمكَّن من الولاية، /[ب٢٧] وطابت له الأيَّام، وبلغ القَصد والمَرام، وكان دأبه الاهتِمام، بإقامة العمار،

---

[1] أحمد باشا الجزار (ت ١٢١٩هـ/١٨٠٤م) أحد اشهر من تولى باشوية عكّا في العصر العثماني بل ربما أشهرهم على الاطلاق، أصله من بلاد البشناق وكان مملوكاً لعلي باشا حكيم أوغلي ثم سافر إلى مصر وخدم عبد الله بك تابع علي بك بلوط قبان، ثم تقلد كشوفية البحيرة، ثم قلده حسن باشا الجزايرلي باشوية عكا فعمر أسوارها وأخذ في تحصينها وأسرف في شراء المماليك حتى قويت شوكته، وذاع صيته وازدادت مكانته بعد ثباته أمام جيش نابليون الذي حاصر عكا قرابة الشهرين ولم يظفر منها بطائل فظهر بمظهر البطل حتى قال فيه الجبرتي "ولو لم يكن له من المناقب إلا استظهاره على الفرنساوية وثباته في محاربتهم له أكثر من شهرين لم يغفل فيها لحظة لكفاه" عجائب الاثار ٣ : ٤٧.

وتحصين عكّا بالأبْراج والأسْوار، وجمع الأمْوال من جميع الأقْطَار، وكان قد استَولى عليه الطَّيش، واستخفَّهُ البَطرُ وطيب العيش، حتى حاد عن الطَّريق المَحمُود، وتجاوز في الأحْكَام الحُدود، وأشهر العِصيَان على الدَّولة ذات الشَّوكة والصَّولة ؛ أملاً بالاستِقْلال، وطمعاً في الأمْوَال.

ولما بلغ مسامع حضرة ساكن الجِنَان السُّلطان مَحْمُود خان ما هو عليه من الهذيان والتَّمرُّد والعِصيَان وارتكاب الظُّلم والعُدوان ؛ غضب من سُوء فعاله، وأرسل عسكراً لقتاله، تحت راية البطل الهمام، والصارم الصِمْصَام درويش /٢٧ظ باشا والي دمشق الشَّام، فحاصره زمناً طويلاً، وأذاقه عذاباً وبيلاً، ولما اشْتَد عليه القتال، وأحاطت به الأهْوال، وانقطع عنه الإمْدَاد من سائر البلاد، صحا من غفلته، واستفاق من سَكرته، وداخله الخوف والفزع، واضْطَرب فؤاده من الهَلع، وأيقن أنه إذا طالت عليه تلك الحالة ؛ يؤخذ أسيراً لامحالة، فابتدر بالعجل لاستدعاء الأمير بشير[1] حاكِمُ الجبل، وكان

(١) الأمير بشير شهاب الثاني، أحد أمراء آل شهاب الذين تولوا حكم جبل لبنان والبقاع في العصر العثماني، منحه إبراهيم باشا الحكم على الجبل بُعيد استيلاءه عليه، وفكر محمد علي في إسناد حكم الشام بأكملها له بعد أن شكا إبراهيم باشا لوالده ثقل العبئ الملقى على كاهله جراء جمعه بين القيادة العسكرية للجيش وبين الإدارة المدنية للبلاد إلا أن الأمير اعتذر وقنع بحكم الجبل فحسب فأناط تلك المهمة بمحمد شريف باشا وأعطى لسليمان باشا الفرنساوي ومحمود نامي بك الجركسي الأصل إيالة طرابلس الشام ومن ثم تقلص نفوذ آل بشير كثيراً في عهد محمد علي، عن الشهابية في لبنان خلال العصر العثماني انظر :-

A. Rustum; F. Boustani: Libnan al'epoque des emirs Chihab, Bairoth 1933.

من أفراد الرِّجال، موصُوفاً بالفضل والكمال، وحُسن التَّدبير وجميل الخِصال، ولقد أجاد من وصفه فقال :-

إنَّمـــا أنـــت واحـــدٌ غـــير أنِّـــي ... لـــستُ أُعطيـــك مَـــثلَ الآحـــاد

فيمـــــا ذا يُبـــــالغون وهُـــــم لا ... يَبْلغـــون الإلـــصَاف بعـــد الجِهـــاد ؟!

/[٢٨]د لك خوفٌ لو صَادف العَـين في الحُلـم ... لـــصَارت تخـــاف طيـــب الرُّقَـــاد

تفخرالنـــــاس بالجـــــدُود ولكـــــن ... أنـــت فَخْـــرُ الآبـــاءِ والأجـــدادِ

وأرسله إلى الدِّيار المصرية؛ ليستميل له خـاطر الحَـضرة الخديوية لإصلاح أمْره مع الدَّولة العليَّة، وكان مُحمَّد علي باشـا لـه وجاهة كبيرة، ومنزلة عند الدَّولة رفيعة خطيرة، فلبَّى دعوته، وأجاب طُلبته، وكتب في شأنه إلى القُسطَنْطِينيَّة، واستَرضـى الدَّولـة عنـه بموجب إرادة سَنيَّة، ورفع عنه تلك الشِّدَّة بعدما أقام فى الحِصَار مُدَّة، وصار له عليه حق الجميل والإحسان على مدى السِّنين والأزمان.

غير أن عبد الله باشا - لشدة جُوره وقلة معرُوفه وخيـره - كبُرت نفسه بعد ذلك عليه، وجحد فـضل مُحمَّـد علـي باشـا /[٢٨]ب وإحسانه إليه، وحصول العفو له على يديه، فأصدر أمراً إلـى مـن تحت يده من الحُكَّام والولاة أن لا يذكره أحدٌ من رعاياه[1]، فلما بلـغ

(١) الحقيقة أن محمد علي بعد أن لمس رفض الباب العالي القاطع لمطلبه بـضم الشام إلى مصر الذي اعتبره حقاً مشروعاً بعد ما تكبده في خدمة الدولة فـي حرب المورة لجأ بخبث إلى إذكاء جذوة صراع جانبي مع عبد الله باشا والي عكا وأداره بمهارة شديدة واتخذ منه التكأة لادعائه أن حملته على الـشام لـم يقصد منها إلا تأديب عبد الله باشا فحسب لعدة أسباب اتخذ منها ذريعة لحملته على الشام كان منها: امتناع عبد الله باشا عـن رد الفلاحـين المـصريين-

مُحمَّد علي باشا هذا الخبر استشاط غيظاً وتكدَّر، وكتب إلى حضرة السُّلطان يُعلمه بهذا الشَّأن، ويلتمس من جلالته خلع عبد الله باشا عن ولايته، فلم يكترث بخطابه، ولا أجاب على كِتَابه، مع أنَّهُ كان من الواجب أن يُجيبه إلى طَلَبه ويعزل عبد الله باشا عن مَنْصِبه ؛ بالنسبه إلى خداماته[1] الصَّادقة، وإمداداته السَّابقة؛ حيث أعانه على حرب المورة[2]، وبذل الأمْوَال الكثيرة في تلك الحرُوب المشهُورة، عندما

=الهاربين من التجنيد الإجباري الذي فرضه محمد علي على المصريين، وامتناعه أيضاً عن سداد المبلغ الذي تحمله محمد علي عنه وتعهد بإنفاذه إلى السلطان نظير بقاء عبد الله باشا في ولايته وقدره محمد علي بـ ١١ مليون قرش، وكذلك منعه (أي عبد الله باشا) تصدير دودة القز إلى مصر مما أضر كثيراً بصناعة الحرير في مصر، وأخيراً لأن عبد الله باشا لم يتخذ أي إجراء للقضاء ظاهرة تهريب البضائع إلى مصر برغم تكرر إلحاح الباشا على عبد الله باشا بشأن العمل على الحد منها، انظر :-

Asad Rustum : the royal archives of Egypt and the origins of the Egyption Expedition to Syria (1830-1841), Beirut 1936, P 30.

السيد فرج: حروب محمد علي، القاهرة ١٩٤٢، ص ص ١٢٢، ١٢٣؛ عبد الرحمن زكي: حملة الشام الأولى والثانية، بحث منشور ضمن الكتاب التذكاري لابراهيم باشا بمناسبة انقضاء مائة عام على وفاته، القاهرة ١٩٤٨، ص ص ٢٩٢ – ٣٠٤ ؛ خالد فهمي: كل رجال الباشا، ترجمة شريف يونس، القاهرة ٢٠٠١، ص ص ٦٩ – ٧٠.

(١) كذا بالأصل، والصواب "لخدماته".

(٢) بلاد المورة تشمل الحدود السياسية لليونان الحالية بشكل تقريبي وكانت قد شبت الثورة بها عام ١٨٢٢ بعد نجاح إحدى الجمعيات الشوفونية السرية وتدعى جمعية فليكي هيتريا **Philki Heteria** في الدعوة إلى الثورة ضد الوجود العثماني في بلاد اليونان وسرعان ما وجد العثمانيون انفسهم في موقف حرج لا سيما بعد فشلهم في القضاء على الثورة، فاصدر السلطان فرمانا بإسناد ولاية المورة إلى محمد علي بإيعاز من سفير النمسا، ولم يقدر محمد علي الهوة التي دفعه السلطان إليها حق التقدير ودفعه حبه لتوسيع رقعة دولته إلى الانغماس في تلك الحرب حتى النخاع والتي انتهت بتدمير أسطوله بالاضافة إلى أسطول الدولة العثمانية في مواجهة مهينة في نافرين انظر :-
محمد صبري : مصر من محمد علي إلى اليوم، القاهرة ١٩٢٧، ص ٦١.

أرسل ولده – أسدُ الآسَاد، وسيف الجهاد – إبراهيم باشا /[٢٩د] بالعساكر والأجناد إلى تلك البلاد ؛ فخاض في معَامِعها، وقاتل في وقائعها.

فاستَعظَم من الدَّولة ذلك الأمر بعد أن كان موعُوداً منها بإضافة ولاية سُوريَّة إلى أحكَام مصر، فلم يعد يُمكنهُ الاضطبار على ذلك الذُّل والعَار، فجهَّز ولده – بطل الأبطَال، وليث الوغى في النِّزال – إبراهيم باشا أن يسير في الحال لفتح الدِّيار الشَّامية، وأردفهُ بالعِمَارة الحربيَّة انتِقَاماً من عبد الله باشا، ورغماً لأنفه لتستريح النَّاس من ظُلمه وعَسَفِه، وأصحبه بثلاثين ألفاً من شُجعان العَسكر الذين لا يُبالون بالخَطر، بل يهجمُون على الموت الأحمَر بقلوبٍ أقوى من الحجر.

شعر :–

/[٢٩ظ] جيشٌ يسير النَّصرُ فوق لوائه فتهابهُ الأعْدَاء قبل لقائه

جيشٌ تذل له الرِّقاب وتنحني طَوعاً وتحمى تحت ظل حِمائه

وكانت العمارة البَحرية مُؤلَّفة من ستة عشر قطعةٍ حربيَّة، وسبعة عشر سفينة وسقيَّة تحت رياسة أسد العرين، وفخر الأمَاجد المُعتبرين عُثْمَان بك نُور الدِّين، وكان خرُوجه من بُوغاز الأسكَنْدَريَّة في غُرَّة جُماد الأوَّل سنة ١٢٤٧هجرية، فوصل في خمسة أيَّام إلى حيفا – إحدى أسَاكِل بر الشَّام، وأمَّا القائد العام، والبطل الهُمام فإنَّه سار قاصداً الدِّيار الشَّامية، على طريق البريَّة، وكان من جُملة

مُعاونيه عبَّاس[1] باشا ابن أخيه، وإبراهيم باشا الصُّغير[2] وغيرهُمـــا /٣٠د من القوَّاد المَشاهير.

ولما بلغ عبد الله باشا هذا الخبر؛ أحاط به الخوف وانْـذَعر، وطار من عَيْنَيه الشَّرر، ففرق الأمْوَال وجمع الفُرســان والأبْطــال، وشرع في تحصين القلع[3] والأسْوار، واســتعدَّ للقتــال والحِــصار، وأرسل يستدعي من حوله من المناصب والأعْيَان، وكتب بخط يــده إلى الأمير بشير حاكم لبنان يستنجده لهذا الأمر ويقول له أن المَشايخ [من][4] بني الجرَّار وبني صقْر وعرب السَّلط وطُوقان وبني صَــخْر ينتظرون قُدومه إليهم ؛ ليكون رئيساً عليهم، وفي أثناء ذلــك يــذكِّره بالصَّداقة القديمة والمحبَّة، ويثني على أمانته وحفظه المودَّة والصُّحبة مُتمثِّلاً بقول الشَّاعر :-

/٣٠ظ وأنت الخالصُ الذَّهبُ المُصفَّى بتزكيتــي ومِثْلــي مــن يزكِّــي

وجعل إبراهيم باشا يُواصل التسبار، ويسابق بمسيره الكوكب السيَّار، ويفتح في طريقه المُدن والأمْصار، حتى أشْــرَف بالعــساكر المصريَّة، والجُنود الجِهادية في عشرين من تــشرين الثــاني ســنة ١٨٣١ مسيحيَّة على قلعة عكَّا من الجهة الجنُوبيَّة، فتزلْزلت بقدُومــه الدِّيار الشَّامية، وارتجت من هيبته رجةً قوية، وكانت عكَّا فــي تلــك

---

(١) عباس بن طوسون بن محمد علي.

(٢) يكن إبراهيم باشا بن أحمد بن إبراهيم باشا الكبير المعروف بــإبراهيم باشــا الصغير.

(٣) كذا بالأصل، ولعله أراد "القلاع".

(٤) زيادة اقتضاها السياق.

الأيام من أشهر مدن بر الشام، وكُرسيّ الولاة والحُكّام، ذات أبـــراج حصينة، وقلاع متينة، وأسوار مكينة، مـــشحُونة بالمُهمّـــات، وآلات القتال والجَبْخَانات، وفيها مـــن رجـــال الحـــرب وفُرســـان الطّعـــن والضرب، /[٣١]و نحو اثنى عشر ألف مُقاتل، بين فارس وراجل[١].

وكان فصل الخزين قد مَضى، وانتهى وانقـــضى، وفـــصل الشّتاء قد هَجم وأتى، فنزلت العساكر والجنود في مدينة حيفا وتلـــك الحدُود، ونصبوا المضارب والخيام، ونشروا البنُود والأعلام، وفـــي ثاني الأيّام تقدّم إبراهيم باشا في فرقة قويّة من الفُرسان والطُّوبجيـــة، تنيف عن ستّة آلاف من كل أسدٍ كاسر وبطـــل زحّـــاف، لا يهـــاب الموت ولا يخاف، وبنى أتراساً متينة على تلٍّ هناك تجاه المدينة يقال له تل الفخار، ووضع عليه المدافع والقنابل الكبار.

---

(١) كانت عكا محصنة بأسوار منيعة شاهقة الارتفاع وتحميها عدة أبراج تتـــوزع على شكل قوس كبير من البحر إلى البحر على رأس خليج عكا أشهرها بـــرج النبي صالح الذي أحدث به إبراهيم باشا ثغرته الرئيسية وبرج كـــريم وبـــرج الزاوية، والأسوار التي شيدت لحماية المدينة من جهة البحر أقل متانة من تلك المواجهة للبر وذلك لأن عمق المياه في الخليج لم يكن يسمح للـــسفن الكبيـــرة بالاقتراب وبالتالي فإن الحصار البحري للمدينة لم يكن مجديا إلا مـــن ناحيـــة إحكام الحصار ومنع تسرب الإمدادات للمدينة عبر منفذها البحري، وقد رمـــم أحمد باشا الجزار أسوار المدينة بعد جلاء الفرنسيين عنها وقام عبد الله باشـــا بتجديد أسوارها قبيل حصار إبراهيم باشا ومن ثم فإن هذه الأسوار كانت بحالة ممتازة وقت أن أشرف عليها المصريون في شتاء عـــام ١٨٣١، عـــن عكـــا واستحكاماتها الحربية قبيل حملة إبراهيم باشا راجع عمل أسد رستم :-

Notes on Akka and its Defences under Ibrahim Pasa , Beirut 1926.

وأرسل إلى عبد الله باشا يقول ضمن كتاب مع رسول أن يُسلِّم المدينة بطريقة أمينة ويربح /٣١ظ دم العباد وسلام البلاد، ويبادر إلى مُلتقاه، ويعتذر مما جناه، ويدخل تحت لواء الحَضرة الخِديويَّة، ويعيش باقي أيامه في رغدٍ ورفاهية، وعيَّن له أجلاً للحضور، وتسليم الحُدود والثُغور، إن تجاوزه ولم يخضع لأمره يضربه بالمَدافع، ويهدم البلد بأسره ويجعل كيْده في نَحْره، وحينئذٍ يأخذه أسيراً، ويُرسله إلى مصر ذليلاً حقيراً، ولا يعُود يفيده الندم بعد فوات الفرصة وزلة القدم، فلمَّا وقف على كتابه، وفهم فحوى خطابه، شقَّ ذلك عليه وعَظُم الأمر لديه، وحدثه عقله السَّقيم بعدم الطَّاعة والتَّسليم، وتصلَّب على المُحاصرة والمُقاومة، وأصرَّ على المُدافعة والمُصادمَة، ورفض أمر /٣٢و الصُّلح والمُسالمة، وسعى بسوء تدبيره على خَرابه وتدميره، ولم يعلم أن أيَّامه قد مَضت، ومُدَّة أحكامه زالت وانقضت، واستمرت بينهما المُخابرة والمُفاوضة والمُذاكرة نحو عشرة أيام وعبد الله باشا يُحاوله بالكلام، ولا يقدِّر عواقب الأيَّام.

وكان مستر بيتر أبوت – قُنسل دولة الإنكليز في بيروت – لما بلغتهُ هذه الأخبار سار قاصداً تلك الدِّيار، واجتمع بإبراهيم باشا في الخيام بعد مسير ثلثة[1] أيام، وأخذ يلُومه بالكلام على قدُومه إلى برِّ الشَّام، بدون رخصةٍ سنيَّة من الدولة العليَّة بقوله له "إن هذا العمل لا توافق عليه بقية الدول، لا سيَّما الدولة الإنكليزية المُتحدة مع الدولة العُثمانية على حفظ الصداقة وإخلاص الطُّويَّة"، فاغتاظ إبراهيم /٣٢ظ

[1] كذا بالأصل، والصواب "ثلاثة".

باشا وتأثُّر، غير أنَّه لم يظهر له من غيظه ما أضمر، وقال له "اعلم أيها الصديق الأكرم أني حضرت بالعساكر الجهادية لاستخلاص الدِّيار الشَّامية انتقاماً من عبد الله باشا بأمر الحضرة الخديوية، فإن كان ذلك لا يُوافق دولة الإنكليز فعليها أن تخاطِب به جناب والدي العزيز، فمتى أمرني بالرجُوع عدلت عن هذا المشرُوع، وإلا فلا أرجع بدون ذلك ولو قامت علي جميع المَمالك"، ثم نهض على الأثر، وتوجه قاصداً المُعسكر، ولم يلتفت إلى حديث مستر أبُوت وكلامه، ولا اكترث بتعنيفه وملامه، واستمرَّ على ما كان /٣٣و قد قصد من ضرب الأسوَار وهدم البلد.

في حصار عكا وفتح أسَاكل عرب استان واستيلاء إبراهيم باشا على جبل لبنان

فلمَّا انقضت مُدَّة الميعاد المعهُود، وفات وقت الأجل الموعُود، وعبد الله باشا ما زال مُصرَّاً على عدم تسليم البلد، وباقي الحدُود ؛ استعد إبراهيم باشا وتأهب في اليوم الرابع من شهر رجب على ضرب المدينة وهدم أبراجها الحصينة، فأصدر الأوامر إلى رُؤساء الطُّوبجية، وقبطان باشا العمارة الحَربية بإطلاق النار على الأبراج والأسوار، فقامت الحرب على قدم وساق، وارتجت جوانب الآفاق من ضرب المدافع والقنابل، وأصوات البارود الهائل، /٣٣ظ وكان الضرب مُتَّصلاً من الخارج والداخل حتى كان يسمع السَّامع أصوات القنابل والمدافع إلى مدينة دمشق الشام على مسافة أربعة أيام.

وكان قد أرسل إلى الأمير بشير حاكم الجبل كتاباً يستدعي حضوره بالعجل، ليقرره في مركز حكُومته، ويعيش في ظل نعمته، فلما وقف على هذا الخطاب داخله الخوف والاحتساب، وجمع مناصب لبنان ومن يعتمد عليهم من الأعْيَان واستشارهم في هذا الشأن، فاستقر رأي الجمهُور على عدم التسليم والحضُور، خوفاً من عواقب الأمُور.

فلما أبطأ في قدومه وأصرَّ على عدم تسليمه استشاط إبراهيم باشا غضباً، وتبدلت فُرات /٣٤و حلمه لهباً، وكان قد صمَّم النيَّة على أن يدهمهُ بالعساكر النِّظامية، ويقبض عليه جبراً، ويستولي على لبنان قُوةً وقهراً، ثم توقَّف وعدل عن هذا العَمل، لأن أباه كان قد أوصاه به قبل خروجه من القاهرة بالعَساكر الظَّافرة، نظراً لما كان [قد][1] وقع له عنده من التَّقرب والمودَّة وذلك عند زيارته الدِّيار المصرية، وتمثله أمام الحضرة الخديوية في طلب العفو والأمان – حسبما قرَّرناه قبل الآن[2] – فكتب إلى والده بمصر يعلمُه بهذا الأمر، فلما وقف العزيز على هذا الخبر، داخله الغيظ والكَدر، وتأثَّر من مُخالفة الأمير، وكتب إليه كتابا على سبيل التنبيه والتَّحذير، يُعاتبه على ذلك القُصور، /٣٤ظ ويتهدده بسوء العاقبة إن تأخَّر عن

---

[1] زيادة اقتضاها السياق.

[2] الإيماءة إلى ما سبق وذكره المؤلف من توسط الأمير بشير عند محمد علي في شأن مخاطبة السلطان في العفو عن عبد الله باشا، راجع ص ٦٩.

الحضُور، فمن جُملة فحْواه: "إن لم تحضر إلى خدمة ولدي إبـــراهيم باشا سريعاً، وتكون لأوامره مُنقاداً مُطيعاً، فليكن عندك يقينـــاً أنـــي سأخرِّب مَسَاكنك، وأغْرس أرضها عنباً وتينـــاً، وقـــد بالغنـــا فـــي النَّصيحة، وحذَّرناك بأقوالنا الصَّحيحة، فاستيقظ من رقادك، واحْـــذر عاقبة عنادك، قبل أن تَهجُم العساكر عليك، وتأخذ ولايتك مـــن بـــين يَديك".

فاضْطَرب الأمير بشير من هذا التَّهديد والتَّنذير، وأثـــر فيـــه هذا الكلام، وخاف عَواقب الانْتقام فصمَّم علـــى التأهُّـــب والمَـــسير، لخدمة إبراهيم باشا بدون تأخير، وركب من يَوْمِه في مائـــة فـــارس /٣٥ظ من قومه، ولما أقبل على المعسكر خرج إلى مُلتقاه أميـــر آلاي العسكر، وتبعه حنَّا بك البحري رئيس الكتبة، ومُصطفى أغا بَربـــر، وبعض رُؤساء العساكر والجنود بالمُوسيقا وإطلاق البارُود، فـــدخلوا به الأوردي[1] بموكبٍ عظيم، ونزل في الخيمة المُعدَّة له قرب خيمة إبراهيم[2].

وكان إبراهيم باشا حينئذ يجُول بين الجيُوش والقوَّاد، ويُرتب الصُّفوف والأجْناد، وينشطهم على الهجُوم والثَّبات، والحرب قائمـــة

---

(1) الأوردي مخيم العسكر.

(2) قارن رواية المؤرخ المجهول عن استقبال الجيش المصري للأميـــر شـــهاب، مذكرات تاريخية، ص ٤٠.

على عكّا من جميع الجهات، وعند رجُوعه في المساء استدعى الأمير إليه، فطيَّب قلبه، وصفا خاطره عليه، ولاطَفه بالحديث والكلام، وأجلسه معه على الطَّعام، وشمله باللُّطف والإحسان، /٣٥ظ وفوَّض إليه أحكام جَبل لبنان، واتخذه من جُملة الحَواشي والأعْوان، وكان قد أرسل آلاياً من العساكر بالمُهمَّات والذَّخائر لاستخلاص الثُّغور والأسَاكل، تحت قيادة الليث الباسل والبطل الحلاحل[1] صاحب القدر العَليّ حسن بك المِنسترلي، فاستولى على صيدا وصُور وبيروت وطرابلس وباقي الثُّغور.

وكانت العمارة الرَّابطة تجاه عكَّاء قد تعطَّل بعضها من شدَّة العواصف والأنْواء، ووقوع الكلل[2] الكبار التي كانت تسقط عليها كالأمْطَار من الأبراج والأسْوَار في الليل والنَّهار، فأقلعت بأمر إبراهيم باشا إلى الأسكندرية في آخر كانُون الثاني سنة ١٨٣٢ /٣٦و مسيحيَّة.

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) الكلل أو "القلل" هي قذائف المدافع.

في قدوم مُحمّد باشا والي حَلب وسَرْ عسكر[1] بلاد العرب إلى حِمْص بأمر السُلطان لاستخلاص أساكل عربستان

ولما بلغ السلطان محمُود خان[2] قدوم إبراهيم باشا إلى عربستان، وافتتاحه المُدن والبُلدان، استولى عليه الغيظ والغضب، وكتب إلى مُحمَّد باشا والي حَلب يقول له من جُملة الكلام :- "اعلم أيها الوزير الهُمام [أنَّه][3] قد انتَهى إلينا في هذه الأيَّام مجيء إبراهيم باشا

---

(١) سَرْ عَسكَر أي القائد العام.

(٢) السلطان محمود خان الثاني (١٢٢٣هـ/١٨٠٨م : ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م) تولى السلطنة في ظروف صعبة للغاية فمن ناحية كان قد عهد إلى الصدر الأعظم مصطفى باشا البيرقدار مهمة إلغاء الإنكشارية وتنظيم العسكر على أساس الجندية الحديث (النظام الجديد) إلا أن الإنكشارية ما لبثوا أن ثاروا وقتلوا الصدر الأعظم، كما تقطعت أوصال الدولة في عهده فتجددت هجمات الروس على بلاد الدولة حتى وصلوا إلى إدرنة حيث آل الأمر الى عقد المعاهدة المعروفة بمعاهدة ادرنة والتي اعترفت فيها الدولة العثمانية بحيوية مصالح روسيا في البحر المتوسط، وخرجت فعليا ايالة بغداد والموصل عن سلطان الدولة بسبب عصيان سليمان باشا، كما قام الوهابيون في عهده بالاستيلاء على الحجاز، كما ثارت بلاد المورة على حكم الدولة، ولولا جهود محمد علي المساندة للسلطان في بادئ الامر ما كان أحد يدري الى أي حد قد تصل الأمور، إلا أن جو الصفو بينه وبين محمد علي قد تبدد بسبب تجاهل السلطان (بايعاز من محمد خسرو باشا والي مصر الأسبق وعدو محمد علي اللدود) لمطالب محمد علي بضم سوريا إلى مصر فاستولى محمد علي عنوة على الشام وأعالي الأناضول.

انظر : يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ص ١٤٤ – ١٤٨ ؛

Edward Shepherd Creasy: History of theOttoman Turks from the beginning of their empire, london 1856, Vol ii, PP 446 – 451.

(٣) زيادة اقتضاها السياق.

بالعساكر المصريَّة لفتح الديار الشَّامية، والاستيلاء على ولاياتها واستخلاص أقاليمها وإيالاتها ومُدنها وباقي مُلحقاتها، واستولى /٣٦ظ على أطراف البلاد، وانقادت إليه العباد، فلذلك قد أصْدَرنا الأوامر والمَراسيم بتجهيز العساكر وإرسالها لتلك الأقاليم تحت راية السَّردار الأكْرم حُسين باشا الأفْخَم، فيجب عليكم أنه بوصُول أمْرنا هذا إليكم أن تحصِّنُوا القلاع والمَعاقل بالمدافع والمَكاحِل، وتجمعُوا العساكر والجَحافل، وتستخلصُوا منه تلك الأسَاكل، قبل قدوم الجيوش المذكُورة والعساكر المنصُورة".

فلما وصل هذا المنشُور إلى الوالي المذكُور شرع في تحصين البلد بالسِّلاح والعدد، وجمع العَساكر والجنُود، وعقد الرَّايات والبنُود، وسار إلى حمص من غير توان، في سَبعة آلاف عنان من الأرْناوط[1] والهوَّارا[2]، /٣٧و والعُربان، وحصَّن قلاع المدينة بالمدافع والأبنية المتينة، وأقام بفُرسانه فيها، وعسكَر في نواحيها مُنتظراً قدوم العساكر العُثمانية، ومجيء حُسين باشا من القُسطنْطينية.

وأرسل أمامه عُثمَان باشا اللبِيب - وكان ذا بأسٍ شديد، ورأيٍ مُصيب - في أربعة آلاف مُقاتل بين فارسٍ وراجل، لقتال العساكر المِصريَّة، واستخلاص المُدن البحرية، فسار بهمَّةٍ وحميَّة، واستولى على اللاذقية[3]، ثم تقدَّم بعزمٍ وثبات إلى نواحي طَرابُلس

---

(١) كذا بالأصل، والصواب "الأرناؤط".

(٢) كذا بالأصل، والصواب "الهوارة".

(٣) كذا بالأصل، والصواب "اللاذقية".

وتلك الجهات، فالتقاه من عساكر مصر شِرذِمَة نحو خُمسمائة نَسمة، وكان في مُقدّمتهم الأسد الوثّاب الأمير خليل ابن الأمير بشير شهاب، /٣٧ظ وبمعيّته ستّمائة بطل من عسكر الجَبل.

ولما وقعت العيْن على العين، اشتعلت نيران الحرب بين العَسكَرين، والتقت الفُرسان بالفُرسان، والأقْرَان بالأقْرَان واختلف الضّراب والطّعان، وسالت الدّما[1] على أديم الصَحْصحَان، وأخذ حدّه السّيف والسّنان، ولم تكن إلا ساعة من الزمان حتى تضَعْضَعت من عُثمان الأرْكان، فولى الأدْبار، واستنْجد بالفرار، ورجع بمن بقي معهُ من الأنْفَار إلى قلعة الحِصن وبلاد عكار، وهو في حالة الذُلّ والانْكِسار.

وحينما بلغ إبراهيم باشا هذا الخبر ومجيء مُحمّد باشا إلى حمص بذلك العسكر - وهو إذ ذاك مُحاصر /٣٨و عكّاء الحَصينة، وقد كاد أن يفتحها ويهدم أسْوارها المَتينة - تجهّز من يومه وسار في أربعة آلاف فارس كرّار، قاصداً تلك الدّيار، وترك عكّاء تحت الحصار[2]، ثم عجّل في السّير وسابق بمسيره الطّير، فأدرك عُثمان

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) سبق أن استخدم إبراهيم باشا ذات التكتيك في قطع الطريق على أعدائه قبل أن ينجحوا في مُحاصرته هو نفسه بين الجيوش القادمة وبين من كان يُحاصرهم قبل وصول النجدات إليهم، ففي حرب المورة وقع إبراهيم باشا في موقف مشابه عندما نجح في إحكام طوق حصاره على نفارين "Navarin"، ثم ما لبث أن سار جيش من الثوار لنجدة المدينة ورفع الحصار عنها، وخطط المهاجمون لجعل إبراهيم باشا وقواته بين المطرقة والسندان فآثر إبراهيم باشا عدم انتظار حدوث مثل هذا الموقف الحرج وبادر بترك تشكيلات الجيش الرئيسية المزودة بالاسلحة الثقيلة تباشر مهامها في حصار المدينة وسحب الوحدات خفيفة الحركة لمباغتة المهاجمين، انظر :-
السيد فرج : حروب محمد علي ص ٩٣؛ احمد فهيم بيومي: حرب كريت والمورة، بحث منشور ضمن الكتاب التذكاري لابراهيم باشا، ص ٢٤٥.

باشا في أرض القُصير، وكان مُحمد باشا قد أمده بالمُهمَّات والذَّخائر، وأضاف إليه فرقة من العَساكر، فناوشَهُ الحرب، وبادره بالطَّعن والضَّرب، فقهره وكَسره، وفرق جيشه وعسكره، وفر عُثمان باشا من سَاحة المَعمعة، وترك الذَّخائر والمُهمَّات والأمتعة، ولجأ إلى حِمْص بمن سلم من جنده معه بعدما قتل من عَسكره نحو ألف قتيل، ومن المصرِيِّين /٣٨ظ نفر قليل، ثم رجع إبراهيم باشا على الأثر بعدما غَلب وقهر، وفاز وانتصر، وغَنم وأسر، وبلغ القَصد والوطَر، وأتى دير القَمر، وترك فيها ألف وخُمسمائة نفر، وعاد إلى عكَّا بعد ذلك الانتصار، وشدَّد عليها الحصار.

وكانت لإبراهيم باشا في حصار عكَّاء مواقف غريبة، ومشاهد مُدهشة عجيبة، تدل على شِدة بأسه وشجاعته، وحُسن[1] تدرُّبه في أبواب الحَرب وبراعته، فمن ذلك ما حدثني به بعض الأعيان من أهالي عربستان ممن كان في خِدمته، ومُقدما بين رجَال دولته، قال :-

"خرج إبراهيم باشا ذات يوم في جَماعة من قواده مُنفرداً عن عسكره وأجناده، /٣٩و وقصد مكاناً يبعد عن المدينة نحو نصف ساعة، وكنت أنا من جُملة الجَماعة، ولما انتهينا إلى ذلك المكان نزل عن ظهر الحصان، وجلس على الرَّمل مُتَّكئاً على رُكبتيه، فنزلنا نحن أيْضاً وتمثَّلنا وقُوفاً بين يديه، فانتزع النظَّارة وكشف المدينة وشاهد أسْوارها المَتينة، وأبْرَاجها وقلاعها الحَصينة.

---

[1] بالأصل "وتدربه" ثم شطبها المؤلف وعدل عنها إلى "وحُسن تدربه".

قال صاحبي : "فما كان إلاّ كلمحة بصر حتى تبدّل صَفونا بالكَدر من وقُوع الكَلل الكبار التي كانت تسقط حولنا من الأبراج والأسوار، فخفت من عواقب الأمُور ولمت نفسي على الحضُور، وعلمت بأن الأعداء أبصرُونا ووجّهوا مدافعهم نحونا ليهلكُونا، فقلت له -وقد ضاع فكري وحِرت في أمري- أدام الله /[٣٩ظ] أيّامك ونصر أعلامك، ومكّن من رقاب الأعداء حُسامك، إن مجيئنا إلى هنا كان غَلطاً، وجُلوسنا في هذه الأرض خطرٌ عظيم وخطأ، فقم بنا لنذهب قبل أن يمسّنا العَطب، فتبسّم ضاحكاً من مقَالي، ولم يُجبني على سُؤالي.

وكان قد طلب كبشاً مشوياً فجيء به إلى دولته، وشُوي أمام حَضرته، ومازلت أكرّر عليه الكلام، وأطلب منه الإذن في ترك المُقام إلى أن جاء الغُلام بسُفْرَة الطَّعام، فعند ذلك ألقى من يده النظّارة وهو مُظهر الشّجاعة والجَسارة، وشمّر على[1] ساعده كالليث الغَشمشَم، وأشار إليّ أن أتقدم، فتقدمت على عجلٍ، وأنا في خوفٍ ووجل من أصوات /[٤٠و] المدافع، ووقوع الكلل، وإذا بكلّة سقطت أمامي كادت تسقيني حِمامي، فخفق قلبي وزاد خوفي ورُعبي، فنهضت من مكاني مُرتعشاً حائراً مندهشاً، كل ذلك وهو جالس كأنه صَخرة واد، أو طَود من الأطْواد، غير مُبالٍ بهذه الحال، ولا خطر له خوف ببال من جميع هذه الأهوال، وبعد أن أكل وشرب، دعا بجواده فركب، وركبنا نحن أيضاً وتبعناه، وأنا لا أصدّق بالنّجاة،

---

[1] كذا بالأصل، ولعله أراد "عن".

حتى ابْتعدنا عن العدو، وصرنا في ساحة الأمان والهدو، فعجبت من جسارته على الأهوال والنوائب، وعدم اكتراثه بالأخطار والمصائب.

ولما بلغ إبراهيم باشا قدُوم عساكر السُّلطان إلى حدُود عربستان ؛ أرسل /٤٠ظ عبَّاس باشا إلى بَعَلْبَك في اليوم الخامس عشر من نِيسان، وأصحبه بآلايين من المُشاة والفُرسان؛ ليقيم مُحافظاً في ذلك المكان.

في فتح المدينة وهدم أبراجها الحَصينة

وكانت الحَرب على عكَّاء قائمة، والمدافع على أبراجها مُتصلة دائمة، حتى هُدم أكثر حصونها وأسْوارها، وسقط روْنق مجدها وفخارها من وقوع الكلل والقنابل، وهجوم الأبْطَال والجَحافل.

وكانت[1] سُكَّان البلد من الشيخ إلى الولد في خوف واحتساب، وقلق واضْطراب من سقوط الكلل وأصوات البارود، فكانُوا يستترُون تحت العقُود، واستمر /٤١و القتال على هذا المنْوال مدة سبعة شهُور بلا انْقطاع ولا فتُور، وكان المصريُّون في أثناء الحِصار يحفرُون حُفراً تحت أسَاسَات الأسْوار، ويضعُون فيها البَارود ويضرمُونها بالنَّار، فتهدِم ما فوقها من البُنيان، وتسحق المدافع وتقتل الفُرسان[2].

---

(1) كذا بالأصل.

(2) كان هذا التكتيك معروفا للجيوش الشرقية منذ في مهاجمة الأسوار والقلاع، لا سيما بعد أن نجح السطان سليمان القانوني في استخدامه ببراعة في نسف أسوار رودس أثناء حصارها انظر :-
العباسي : مدح رب البرية في فتح رودس الأبية، تحقيق فيصل الكندري، حوليات كلية الآداب جامعة الكويت، الحولية الثامنة عشرة، الكويت ١٩٩٨، ص ١٠٧.

ولما كان يوم الجُمعة الواقـــع فـــي ٢٦ ذي الحجـــة ســـنة ١٢٤٧هجريَّة صمَّم إبراهيم باشا النيَّة لقيام هَجمة قويَّة، لينتهي بهـــا الحال وتكون واقعة الانْفصال، فجمع أركان حربه إليه، وأخبرهم بما قد عوَّل عليه، وأعطاهم الأوامر والإرشادات اللازمة، المُتعلقة بكـــل واحد منهم في تلك المُهاجمة، وعيَّن لها اليوم الثَّاني من ذلك النَّهـــار، وهو السابع والعشرين /٤١ظ من ذي الحجَّة والثامن والعـــشرين مـــن آيـــار.

ولكن لمَّا كان هذا الدَّستور الأكْرم يحب توفير أسْبَاب سَـــفْك الدَّم ؛ أرْسَل إلى عبد الله باشا سفيراً يطلب إليه – أخيراً – أن يُـــسلِّم المدينة طَوعاً، ويقلع عن التشبُّث بما لا يُجديه نفعاً، قبـــل أن تفُوتـــه فُرصة الأمَان، ويقع في قبضة الأسْر والهَوان، وأنه غير مُنفك عـــن هذا الشَّان ولو تحزَّبَت عليه جبابرة الأرض ومَردة الجان، فلم يلتفـــت عبد الله باشا إلى هذا التَّحذير والتَّنذير، وعـــدَّه مـــن بـــاب الخَـــوف والتَّقْصير، وقال للسَّفير المذكُور :- "إن مُدة الحصار لم تَتجاوز بعـــد سبعة شهُور، والمدينة – من حمد الواحد الأحَد – مشحُونة بالـــسِّلاح والعدد، /٤٢و وفيها من الجَبْخَانات والذَّخائر والعُلوفـــات مـــا يكفيهـــا خمس سَنوات، فمتى جاء الوقت المعهُود، وفـــرغ الـــزَّاد والبـــارُود، وانقطع عنَّا الإمْدَاد والإسْعاف ننظر حينئذ في إنْهَاء هذا الخلاف ".

فلما عاد الرسُول إلى مَوْلاه، وبلغه جواب عبد الله تعجَّب من وقاحته، وأمر من ساعته بإطلاق المدافع والقنابـــل علـــى الحُـــصون والمَعاقل، فأُطلقت طول ذلك الليل، وانصبت علـــى البلـــد كعـــارض السَّيل، ولما كان الصباح تأهَّب العسكر للهجُوم والكفـــاح، فقُرعـــت

الطُبول، ولمعت النُصُول، وخفقت الرّايات ونُفخ النَفير، وانقَسمت الآلايات إلى فرقٍ وطَوابير، وسارت العساكر كالأسُود /٤٢ظ الكواسر، بحسب صدور الأوامر التي كان أعطاها سيّدها ومولاها إلى القُواد، وزُعما[1] الأجْنَاد الذين عليهم الاعتماد، طالبة القلاع والأبْراج، بدون خوفٍ ولا انْزعَاج، وفي مقدمتها هاتف السّعد والإقْبَال، ينشد قول من قال :-

هيًّا بنا هيًّا بنا ... للحرب نلقى ضِدّنا

نحنُ الأسُود الكاسرة ... نحن السُيوف البَاترة

هيًّا بنا هيًّا بنا ... للحرب نلقى ضدّنا

بارُودنا شِراره ... يشْوي الوجُوه ناره

وسيْفُنا بتّارة ... من العدى تُمكّنا

هيًّا بنا هيًّا بنا ... للحرب نلقى ضدّنا

/٤٣و نحن الجهاديُون لا ... نخْشَى غباراً إذ علا

ولم ندق في البلا صدراً ... إذا المَوْت دنا

ولم تكُن إلا ساعة من النّهار حتى أشرفُوا على الأسْوار، واندفقوا عليها كالبحار، وكان أوّل من هجم بأمر إبراهيم طابوراً من الآلاي العَاشر على برج كريم الكائن في الجهة الغربية من الأسْوار الشّمالية، ثم أتبعه على الأثر ثلاثة طوابير أُخر، تحت قيادة الشُجاع

[1] كذا بالأصل.

الشهير إبراهيم باشا الصّغير، وانعطفُوا بحملاتهم أسرع من البرق على الأبراج الكائنة تجاه الشرق، وكانت أكثر هذه المواضع متقُوبة بكلل المَدافع.

وأما أسد الآسَاد وسيفُ الجهاد، وقائد القوّاد فكان سائراً على أثر العساكر، وبمعيَّته /٤٣ظ طابُوران من الآلاي الخَامس والعَاشر، وكان يجُول على ظهر جواده بين صفُوف فرسانه وأجناده، وهو ينخيهم بالكلام، وينشّطهم على الهجُوم والاقْتحام، ويعدهم بالمكافأة والإنعام، فللّه درُهم من فُرسانٍ وأبطالٍ، ما أشدَّهم في الحرب والقتال، وأثبتهم في ميدان النّزال على المَخاطِر والأهوال ؟!.

وكان الرَّصاص يتناثر عليهم كالبرد من الأبْرَاج ومتاريس البلد، وهم ثابتُون ثبات الجبابرة أو الأسُود الكاسرة، غير مُبالين بالخطر طمعاً بالنَّصر والظَّفر، وبلوغ القصد والوطَر، بل كانوا يهجمُون على الأسْوار والحصُون، بهمم وعزائم أمضى من الصَّوارم، وينصبون عليها السلالم، ويتسلّقُون فوقها كالضَّراغم.

هذا /٤٤و ولم ينتصف النَّهار، حتى تمكّنُوا بالقوة والاقْتدار على أكثر الحصُون والأسْوار، ونشروا عليها بيارق الانْتصار، فاستولى جيش الطابُور الثاني على المراكز والمباني التي في الناحية الشَّرقية المُتصلة بأطراف الأسْوار الشَّمالية، واستولى الطابُور السَّادس من الآلاي الخامس على جميع الصوايح التي في جهة النبي صالح، وهكذا استولى الآلاي الثاني الاحْتياطي على المَتاريس الواقعة بقرب الشَّاطئ.

فلمَّا رأى عبد الله باشا ذلك الهَول العظيم والخَطبُ الجَسيم ؛ ندم على عدم الطَّاعة والتَّسليم، وعلم أن نَجمه قد سقط، وعقد عزه انحلَّ وانفرط، وأنه عما قريب يؤخذ أسيراً، /٤١ظ ويقاد أمام عدوِّه ذليلاً حقيراً بعد أن كان والياً ومُشيراً، ولكنه أظْهَر الصَّبر والجلد، وسار بالعسكر إلى خارج البلد بقصد المُدافعة والمُمانعة، وصد الهَجمات المُتتابعة، فخاض ساحة المعركة، وجرت بينهم وقعةٌ مُهلكة قُتل فيها من قوَّاد المصريين وشُجعانها الموصُوفين الفاضل النَّبيل، والسيِّد الجليل الأميرالاي إسْمَاعيل، وبموت هذا الليث الأذرع ارتبك جيش المصريين وتزعْزَع، فارتد وتأخَّر، وضعفت عزيمتهُ وتقهقر.

فلما رأى إبراهيم باشا أن العَسْكَر قد أمْسَى في ارتباك وخطر، خشي من الهزيمة والانْكِسار بعد ذلك الفوز والاسْتظهار، فتقدم نحو جنُوده /٤٥و بحرسه وهو راكب على ظهر فَرسه، وجعل يُحرِّضُهم على الثَّبات والجهاد، ويحثُّهم على الصَبر والجلاد، ويقول "هذا يوم الانْتصار، هذا يوم الافتخار، هذا يوم بلوغ الأوْطار"، فكانوا تارة يتقدَّمون، وتارة يتأخرُون، فعند ذلك سلَّ سَيْفَه من غمده، وانعطف بالحَملة أمام جُنده واقتحم مَواكب الأعْدَاء كأنه أسد البَيداء، فشقَّ الصفُوف والتقى بصدره الأسنَّة والسيُوف، وأظهرَ بشجاعته العَجب، وفعل فعالاً تعجز عنها جبابرة العَرب[1].

---

[1] يقول المؤلف المجهول : "... فسحب إبراهيم باشا سيفه ورمى حاله [أي هجم] من الصور [يقصد سور المدينة] قُدَّام العساكر، وصاروا العساكر يرموا حالهم وراه، وكانت ساعة مهولة واشتغل ضرب السيف حتى أفنوا جميع العساكر الذين في عكا " مجهول : مذكرات تاريخية، ص ٤٠.

فتشجَّعت عزيمة العساكر بهيبة هذا الهُمام الظَّافر، والحُسام الباتر، وداخلتهم الحَماسة والفُتوَّة، وارتدُّوا على أعْدَائهم بنشاط وقوة، وسدُّوا عليهم الطُرق /٤٥ظ والطَّرايق، وألهبُوهم بضرب السيُوف والبَنادق فأزاحُوهم إلى ما وراء الخَنادق، ثم قويت عزيمة المحصُورين، وانعطفوا بالحَملة على المُحاصِرين، وحينئذ اختطلت الرِّجال بالرجال والأبْطَال بالأبطال، والتحم القتال واتَّسع المجال، وجرى الدَّم وسال، واشتد الخطب وعظُمت الأهْوال، وتمكَّنت الصَّوارم في الرقاب والجَماجم، والحراب والخناجر في الصُّدور والخواصر، وكان يوماً من أعظم الأيَّام، وساعة يشيب من هَوْلها رأس الغلام، لأنَّ الدِّماء كانت تسيل كالمَطر، والجُثَث تتساقط على الأرض كأوراق الشَّجر، والسُّهول تهتز من ضجيج الرجال، وأصوات المدافع، حتى خُيِّل للناظر والسَّامع /٤٦و أن السَّاعة اقتربت، والسَّما[1] غابت واحتجبت، والأرض ارتَجَّت واضْطربت، والمدينة احْترقت وانْقَلبت، ولقد أحسن المَقال وصدق فيمن وصف عكَّا في ذلك اليوم وقال :-

قد قيل أن جَهنَّماً تحت الثَّرى ... ما لي أراها فوق عكَّة تُضْرَمُ

لو لم تكُن دار الشَّقاوة عكَّةٌ ... ما أضرمتها بالشَّرار جَهنَّمُ

واستمرت تلك المُعاركة والمُهاجمة المُتداركَة من الصَّباح إلى بعد العصر حتى هبت ريح النَّصر، وكانت قد كلَّت جمُوع عبد الله باشا، وانحلَّ عزم نشَاطها وتلاشَى، وعجَزت عن حماية البلد،

---

[1] كذا بالأصل، ولعله أراد "الشمس".

ولم يعُد لها أدنى ثبات ولا جَلد خوفاً مـن حلُـول البَـوار، ونـزول الدَّمار، فألقوا سلاحهم /٤٦ظ وسـلَّمُوا أرواحهـم، وطلبـوا لأنفُسهم الأمان، واختاروا الأسْر والهَوان.

وانصبَّت العساكر المصريَّة كالسَّباع، واندفعُوا على البَلد أشد اندِفاع بقلُوبٍ لا تخْشَى المَوت ولا ترتَاع، وتـسلَّمُوا بـاقي الأبْـراج والقلاع، واستولُوا على مدينة عكَّا عُنوةً وقهراً بعد حـصار سـبعة أشْهُر براً وبحراً، وتسلَّم إبراهيم باشا زمام تدبيرها، وقبض على عبد الله باشا وزيرها وألقاه تحت الحِفظ والتَّرسيم، بعدما وبَّخه على فعلـه الذَّميم، وسُلوكه الغير المُستقيم.

وفي اليوم الثَّاني الواقع يوم الأحد نزل فـي قـصر البهجـة خارج البلد – وهو أحـد القـصُور المـذكُورة، والمُتنزهـات /٤٧و المشهُورة، ولما استقرَّ في ذلك المكان خرج إليه الأكـابر والأعيـان وطلبُوا منه الأمان ؛ فأجابهم إلى ذلك الشَّان، ثم أمر بكتابة الأوامـر والمَراسيم إلى ولاة المُدن والأقاليم يُعلمهم بذلك الفتح والنَّصر، وأنـه استولى على عكَّاء بالقوة والقهر، فكُتبت في الحين، وأُرسـلت إلـى الولاة والمُتسلِّمين، وهذه صُورتها :-

" بعد السَّلام عليكُم، المنهيُّ إليكم انه لمار أمْس، قبل غروب الشَّمس زحفت عسَاكرنا المصريَّة الظَّافرة بـالقوَّة والـسَّطوة القَاهرة، واندفعُوا على مدينة عكَّاء اندفاع الأسُود الكَاسـرة، وبادروها بالمُهاجمة، واقتحمُوها بالمُصادمة والمُقاومـة، إلى /٤٧ظ أن فتحُوها بقوة الحرب والنَّار الدَّائمة، وصـعدُوا اسْـوارها

الرّفيعة، ووطئوا أبراجَها المَنيعة، وغـدت عـساكر الأعـداء مقهُورة أمام عَساكرنا المنصُورة".

ولما تضعْضعَت منهم الأركان، ورأوا ماجَرى وكـان رفعُـوا الرّايات وطلبُوا الأمان فأجبناهم إلى سؤالهم، وبلّغناهم غايـة آمالهم، وعاملناهم بالرّفق والإحْسَان، شـفقة علـى الأهـالي والسُّكان، ورأفةً بالبنات والنِّسوان، والأطْفَال والـصِّبيان[1]، وأخرجنا عبد الله باشا وكتخُداه وقوّاد عـسكره وزُعمـاه، واستولينا على عكّاء قهراً بأذن[2] الله، ولأجل إعـلان هـذه البُشرى حرّرناكم هذا المنشُور من ديوان عَـسكرنا المنـصُور /٤٨و لتعلنوا مـضمُونه بالـشنّك[3] والـسُّرور، وتواظبُـوا [على][4] تادية الدّعوات الخيْريّة إلى حضرة بارى البرية بدوام بقاء سعادة ولي النّعم جناب والدنا المُعظّم ".

حُرّر في ٢٨ ذى الحِجّة سنة ١٢٤٧

(سَلامٌ على إبراهيم)

---

(١) أباح إبراهيم باشا عكا لجنوده اثنا عشر ساعة، فلم يبق الجنـود المـصريون لأهل عكا سوى ما يستترون به فحسب، أو على حد قول المؤلـف المجهـول "فشلحوهم بالزلوط" مذكرات، ص ٤٨.

(٢) كذا بالأصل.

(٣) عادة الشنك هي إطلاق الرصاص في الهواء إلى الأعلى ابتهاجاً واحتفالاً.

(٤) زيادة اقتضاها السياق.

وبعد ذلك استُدعي بعبد الله باشا فحضر بين يديه، وسلَّم عليه واعتذر إليه، وتصوَّر الموت نصب عينيه، فلاطَفَه وطيَّب قلبه، وسكن رَوْعَه ورُعبه، وأجلسه بالقُرب من حَضْرَته، وقابله بما يليق بحشْمته، ثم أرسله إلى أبيه أسيراً ذليلاً حقيراً، وعند دخُوله عليه وقع على قدمَيه مُلتمساً منه الرِّضى[1] والعفو عمَّا مضَى، فلما رأى حاله صفح عنه ورثى له /٤٨ظ وأنزله في أحْسَن السَّرايات، وأجرى عليه ما يلزمه من العَلائف والنَّفقات، فتباشَرت النَّاس بزوال أيَّامه وسُرَّت بانقراض أحْكَامِه.

في مسير إبراهيم باشا البطل الهُمام وبهجة الليالي والأيَّام بفرسان الكفاح وليوث الآجام لافتتاح مدينة دِمَشق الشَّام

وكان إبراهيم باشا صاحب الهمَّة العليَّة، والصَّولة الحَيْدرية قد بقي في نفسه شيء من حرب القُصير على مرِّ ذكره[2]، فأثَّر ذلك عنده تأثيرات مازال يختلج بها صَدره، لأنَّ ما جرى عليه من دولة آل عُثمان لم يكن إلا مَحض افتَراء وعُدوان، /٤٩ظ إذ لم يكُن في قصده الاعْتداء على حقُوق السُّلطان، ولا الاستيلاء على عربستان، وإنَّما كان جُلُّ قدُومَه إلى الدِّيار الشَّامية بالعساكر المصريَّة للانْتقام من عبد الله باشا المذكُور لما كان بينه وبين الحَضرة الخديوية من

---

(١) كذا بالأصل، والصواب "الرضا".

(٢) الإيماءة إلى هجوم محمد باشا والي حلب ومحاولة حصر إبراهيم بين جنوده وبين المحاصرين بعكا، راجع ص ٨٠- ٨١، ويلاحظ أن المؤلف يتبنى دفاع محمد علي عن موقفه في انه ما قصد إلا تأديب عبد الله باشا وأن التوسع في الشام جاء كتداعيات لموقف الدولة المعادي ولم يكن مقصوداً في حد ذاته.

الخلاف والنُّفور، فما لبثت الدَّولة أن بادهته[1] بالشَّر والقتال على ما سوَّل لها سُوء الظنّ به واختلاف الأقْوَال، فاضْطر إلى المُدافعة عن نفسه، ودفع الرجال بالرجال، ثم لما تمادَى الأمر على الشِّقاق، وأصرَّت الدَّولة على عَدم الوفاق، لم يجد بُداً من طَرح زمَامها، والثَّبات على حربها وصدامها.

فلما فرغ من حرب عكَّاء تجهَّز لأخذ دمشق الشَّام، ونهض /٤٩ظ في سبعة آلاف بطل هُمام، وسار معه الأمير بشير حاكم لبنان في ألف وخُمسمائة عنان، فوصل إليها في اليوم الخامس عشر من شهر حُزيران سنة ١٢٤٨ هجرية، الموافقة لسنة ١٨٣٢ مسيحية، وكان الوالي يومئذ على البلد رجل يقال له علي باشا الأسْعد، فلما بلغه قدوم هذا الأسَد اضْطرب فُؤاده وارْتَعد، فاستعدَّ للقاه، وخرج بالعَساكر لمُلتقاه، فالتقاه المصريُون بقلوبٍ قوية، ونفوس مُعتزَّة، وثارت بينهم الحَرب بالقرب من داريا والمزَّة، فاقتتلوا في تلك الأرض والتحمُوا بعضهم مع بعْض، ولم تكن إلا جولَة حتى انْكَسر عسكر الدَّولة[2]، فولَّى وطلب الهَرب /٥٠و وتفرَّق جمعهُ وانْقلب، واغتنم على باشا الهزيمة فنجا بنفسه إلى حمص في حالة ذميمة، ولم تنفعه همَّة ولا عزيمة.

---

(1) كذا بالأصل، ولعله أراد "بدأته".

(2) يعطي المؤلف المجهول وصفاً طريفاً لما حدث صبيحة المعركة بين عسكر دمشق وبين عسكر إبراهيم باشا منها أن حامية دمشق لما أشرفت على جند مصر وعلى عددهم وآلاياتهم تقطعت قلوبهم من الخوف، وأن إبراهيم باشا أدرك هذا بفطنته فأعطى الأوامر لجنده بأن "يقوصوا بالعالي" (أي يطلقوا النيران إلى أعلى) لئلا يصيبوا أحداً من أهل المدينة الذين سارعوا بالفرار على الفور، مذكرات ص ٤٩.

وبلغ إبراهيم باشا ببأسه الشَّديد ما كان يشْتهي ويُريد، ودخل إلى البلد بالنُصر والتأييد، فامتلكها ونزل في دار السَّرايا، وانقادَت لأمره جميع الرعايا، فعامَل النَّاس بلُطْفه المعهُود، واستمال نفُوسهم إليه بالعَدل والجُود، فاستنارت بقدومه المَدينة، وتزيَّنت أسْواقها بأحسن الزِّينة، وصفَّقَت طَرباً أنْهَارها السَّبعة، وأصبحت جبهتها بتشْريفه مُبَاركة الطَّلعة.

حاكت عُلاه بدور الأفْقِ وابْتَهجت ... به الأهَالي وقد قرَّت به نَظَرا

وازداد حُسن دمشْق الشَّام واكتسبت ... فخراً بمقدمه إذ جَاء مُنتصرا

/٥٥ظ وصفقت طرباً أنهارها وغدا ... داعي التَّهاني بها يعتزُّ مُفْتَخرا

في وصُول خسين باشا إلى عربستان وانهزامه في موقعتي حِمص وبيلان

وكانت العَساكر العُثمانية التي خرجت من القُسطنْطينيَّة تحت قيادة السِّردار الأكْرم حُسين باشا الأفْخَم – الذي سبق ذكره فيما تقدَّم – قد أقْبَلت في تلك الأيَّام إلى أطْرَاف برِّ الشَّام، وكانت ستِّين ألف مُقاتل، بين فارس ورَاجل، منها خَمسة وأربعُون ألفا من العَساكر المُنتظمة، وخمسة عشر ألفاً من الأتْبَاع والخَدمة، ومعها من المدافع نحو مائة وستِّين، وبمعيتها جماعة من ضبَّاط الأوربيِّين، هذا عدا عن العَساكر /٥٦و الاحتياطيَّة، التي حضرت بالعمارة الحَربية من أزْمير[1] إلى شطُوط قَرمان، حتى إذا دعت الحَاجة تأتي إلى عربستان.

---

[1] أزمير "Azmir" إحدى أكبر المدن التركية تقع على الشاطئ الشرقي لبحر إيجة إلى الجنوب من منيسا "Manisa".

وكان حُسين باشا المرقُوم قبل وصُوله إلى أنطَاكيـــة وتلـــك التِّخُوم [قد][1] أرسل أمامه طَليعة من العَساكر إلى حمص بالمُهمَّـــات والذَّخائر تحت قيادة البطل المغوار مُحمَّد باشـــا البيرقـــدار، وعنـــد وصُوله إليها عسكر بجنده حواليها، واجتمع بمن هُناك من باشـــاوات الأتراك الذين كانوا بالانتظار لذلك الجيش الجرَّار، وأعلمهـــم بقـــدوم السِّردار إلى تلك الديار بالعَساكر الظَّـــافرة، والجيُـــوش المُتكـــاثرة، فانْشَرحت صدُورهم وتشدَّدت ظهُورهم ؛ لأنَّهُم كانوا في خوف /٥١ظ عظيم من حَرب إبراهيم.

ولما بلغ إبْرَاهيم باشا – القائد العَام – قـــدُوم هـــذا الجـــيش اللهام[2]– وهو في دمشق الشَّام – استعدَّ لاستِقْبَاله وحربـــه وقتالـــه، وتفريق جمُوعه وأبْطَاله ؛ فجهَّز المُهمَّات والمدافع، ورتب الكتائـــب والطَّلائع، وكتب إلى عبَّاس باشا في الحال يأمره أن يَقْدُمَ من بَعلْبَـــك بالعَساكر والأبْطَال، ويَجدَّ في السَّير ويُوافيه إلى قرية القُصير.

وكتب أيضاً إلى طَرابُلس الشَّام يأمر حَسن بـــك المنـــسترلي بسرعة القيام، وأن يُلاقيه بباقي الجنُود إلى المكان المعهُود، ثم ســـار هو على الأثر بمن معه من العسكر قاصداً تلك الكورة، فوصل إليهـــا في سابع تمُوز من السنة /٥٢و المذكورة، فالتقى بهما في ذلك المكـــان وبمعيَّتهما الرجال والفُرسان، فأخذوا يتفاوضُون ويتذاكرون على مـــا هم عليه عازمُون، وهل ينتظرون الأعداء في تلك البيْداء أم يبادرُون

---

[1] زيادة اقتضاها السياق.

[2] كذا بالأصل.

إليهم قبل أن يُشرفوا عليهم؟، فاستقرَّ الرَّأي على السَّير قبل وصول العدو إلى القُصير، وكان بينهم وبين حِمْص نصف مرحلة، فباتوا في تلك المَنزلة، ولما أصبح الصَّباح، وسَطع نُوره ولاح، اصْطفَّت المواكب وترتَّبت الكَتائب، وانتشرت البَيارق ونُفخ النَّفير، وجدَّت العَساكر بالمَسير قاطعة تلك السُّهول الدعص[1]، قاصدة مدينة حمص.

وكان مُحمَّد باشا والي حلب ومن معه من الباشوات ذوي المناصب والرتب لما بلغهم قدوم إبراهيم باشا /٥٥٢ظ إليهم، وأنه عمَّا قريب يُشرف عليهم، تأهبوا للحرب واستعدوا للطَّعن والضَّرب، ولما اقترب المصريُّون من المدينة، ولاحت عن بُعد قلاعها الحَصينة، أبصروا جيوش الأعداء تمُوج في تلك السَّهول والمرُوج، فأصدر إبراهيم باشا الأوامر بترتيب صفُوف العَساكر، فاصطفت وترتَّبت، واستعدَّت وتأهَّبت.

وتقدَّمت فرقة من عرب الهَنادي طالبةً عسكر الأعادي، فاقتتلت مع طليعة الأتراك، وأخذت معها في الصِّدام والعِراك، فاستظهرت عليها غاية الاستِظْهَار، وقتلت منها جُملة أنفار، ثم انكشفت الأعْلام والبنُود، وظهرت العساكر والجنُود وهي مُقبلة للقتال على قدم الاستعجال، وكانت طوابيرها مُنقسمة إلى أربعة صفُوف مُنتظمة /٥٥٣و ومرتبة على هيئة حسنة بين قلب ومَيسرة وميْمَنة، أمَّا

---

[1] الدعص هي التلال والغرود الرملية.

القلب فكان مُواجهاً من أمام لطَريق دمشق الشّام، وأما الميْمَنة فكانت مُنتشرة في ذلك البرّ الأقفَر ومُحاذية لنهر العَاصي من الجانب الأيسَر، وأمّا المَيْسَرة فكانت مُستندة لمزرَعةٍ على مسافة قريبة من النّهر المذكُور لتمنع الأعداء من الهجُوم والعبُور، وهي مُؤلّفة من ثلاث آلايَات من ذوي الشّجاعة والثّبات، أحدها من الرجّالة، واثْنَان من الخيّالة، وأكثرها من الباش بُزق[1] والأخْلاط المُتجمّعَة، ومن ورائها فرقتان لحفظ الذّخائر والأمْتِعَة، وكلها عشُرون ألفاً من عساكر نظاميّة وأرناوُط[2] وهوّارا[3] ودالاتية[4]، ومعها أربعُون مدفعاً بين كبير وصغير، وكان ضبّاطُها من الوُزراء المَشاهير الذين /٥٣ظ اشْتَهروا بين النّاس بالشّجاعة وقوة البَاس كمُحمّد باشا البيرقدار، وباكر باشا الخَزنْدار، ومحمد باشا والي حَلب، وغيرهم من البَاشوات أصْحَاب المنَاصب والرُتب.

---

(١) الباش بزق هم الجنود الأخلاط أو المرتزقة، وأصل كلمة بزق بالتركية تعني الرجل اللحيم، أو الرجل المنقاد ولا إرادة له، انظر أثير الدين الاندلسي: الإدراك للسان الأتراك، ص ٣٠، ولا تزال الكلمة عينها تستخدم في عامية أهل الشام بمعنى "طرطُور".

(٢) كذا بالأصل.

(٣) كذا بالأصل.

(٤) الدالاتية او الأدلاء فرق من الفرسان كانت تعمل في مقدمة الجيوش العثمانية كطلائع واستكشاف، وكانوا يختارون بعناية من الجند الذين يتميزون بالجسارة والإقدام وربما لهذا السبب تحرف اسمهم من الادلاء بالتركية الى الدالاتية وهي لفظة تركية تعني المجانين، انظر :-
احمد السعيد سليمان : تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، القاهرة ١٩٧٩، ص ص ١٠٤ – ١٠٦.

وأمَّا العساكر المصرية فكانت مؤلَّفَة من سبعة عشر ألفـاً، وأربَعة وأربعين مدفعاً من أجْرَامٍ مُختلفة، ومُنقسمة إلى ثلاثة أقـسام على أحْسَن ترتيب وأكْمَل نظام، وكان القسم الأول في مقدمة الجَحفل وهو مُؤلَّف من الآلاي الثَّاني عشر والثالث عشر والثامن عشر مـن الرجَّالة، ومُستند من اليمين واليسار بالآلاي الثَّاني والخَـامس مـن الخيَّالة، وأما القِسْم الثَّاني فكان مُؤلَّفاً من ثلاث آلايـات وهـم آلاي الحرس والآلاي الخامس والحادي عشر من المُشاة، ومُـستنداً مـن اليمين واليسَار على نحو مائة /٥٥ خُطوة بالآلاي الرابع والسابع من السَّباهيَّة[1] ذوي البَسالة والسَّطوة، وأما القسم الثالـث فكـان جـيش الاحتِياط وهو مؤلف من الآلاي الثامن من المُشاة ومُستنداً من اليمين واليسار بالآلاي الثالث والسَّادس من الخيَّالة ذوي الثُّبـات والنَّـشاط، وعلى جناحي هذا القسم من اليمين والشَّمال كانـت عَـساكر الجبـل والبدو مُتهيِّئة للقتال.

ولما تدانى العَسكران، وتقابل الجَيْشَان، أمر إبـراهيم باشـا فارس المَيْدَان الآلاي الثَّاني والثَّالث والرَّابع من الفُرسان أن يبـرُزوا إلى ساحة الهيْجاء، ويهاجمُوا الجانب الأيسر من عَـسكَر الأعْـدَاء، بحيث تُصلَى نيران الحرب من اليسار واليمين والقلب، فأجابُوا أمـره

---

(1) السباهية هم إحدى فرق الفرسان بالجيوش العثمانية، كان يتم إقطاع الـسباهية الأراضي زمن السلم مقابل تقديم خدمات ذات طابع عسكري للدولة في حالـة الحرب، وكان يتم التنظيم فيما بينهم بحيث كان ينوب عن كل عشرة سـباهية إقطاعيين في حالة الحرب سباهي واحد، للتفصيل انظر :-
عراقي يوسف: الوجود العثماني في مصر في القرنين السادس عشر والـسابع عشر دراسة وثائقية، القاهرة ١٩٩٦، ص ص ١٤ - ١٩.

بالامتثال، وفي عاجل الحال قصدوا تلك النّاحية /٥٥أ كالأسُود الضّارية، وانتشرُوا في تلك الأماكن الواقعة بين المَزرعة المذكُورة والجناين، وهجمُوا على الأعَادي هجُوم الصّناديد، وصدمُوهم بقلوب أقْوى من الحَديد، وأقْسَى من الجَلاميد، وأطلقُوا عليهم البَواريد، ثم اقتحمُوا صفُوفهم واخترطوا سيُوفهم وحكّموها في أبْدَانهم، فزحزَحُوهم عن مكانهم.

فلما رأت عساكر الأتْراك المُقيمة بالقُرب من هُناك ما أصاب أصحابها من البليّة بادرت بهمّة وحميّة لمُهاجمة العساكر المصريّة، فالتقاها المصريُون للحال، وصدمُوها صدمةً تُزعزع الجبال، واشتعلت بينهم نار الحرب واختلف الطّعن والضّرب، واشتد البلاء والكَرب وهان كل أمرٍ صعب.

وعندما شاهد إبراهيم باشا /٥٥ب تلك الحَركة، وهو بالقُرب من سَاحة المعركة أمر أحد قوّاد العسكر أن يسير بألف فارس على الأثر، ويقصد ذلك المكان المعهُود ليُعضّد من له فيه من الجنُود، وأسنَده من اليَمين بصف من الطّوبخَانة، ومن اليَسَار بالآلاي الثّاني عشر من المُشاة، وبفرقتين من الششخانة[1]، فامتثل وسار كالسّهم الطيّار، وعند وصوله إلى هناك انعطف على صفُوف الأتْرَاك، وأخذ

---

(1) المراد بالششخانة أو "الشيشخانة" هنا الفرق المسلحة بالبنادق الفرنسية مُزدوجة الفُوّهة، تجد وصفاً طريفا لهذا الطراز من البنادق في مذكرات سركيس نارزكيان "Sarkis Narzakian"، انظر :-

Memoirs of Sarkis Narzakian, translated by Garine Narzakian, .bublishrd by Gomidas istitute, U.S.A, 1995, P 11.

معها في الشِّباك والعِراك، ففرَّقها وهزمها، وبدَّد شَمْلها وحطَّمها، ثم تقدَّم باقي الجيُوش المصريَّة حتى اقتربُوا من العساكر العُثمانية، وانْفَصل الآلاي الحَادي عشر من مُشاة العسكر وانْضَم إلى الآلاي السَّادس والسَّابع من الفُرسان، وقصدُوا /[٥٥ظ] مَيْمَنة العدو من غير هدو ولا تَوان، فعبرُوا النَّهر عند العَصْر، وانتشرُوا على شاطئه الأيْسَر غير مُبالين بالخَطَر، أملاً بالنَّصر والظَّفر، وبلوغ القَصد والوطَر، ولما رأى مُحمَّد باشا تلك الهَجْمَة مُتَّجهة نحو جناحه الأيْمن عزم على دفعها، ومُلاقاة الأمر بالتي هي أحسن، فأمر أحد القوَّاد أن يتقدم بطابُورين من الأجْنَاد ويُهاجم عسكر المصريِّين من جانب اليَمين، فبادر بالعجل وانْعَطف نحوهم وحَمل، فالتقته المصريُّون من الجهة اليُسرى، وأقاموا عليه القيامة الكُبرى.

وكان قائد هذه الموقعة ومُوقد نار تلك المَعْمَعة - البطل الهُمام والصَّارم الصَّمْصَام، وليث الوغَى في الصِّدام، من تتبدَّد به جيُوش العدا وتتلاشى - إبراهيم باشا، /[٥٦و] فبزل بشدَّة عزمه المجهُود، وقوَّى بهجمَاتة قلُوب الجنُود ؛ لعلمه بأن أمر النَّصر متوقِّفٌ عليه، وتدبير الحَرب راجع إليه، فللَّه درُّه من أسدٍ كرَّار، وبطل قهَّار، فإنه سَطَا سَطْوَة جبَّار، وألقَى بنفسه في مواقف الأخْطَار ، وفعل فعالاً تُدهش الأبْصَار، وتُحيِّر العقُول والأفْكَار، فلو رآه الاسْكَنْدَر أو رَمْسيس الأكْبَر في ذلك اليوم المُنكَر وهو يخُوض معركة القتال، ويبري بحُسامه جَماجم الأبْطَال [لـ][1] تعلَّما منه فنُون الحَرب، ومواقع الطَّعن والضَّرب، أو زيد الخَيْل وعَامر بن

[1] زيادة اقتضاها السياق.

الطُّفيل لانْذَهَلا انْدهَاشاً، وخافا وارْتعشا، وقبَّلا رجله فـــي الرِّكـــاب، وذلاً بعد ما خَضَعت لهُما الرُّؤوس والرِّقاب.

شعر :-

/[٥٥٦] قرمٌ تذيب العِدى رُعباً مَهَابتـــه إذا انْتَضَى يوم حَربٍ صَارماً ذَكَرا

قاد المَنايا لـــه جيـــشاً وكـــرٌ علـــى جَيْشِ الأعادي بطعنٍ يسبقُ القَدرا

وما زالوا في قتال واشْتباك حتى تَزعزَعت فرقة الأتْـــراك من هول الصِّدام وشدَّة العِراك، فنكصَت إلى الوراء، وطلبت جوانـــب الصَّحراء، فلما رأى مُحمَّد باشا تلك العبر، وأن ذلك القائد قد انْكسر ؛ خاف من الهَزيمة التي عاقبتها ذميمة، فأمر محمد باشا الكريتلـــي – وكان من الشُّجعان – أن يتقدم بآلايَيْن من الفُرسان، ويقْتَحم مواكـــب الأعْداء من الجَانب الأيْسر، بينما يهجُم هو عليهم بقلب العَسكر مـــن الطَّرف الآخر، فيأخذُوهم من الجَانبين، ويحصرُوهم بـــين النَّـــارين، فامْتَثل ما أُمر، وحَمل هو بباقي /[٥٥٧] الزُّمر، فـــأدْرك إبـــراهيم باشـــا بفراسته وذَكائه حَركة جيْش أعْدائه ؛ لأنَّـــه كـــان سَـــريع الإدْراك، صَادق النَّظر، يُبرم الرَّأي بسرعة تُحاكي لمْح البَصر، ولما علم ذلـــك حوَّل هيئة المَعركة على الصُّورة المُوافقة لدفع تلك الحركة، فأرْسَـــل فرقة مع حَسن بك المنسْترلي لمُقابلة مُحمَّد باشا الكريتلي، وانْعَطـــف هو بباقي العسكر على جيش مُحمد باشا السر عسكر.

وفي الحال الْتَحم القتال، واتَّـــسع بـــين الفـــريقين المَجـــال، وارْتَجَّت الأرْض من ضَجيج الأبْطَال، وأصوات البَارود التي كـــادت

تُزعزِع الجبال، فكانت ساعة تقشعرُّ منها الجلُود، وتشيب من هولهـا الأطْفَال في المهُود، وزُلزلت الأرض فيها زلزَالها، /٥٥٧ظ وأظْهَـرت القيامة أهْوَالها، وأبْصَرت الأبْطَال ما راعها وهَالها، فما كُنت تَـرى إلا فُرساناً مُشتبكَة، وصفُوفاً مُحتبكَة، ودماءً مُنسفكَة، وخيُولاً عَائرة، وأعْضَاءً مُتنَاثرة، ورؤُوساً طَائرة، وما زالت المُكافحة بينهم قائمـة، ونار البَارُود مُتصلة دائمة نحو ثلاث سَاعات من النَّهار، وهـم فـي قتال أشد من لَهيب النَّار.

وكانت قد كلَّت جمُوع مُحمَّد باشا، وذهب عزْمُها وتَلاشَـى، وزادها الخوف رُعباً وارْتعاشاً، فتَقهقَـرت فُرسـانها، وتزعْزعَـت واختل عِقْدُ نظامها، وتضَعْضَعت ويَئست من بلُوغ الأرب، وأيْقَنـت بالهَلاك والعَطَب، ونَعَى فوق رُؤوسها نَاعي الويْل والحَرَب، فلم يعُـد يُمكنها الاصْطبار، /٥٥٨و ولم تجد سَبيلاً لها إلا الفرار، فألقت رَاياتهـا وبيارقها، ونكَّست أعْلامها وسَـناجقها، وانْهزمـت علـى أعْقَابهـا، وتركت جميع أسْلابها، وتفرَّقت في عرض الفَلاة وهـي لا تُـصدِّق بالنَّجاة خوفاً ممَّا دهَاها، وقد تخـضَّبت الأرض بـدماها، وامْـتَلأت بجُثَث قَتْلاها.

وتبعها المصريُّون على الأثَر، وكللهم تَتَـساقط فـي أقْفِيتهـا كالمَطر، وكان قد قُتل منها على ما قيل أوفى من ألفَين قتيـل، ومـن المصريِّين نحو مائة وخَمْسين، وألوى مُحمَّد باشـا هاربـاً، وللنَّجـاة طالباً قاصداً مدينة حَلب الشَّهباء، وتبعهُ أكْثَر القوَّاد والوُزراء، ما عدا

مُحمَّد باشا البيرقدار، فإنه ولّى الأدْبَار وفر طالباً حُسين باشا السَّردار، /٥٥٨ظ ليُعلمه بتلك الكَسرة، ويلتمس منه النَّجدة والنُّصرة، وهو لا يُصدِّق بالنَّجاة خوفاً مما دهَاه، ومن شدَّة ما حصل عنده من الخَوف العظيم كان كثيراً ما يقُول "هي كدي أسْلان إبراهيم"، واستحْوز إبراهيم باشا على مُهمَّاته وذَخَائره، وفرَّق غَنائمه على ضبَّاطه وعَساكره، واستَولى على حِمْص وحَمَاة، وأقام فيها الحُكَّام والوُلاة، وكان قد وقع في يده ألْفَان من الأسَارى بين عسكر نظاميَّة وأرناؤُط وهوَّارا[1]، فأعطاهُم الأمان، وعاملهم بالرِّفق والإحْسان، وأدخلهم بين جنُوده المصريَّة، وعيَّن لكل واحد منهم جَامِكيَّة، وكتب إلى أبيه بمصْر يُخبره بهذا النَّصر.

وكان حُسين باشا السَّردار الأكْرَم /٥٥٩و قد خرج من أنْطاكية بالجَيْش العَرمْرَم، طالباً حمص وحَماة، وهو يُجدُّ في قطع الفَلاة، وفي أثناء الطَّريق بلغته تلك الأخْبَار، وما حلَّ بعسكَره من الوبَال والدَّمار، فزاد به الغيظ والحَنق، واضْطَرب فُؤاده وخَفَق، وتأسَّف على ما جَرى، وارْتَد راجعاً إلى الورا ليجْمَع شمل العَسَاكر القَادمة، ويأخذ لنفسه الاحْتياطَات اللازمة.

وما زالت العَساكر في انْكسارها ساعية وراء وزيرها وسِردارها، وفي مقدِّمتها مُحمَّد باشا البيرقدار، وهو لا يعرف الليل

---

[1] كذا بالأصل.

من النُّهار، حتى التقى بحُسين باشا المُشار إليه فتقدَّم وسَلَّم عليه، وتمثَّل بين يَديه، وحدَّثه بذكر الخبر وما حَكم به القضا[1] والقدر /٥٩ظ من انكسَار جنُوده، وتنكيس أعلامه وبنُوده، فظهرت على وجهه علامات الغَضب، وارتَبك في أمره واضطَرب، ومن شدَّة ما اعتَراه رفَسه برجله فألقاه على قَفاه بعد أن شَتمه وأهَانه، ونزع عنه سيفه ونيشَانه، ثم طَرده من أمامه ووكَّل به بعض خُدَّامه، فَخَرج من بين يديه وهو ينفُض غبار المَوت عن مَنكبيه، وحَسِبَ تلك الإهَانة سعادةً له وافتخاراً، لأنه كان قد شَاهد المنيَّة جهاراً.

وكان حُسيْن باشا لما وصَل إلى الجسر الحَديد خيَّم في تلك المَهامة والبيد، وهو مكان واسع الجَنبات يبعد عن أنْطاكية أربَع ساعات، /٦٠و وهناك شمَّر ساعد العَزيمة، وجمع ما تشتَّت من جنُوده بعد تلك الهَزيمة، ثم تجهَّز وارتَحل وسار على عجل قاصداً مدينة حلب، وفي قلبه حر اللهب من شدَّة الغيْظ والغَضب، فالتقى بواليها قرب المدينة وهو في حالة حزينة، فأعلمه مُحمَّد باشا بواقعة الحال، وما أصاب عسكره من النَّكال، فازداد حنقاً على حَنق وقلقاً على قَلق، وعند وصُوله إلى حلب الشَّهباء عقد مجلساً حربياً مع الأعيَان والعُلماء، وبعد جلسة طويلة ومفاوضة مُستطيلة طلب منهم أن يمدُّوه بالذَّخائر والعدد، ويقدِّموا له عَسكراً من أبناء البلد، فلم يُوافقه على ذلك أحد من المَشَايخ وأكابر /٦٠ظ العُمد لأنَّ نفُوسهم كانت غير مائلة إليه، ولا مُؤمِّلة على حصُول النَّصر على يديه، بل كانوا يُحاولون

---

[1] كذا بالأصل.

الخُروج من قَبضة الدَّولة العليَّة، والدُّخول تحت طاعة الحُكومة الخديويَّة.

فلما يَئس من النَّجدة والمعُونة عزم على المَسير إلى الإسكندرُونة[1] ليُقيم فيها الحَواجز والقلاع، ويجعلها حصن الوقايَة والدِّفاع، نظراً لحُسن مراكزها الطَّبيعية، ولكونها من الأسَاكل البَحريَّة، لأنَّه كان ينتظر ورُود المَدد إلى ذلك البلد، ومما يستحقُّ الاعتبَار أنَّ هذا السِّردار كان قد اجتمع في ذلك النَّهار مع موسيُو دوريكلو قُنسل[2] فرنسَا، وكان من أشْهَر النَّاس لُطْفاً وأُنْسَاً، فأخذ يُحادثه /٦١و بالكلام، ويسأله عن حواصِل برِّ الشَّام، وعن أسْعَار الحرير والحنطة والشَّعير، وغير ذلك من المَسائل التي ليس تحتها طَائل، وفي أثناء خطابه دخل عليه أحد حُجَّابه وأخبَره أن جَواده الأشْهَب لم يكن يريد أن يَشْرَب، فنظر إليه بعين الاحْتِقار وأجابه بألفاظ دالة على الكِبْرِيَاء والفخار، وقال : "دَعْهُ إنَّه لا يَشْرَب إلا من مَاء النِّيل، ولا يرتوي إلا من ذاك السَّلسَبيل"، ثم وثب قائماً على قَدميه وخرج من عند القُنسُل[3] المُومَأ إليه وبات تلك الليلة في المُعسكَر وهو في خوف وحَذر.

---

(١) الاسكندرونة "Iskenderun" ميناء ومدينة ساحلية تقع على شاطئ البحر المتوسط وتطل على رأس الخليج الذي يعرف باسمها، اسسها الاسكندر المقدوني ومنه اتخذت اسمها، وهي الآن على خط الحدود التركية السورية تحت السيادة التركية وإن كانت سورية لا تزال تطالب بضمها إليها.

(٢) كذا بالأصل، والصواب "قنصل".

(٣) كذا بالأصل.

وفي الغد بلغته الأخْبَار بقرب وصُول ذلك الجبَّار، والليث الباسل القهَّار إلى /٦١ظ تلك الديار بالعساكر المصريَّة، والفُرسان الجهادية، فخفق قلبه وزاد خوفه ورُعبه، ولم يعد يُمكنه إلا الانْصراف والرَّحيل من تلك الأطْراف، فقسَّم جيشه إلى قسمين، وأرسله إلى الإسْكَنْدَرُونَة على طريقين الأوَّل سار على طريق كلِس[1] وبيلان[2]، وسار هو في الثاني بباقي الجيش والفُرسان قاصداً تلك الناحية على طريق أنطاكية، وتبعه والي حلب ووالي الشَّام، وجميع الباشَاوات الفخام، وعند وصُوله إلى الإسْكَندرُونة وجدها مشحُونةً بالذَّخائر والمؤونَة التي كان قد أرْسَلها إلى ذلك المكان خليل باشا باش قُبُطان في جُملة سُفن وسقيَّة مُغفرة /٦٢و ببعض البَوارج الحربيَّة، فأقام بجيْشه فيها، وخيَّم في نواحيهَا.

هذا ما كان من أمر السِّردار الأكْرَم، وأما إبراهيم باشا الأسَد الغَشَمْشَم ؛ فإنَّه بعد أن انْتَصر وغَلب، وبلغ من عدوِّه القَصْد والأرَب سار طالباً مدينة حَلب على طريق تلِّ السُّلطان ومعرَّة النُّعمان، وكان وصُوله إليها بالعَسكر في اليوم الثَّامن عشر من شهر صفر سنة ١٢٤٨ هجريَّة، المُوافقة لسبعة عشر تمُّوز سنة ١٨٣٢ مسيحيَّة، وذلك بعد خروج حُسين من المدينة بيومين، فاستَقبله أهلها بالتَّفخيم ودخلها بموكبٍ عظيم، وكان أوَّل من ورد إليه للتَّهنئة والسَّلام

---

(١) كلس "Kilis" إحدى المدن التركية، تقع على الحدود السورية التركية اليوم إلى الشرق من جبل الكرد وجنوب عينتاب.

(٢) بيلان منطقة مرتفعات وعرة تمثل المدخل الطبيعي للأناضول، تقع إلى الجنوب من الاسكندرونة، وبها الممر المعروف باسمها والذي سيسهب المؤلف في وصفه لاحقاً.

قَنَاسل[1] الدُّول العظَام، ثم /٦٢ظ جَاء القاضي والمُفتي وأعيان البلـد، وباقي الوجُوه والعُمد الذين عليهم المُعتَمد، فدخلُوا وسلَّموا عليه وألقَوا أزمَّة أمُورهم بين يديه، فأعطَاهم الأمان وعاملهم بـالحلم والرِّفـق، وأحْسَن إليهم كما أحسن إلى أهل دمشق، وفي أيَّام قلائل وردت إليـه الكُتب والرَّسائل من وُلاة الأقْطَار وحُكَّام المُدن والأمْصار التي فـي تلك الجِوار يهنُّون بذلك الانتصَار، ويلتمسُون من حضرته الـدُّخُول في حِمى دَولَته.

وبعد أن نظَّم أحْكَام المدينة على أحسن الأسَاسَات المَتينـة، وأذْعنت لطَاعته جميع الولايات الكَائنة في تلك الجهَات كـديار بكـرٍ ونواحيها وأورفا[2] وما يليها ؛ نَصَّب بها الـوُلاة والمُتـسلِّمين مـن خُواص قوَّاده المشهُورين /٦٣و لتقُوم بأشغالها وتدبير أعْمَالهـا، ثـم تجهَّز للارْتحَال ونهض بالرِّجال والأبْطَال للقاء حُسين باشا وقتالـه، مُستعيناً بالله على حَربه ونزاله، قاصداً الإسْكَندرُونة من غير تـوانٍ على طريق قرية بيلان، حيث لم يكن له طريق آخر إلا مـن ذلـك المَكان، وكان خرُوجه من حلَب بالعَسْكَر في اليوم السَّابع والعـشرين من صَفر، فوصل إلى حضيض بيلان بالجَحْفَل، في اليوم الثَّاني مـن ربيع الأوَّل، وهى قرية جميلة البُنيان، رفيعة الجُدران، مبنيَّـة علـى ذُروة جبلٍ شامخ، تبعد عن الإسْكَنْدرُونَة نحو ثلاثة فَراسخ، فتجمَّعت

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) أورفا "Edessa" أو "أرهائي" بالارمنية ومنه اشتق اسمها العربي "الرها" إحـدى أكبر مدن الجزيرة وقصبة إمارة عرفت بالاسم نفسه زمن الحروب الـصليبية، وهي الآن مدينة تركية تقع في الوسط بين ماردين وعينتاب على مقربة مـن خط الحدود التركية السورية.

العساكر في تلك النَّاحية، وانتشرت في السَّهل الواقع شمالي طريقي كلس وأنْطاكية، وهذان /٦٣ظ الطَّريقان يلتقيان عند حضيض بيلان، ومن هناك يُصبح الطريق واحد للطَّارق والوَافد، وهو ضيِّق المجَّال على الخَيْل والرِّجال.

وكان حُسين باشا عند مرُوره ببيلان [قد][1] أقام فيها ستَّة عشر ألفاً من الرجَّالة والفُرسان ؛ ليقطع على إبراهيم باشا مَنافذ طريقها بإقامة الحَواجز عند باب مضيقها، بحيث كان يستطيع بألف مُقاتل أن يدفع عشرين ألف بَطل باسل بالنسبة إلى مَركزها الشَّاهق، ومجال مَسْلَكها المُتضايق.

فلما أقْبل إبراهيم باشا إليها وأشرف بجيشه عليها وجدها مشحُونةً بالعَساكر والمؤُونة، فبادر إلى الحَرب واستعدَّ للطَّعن والضَّرب، فقسَّم جيْشَه إلى عدَّة أقْسَام، /٦٤و وأقام كل قسم في مقام، ورتب صفُوف طَوابيه مُحكمةً على جيُوش أعَاديه، وكان قلب جيش الأتْرَاك ضابطاً رأس المَضيق على تلٍ هُناك وهو مُمتد ومُنْتَشر على شكل خطٍ مُنكسر، وموزَّع على ثلاثة باشَاوات، ومُؤلَّف من عدة طوابير وآلايات مُمْتدة من أسفل الطَّريق إلى رأس المَضيق، ومن جانبه الأيْمَن والأيْسَر كانت الطُّوبجية وباقي العَسْكَر.

ولمَّا اختبر إبراهيم باشا مراكز الجيُوش العُثمانية، وعرف حركاتهم الحَربية، أمر الآلاي الثَّامن والثَّامن عَشر من الرجَّالة،

---

[1] زيادة اقتضاها السياق.

وآلاي الحَرس - ذوي السَّطوة والبَسالة - أن يسيروا عن[1] طريق كلّس بالعجل، ويصعدُوا إلى ذُروة الجَبل، ويهجمُوا على مَيْسرة العَدو من /٦٦٤ظ غير توانٍ ولا هُدو، فامتثلُوا أمره السّامي المُطاع، وسَاروا على قدم الإسْراع، قاصدين أعدائهم كضَواري السِّباع.

ثم تقدَّم بعدهم على الأثَر بأمر القائد الأكبر الآلاي الثَّالث عشر من مُشاة العَسكَر تحت قيادة الشُّجاع المشهُور، والفَارس المذكُور، صاحب القدر العليّ حسن بك المنسترلي، فسار كالبَرق مُسرعاً وبمعيَّته اثنا عَشر مدفعاً قاصداً ساحة الهيْجاء والهجُوم على مَيْمَنة الأعداء من الجهة الثَّانية المعرُوفة بطريق أنطاكية.

وكان إبراهيم باشا - ليثُ الطِّراد وسيفُ الجهاد - قد أقام عن يمين ويسار فم الواد فرقاً من خيَّالة الأجْنَاد لتعضُّد العساكر إذا ظفرُوا، وترُدَّ /٦٦٥و العدو عنهم إذا انْكَسروا، واستوى هو بنفسه لهم قائداً، ومراقباً حركاتهم ومُساعداً، فلما رأت العَسَاكر السُّلطانية تقدم الجيُوش المصريَّة وهي صَاعدة إليها، ومُشرفة عليها من اليمين والشِّمال - كأنها أسُود الدِّحال - أطلقت عليها المدافع من الجَانبين، المُحكمة على الطَّريقين المذكُورين، فعند ذلك أمر إبراهيم باشا - فارس الوقائع - بهجُوم العساكر وإطلاق المدافع، فأُطلقت المدافع والبَواريد، وتسابقت العساكر إلى الحَرب بقلوبٍ أقوى من الحديد، فاشتبك من الجانبين القتال، واصْطَدمت الرِّجال بالرجال، وارتفع العُجاج وعظمت الأهْوَال، وسالت الدِّماء في ميْدَان النِّزال، /٦٦٥ظ

---

[1] كذا بالأصل، ولعله أراد "على".

وماجَت الخيل بركُابها كما يمُوج البَحر إذا لعبت به ريـــحُ الـــشَّمال، وكانت لهم ساعة من ساعات القيامة قد امتلأت من الأهوَال، وخلـــت من السَّلامة لأن أصوات المدافع وضجيج الأبْطَال كان يُطبق الأوْدِية والجبال، وضرب السيُوف وطعن النِّصال كان يذهل العقُول ويُـــشيب الأطْفَال، ومازالوا في الكفاح والجهاد والنِّزال والطِّراد حتـــى أمْـــسَى المكان كأنه مُحاط بمائة بُركان تتقذف منها النِّيران والدُّخان.

وكانت من ابتدا[1] المَوقف نيران الفريقين غيـــر مُنقطعـــة، غير أن المصريِّين كانُوا في الحرب أكثر انْتظامـــاً وأخـــف حَركـــة، وأشد الْتحَاماً، فكانت سُرعتهم في إطْلاق البنادق والمَدافع /٦٦و تَسبق وميض البَرق اللاَّمع، وكان كل فرد منهم على التَّقريـــب والتَّعـــديل يُقاتل أربعة من الأتْراك على القَليل، ومع ذلك لا يبالُون بـــالبَلاء ولا يهابُون كثرة الأعْداء، بل فضلُوا أن يمُوتوا أمام قائدهم البَطل على أن يرجعُوا بالخيبة والفَشل، واستمرَّ القتَال على هذا المنْوَال من العـــصر إلى بعد غروب الشَّمس، وكانت قد كلَّت جيُوش الأتْراك وقُتل منهـــا أوْفَى من ألفين وخُمسمائة نفس، فعند ذلك اخْتلَّ نظامُها، وتزعْزَعـــت عن المُقام أقْدامها، فتمزَّقت صفُوفها كل مُمَـــزَّق، وتـــشتَّت شَـــملها وتفرَّق، وولَّت على أدبَارها نفُوراً، وكان أمر الله قدراً مقدُوراً، ولـــم يُفقد من المصريِّين غير مائة وعشرين، /٦٦ظ واسْـــتَولى المـــصريُّون على مُهمَّاتها ومدافعها وذخائرها وجَبخاناتها، وباتُوا في تلك الأرض ظافرين غَانمين، شاكرين لله ربِّ العَالمين على هذا النَّصر المُبـــين، والنَّهج المُستبين.

---

[1] كذا بالأصل.

وعند طلُوع الصبَّاح أرسل إبراهيم باشا - ليثُ الكفاح - عبَّاس باشا إلى الإسكَنْدرونة بالعجل، في ستة آلاف بطل من خيَّالة النِّظام وعرب الهَنادي ليَقْتَفي أثر الأعَادي، ومن الأمُور العَجيبة والحَوادث الغريبة أن حُسين باشا قبل أن تصل إليه أخبار الهزيمة كان موجُوداً في دار مُوسيو مارتِينلي قُنسل[1] دولة فرانسا[2] الفَخيمة، فبينما هو في شُرب مُدام، وسمَاع أصواتٍ وأنغام إذ بلغه هذا الخَبر، وما حلَّ بعسكَره من العِبر، فاستَعظم /٦٧و المُصَاب، وخرج عن دائرة الصَّواب، فألقى من يده كأس الشُّراب، ونهض في عاجل الحَال بباقي الرِّجال والأبْطَال، طالباً الهَزيمة والفرار، خوفاً من الهَلاك والدَّمار.

وعند وصُول عبَّاس باشا إلى البلد وجده مشحُوناً بالذَّخائر والعدد، فبادر إليها وحَجز عليها، ثم لحق من هناك بجيُوش الأتراك حتى وصل إلى أدنة[3] وتلك الأطْراف، فأسَر منهم نحو ثلاثة آلاف، وعاد غانماً موفُوراً، وظافراً منصُوراً، وكان حُسين باشا قد أسْرَع في الهَزيمة إلى أن وصل إلى قُونيَّة بعد مَشقَّة عَظيمة، ومَخاوف جَسيمَة، وهو في حالة الذُّل والخَيْبَة بعد تلك العَظمة والهَيْبة.

وأما إبراهيم باشا - أسد الأسَاد، وسيف الجهَاد - فبعد أن بلغ من /٦٧ظ عدوّه الأرب عاد راجعاً إلى حَلب ليدبِّر أحوَال الولاية،

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) كذا بالأصل.

(٣) أدنة "Adana" أو "أضنة" وترسم أيضا "أذنة"، مدينة تقع جنوب تركيا اليوم بالقرب من رأس خليج الاسكندرونة وإلى الشرق من طرسوس.

شاكراً لله على هذه العناية، الذي قَضى له بالنَّصر في مقدُوره، وبالعزّ والسَّعد في تصَاريف أمُوره، وأنشد بعض شُعراء العَصر في ذلك النَّصر :-

من مُبلِّغ الأتْراك أنَّ جيُوشَهم كُسِرت وأن حُسَيْنَهم ولَّى إلى

هل يَغلب الأسد المُجرَّب ثعلبٌ مهما استَعان بمكْره وتحيُّلا ؟!(١)

وبعد أن انْتَصر إبراهيم باشا في بيلان، وشاع خبر ذلك الانْتصَار في عربستان، التقت العمَارة المصريَّة بعمارة السُّلطان بين رُودس وجزيرة قُبرص، فصار عُثمان بك نُور الدِّين – قائد العمارة المصريَّة – يُطارد خليل باشا قائد العمَارة العُثمانيَّة من دون أن يُحاربه أو يُهاجمه ويُضاربه، مع أنَّه كان /٦٨و مأذُوناً من الحَضْرة الخديويَّة أن يضْرب العِمارة السُّلطانيَّة، ولكنه اكْتَفى بحصر خليل باشا باش قُبُطان في خليج مَرمريس بشواطئ القرمان.

حرب قونيَة(٢)

فلما بلغ الدولة العليَّة تقدم العَساكر المصريَّة، وانْكِسار الجيُوش السُّلطانية اضْطَربت قلقاً واسْتشَاطت غيْظاً وحَنقاً، فعزلت حُسين باشا السِّردار الأكْرم، وعيَّنت رشيد باشا الصَّدر الأعْظَم ليسير

(١) الأبيات للشيخ أمين الجندي وسيورد المؤلف لاحقاً شطراً كبيراً من قصيدته في مدح إبراهيم باشا، انظر ص ١٥٣.

(٢) قونية "Konia" كبرى مدن آسيا الصغرى، تقع إلى الجنوب من أنقرة، اشتق اسمها العربي من اسمها خلال العصر الروماني والبيزنطي "Iconium " وهي تضم قبر مولانا جلال الدين الرومي الذي تنسب اليه الطريقة المولوية.

إلى ذلك الطَّرف، ويستدرك ما سلف قبل أن يعظُم الأمر ويشْتد، وينفتح عليها باب لا يُسد.

وكان هذا الوزير من الأفْرَاد المَشاهير، موصُوفاً بحُسن الرَّأي والتَّدبير، وموثُوقاً به في التَّقديم /[٦٨ظ] والتَّأخير، فأخذ من يومه في الاستعداد، وكتب إلي قوَّاد البلاد يأمرهم بتجهيز العَساكر والأجْنَاد، فتبادرت الجيُوش إليه، وتتابعت من كل جَانب عليه.

هذا ما كان من أمر الدَّولة وأمَّا إبراهيم باشا - صاحب الشَّوكة والصَّولة - فإنه بعد هذا الانْتصَار مازال سَاهراً آناء الليل وأطْراف النَّهار لجهة تثبيت فتُوحَاته في تلك الدِّيار التى نالها بسيفه البتَّار، وبينما كانت الدَّولة العليَّة مُنهمكةً في الاسْتعدادات الحربيَّة كان هو أيضاً آخذاً في التقدم نحو القُسطنْطينيَّة، وفي ١٥ ربيع الأول و ١١ آب من السَّنة المذكُورَة، سار من حَلب إلى أدنة بالعَساكر المنصُورة، وكانت قد سلَّمت له مع كل /[٦٩و] قضائها، فخيَّم بجيْشه حول أرْجائها مُنتظراً الأوامر الخِديويَّة، وما صمَّمت عليه الدولة العُثمانيَّة، إما للسِّلم والمُصالحة، وإما للحَرب والمُكافحَة.

وكان جناب الخِديوي الأعْظَم بعد أن انْتصَرت أعْلامه في المَعركتين الأخيرتين - كما تقدَّم - لم يَستول عليه التَّعاظُم والافْتخار، ولم تأخذه عزَّة الفَوز والانْتصار الذي من دأبه أن يطمح بأصْحابه إلى التِّيه والكِبر، والتجبُّر والفخر، بل كان بعكس الأمر يودُّ بتَّ الخِلاف، وحَسم الفتن وتلافيها بالتي هى أحْسَن، والاقْتناع بما فتحهُ سيفَه البتَّار وساعدته عليه يد الأقْدار، مع أنَّه كان قادراً بعد أن

كسر جيشاً وافراً، وبدَّد شمله /٦٩ظ وهزمه ومزَّقهُ وحطَّمه أن يتقدم مُغتنماً فُرصة انتصاره، وضعف قوة عدوه وانكساره بعد مَوقعتين هائلتين، وهزيمتين مُتواليتين على افتتاح القُسطنطينيَّة، والاستيلاء على تخت السُّلطة العُثمانيَّة، ولكنَّه كما تقدَّم الكلام كان يُؤثر الصُّلح والسَّلام على النِّزاع والخصَام والحَرب والصِّدام.

واتَّفق في تلك الأيَّام أن الجريدة السُّلطانية في الأستانة العليَّة قد نشرت مقالة رسميَّة في حقِّ الحَضرة الخديوية وولدها إبراهيم باشا - صاحب المَآثر السنيَّة - مشحُونةً بالقذف والافتراء الكَاذب، ونسبت إليهما من الكَبائر والمَعائب ما تمجُّهُ نفس السَّامع، وتستَنكف /٧٠د منه المسَامع، وليس لتلك اليد البيْضَاء الطَّاهرة - التى حرَّرت ديار مصر من أيدي المَماليك الفاجرة، وأعادت إليها شَبابها القديم بعد أن كانت عجوزاً عقيم - أن تصبر على ذلك التَّشنيع والتَّقذيف، وما رُشقت به من سهام اللَّوم والتَّعنيف بعد أن كانت أعْلامها مُنتشرة ظَافرة، ورايَاتها في قلب بلاد الدولة بأجْنحة النَّجاح طَائرة، ولم تجد بُدَّاً من أن تتدرَّع بدرع العَدالة والاستقامة، وتستَتر بخوذة الحقِّ لتدفع ما صُوِّب نحوها من سهَام المَلامة، فنشرت جريدتها المصريَّة في ١٧ ربيع الأوَّل سنة ١٢٤٨ هجريَّة، المُوافقة ١٣ آب سنة ١٨٣٢ مسيحيَّة ما يأتي :-

/٧٠ظ "إنا نتعجَّب من تلك اليَد التي سوَّدت تلك الأسْطُر المشحُونة بالافتراء الكَاذب على الحكُومة المصريَّة الخديويَّة، ذات المقاصد الخيْريَّة لنحو الأعْتاب السُّلطانيَّة، التي ظنَّ صاحبها أن كثرة الكَلام تُرخص البضَاعة فسقَط سهْمه دون

الغرض، فمثلاً قال :- "أن تجريدتنا على عكّا لم تكـــن إلا نتيجة أحقادٍ خصوصيّة بين الحكومة الخديويّة وعبد الله باشا، وانه بعد أن أخذنا عكّاء وأسَرنا صـــاحبها عبـــد الله باشـــا المذكور نكون قد وصلنا إلى ما طالما صَبوْنا إليه، ولكن الآن قد ظَهر جليّاً أن ذلك لم يكن غَايتنا فقط".

ولكن نحن نقول كما قد قُلنا أنه قد أخطأ سَهم ذلك المُفتري لأنّه أمرٌ معلوم، وواضح كالشّمس في رابعة /٧١د النّهار ألّنا قبل أن نُجرِّد تَجْريدتنا على عكّاء طلبنا أكثر من مـــرّة إلى الباب العَالي نلتمس منه أن يخلع عبد الله باشا الذي جَحـــد جميل صَنيعنا عن مَنصبه، وأن يُسمّي والياً آخر مَكانه، وبيّنّا مقصدنا من هذا القَبيل بأنّه إن لم يُجب الباب العَالي طَلبنـــا نضطر إلى إشهار السّلاح ضد المذكور، ولكن عِوضاً عن أن يُلبّي استدعائنا فما كان منه إلا أنه جعل يُحرِّض عبـــد الله باشا مُصراً على الافتراء والاستِهزاء بنا تحت دعاوٍ عريـــضة سُخرية، وكل مَشْرُوعاتنا ومساعينا لدى البَاب العالي ذهبت بدون أن تأتينا بنتيجَة، ولم نجد من ذلك إلا أجوبة مُبهمَـــة، وأخيراً نقول أن البَاب العَالي نفسه هو الذي - بتصرُّفه الغير /٧١ظ الشّرعي - حَملنا على أن نُجرد جيْشنا على سُوريّة، وهو الذي حملنا أيضاً على أن نتقدّم أكثَر فأكثَر في بـــلاده عندما بَلغَنا أنه آخذٌ في تجريد جيشٍ قدرُه ستُّون ألفاً تحـــت قيادة حُسين باشا، وبتسيير عمَارة بحريّة عظيمة لكي يُوقع بنا برّاً وبحراً، فإذا نسأل ما هو قَصْد تلك الجريدة التي نـــشرت

تلك الجُملة المشحُونة بالقــذف والافتــراء إلا أن تغــشّ الجمهور بأقاويلها الكَاذبة ؟!، ولكنّا نقُول ما أبعَد ذلك عن أن يُخيف الحُكومة الخديوية المِصريّة.

والآن فقد اتّسع الخَرق على الرّاقع، ولم تعد مُداواة الجرح من الأمُور السّهلة ؛ لأن صَدى انتصار أسـلحتنا لم يـزل يدوّي بعد في كل شعبٍ وواد، ومن يا ترى يشكّ /[٧٢و] ان الذين أرادُوا أن يُضرُّوا بالحكُومة الخديويّة إنما جلبُوا علـى هامتهم ما دبّرُوه لغيرهم، وقد سقطُوا في نفس الفخّ الـذي نصبُوه لنا، وما أحْسَن قول الشّاعر :-

ومن يحفر بئـراً ليُوقـع غيْـره ... سيُوقع يوماً في الـذي هُـو حـافره

قضى الله أن البَغي يصرعُ أهلـهُ ... وأن على البَـاغي تـدُور الـدّوائر

هذا ولنرجع إلى موضُوع كلامنا فنقول أن الحضرة الخديوية مع ما نَشرته في جريدتها الرّسمية لم تنْو إلا بثّ الخلاف والـشّقاق، وعقد الصلح والوفاق، وكانت تؤمّل أن فوز أسلحتها وانتصار أبطالها يحمل الدولة [على][1] أن تكفّ عن حربها وقتَالها، ولكن الدّولة بعـد موقعتي حِمص وبيلان لم تطلب عقد الصلح، أو فتح المُخابرة بهـذا الشّأن، بل كانت آخذة فـي الاسـتعدادات، /[٧٢ظ] وتجهيـز العَـساكر والمُهمّات، طلباً لأخذ الثّار، وطمعاً في الفـوز والانْتـصار، وأمّـا الخديويّ المُشار إليه فلمّا علم بتجهيزات الدّولة، وما صمّمت عليه لم يجد بُدّاً من مُداومة القتَال، وتفويض الأمر إلى حُكم حدُود النّصَال.

---

[1] زيادة اقتضاها السياق.

وكانت الحكُومة الخديويَّة قد استَحْصلت سنة ١٢٤٠هجريَّة المُوافقة لسنة ١٨٢٤ مسيحيَّة بمُوجب إرادة سنيَّة أن تضرب لها مُعاملة في الدِّيار المصرية، ففي خلال هذا الاختِلال والنِّزاع والجدَال صدرت الأوامر الخديويَّة بإبطال المُعاملة بالمصكُوكَات العُثمانيَّة في الدِّيار المصريَّة، ولما بلغ الدَّولة هذا الخَبر زادها كَدراً على كَدر.

وبينما كان الصَّدر الأعْظَم وباقي رُؤساء الدَّوائر يناظرُون تدبير /٧٣و الجيُوش وتجهيز العَسَاكر وإرسالها إلى قُونيَّة بالمُهمَّات والذَّخائر كان إبراهيم باشا عالماً بتجهيزاتهم، وعَارفاً بحقيقة حركاتهم، وكانت مدينة أدنة وتلك المَنازل والأمْكِنة التي أقام فيها وعَسكر في نواحيها لكي يحمي بلاد سُورية من مُهاجمة العساكر العُثمانية لا تصلُح لقيام حركة حربيَّة بالنسبة لمراكزها الطَّبيعيَّة، فأصبح مُضطَرَّاً إمَّا أن يتقهقر بالجيش والعسكر، ويستند إلى مكان آخر، أو أن يتوغَّل إلى قُدَّام ويُواظب على الحَرب والصِّدام، أما رجُوعه القَهقَرى وارتَداده إلى الوَرا لم يكن لائقاً برفيع مقَامه، بعد ذلك النَّصر الذي ناله بحُسَامه، وأما توغُّله في تلك البَيْدَاء واقْتحامه /٧٣ظ مواكب الأعداء وهو في عدد يَسير وهم في جمٍّ غفير [فـ][1]ـكان أمرا مُخطراً[2]، ولئن كان إذ ذاك مُنتصراً.

وإذ كان لا يسعه أن يَرجع ويعُود، ولا أن يُقيم في تلك الحدود صمَّم على التقدم نحو العَاصمة، ومُلاقاة الجيُوش القَادمة،

---

(1) زيادة اقتضاها السياق.

(2) كذا بالأصل، ولعله أراد "خطيراً".

واستَخار الله ربُّ العباد على صدق الجهَاد، وكانت الحَضرة الخديويَّة لمَّا بَلغها تَجهيزات الدولة العليَّة الجَارية في القُسطنطينيَّة، وبقُرب خروج الصَّدر الأعظم بذلك الجيش العَرمْرم، لم تجد بُداً من مُداومة القتَال لينتهي الحَال ويرتفع النِّزاع والجدال، إما بالانْتَصار التَّام أو بالانْكسَار والانْهزام، فأرسلت الأوامر والمَراسيم إلى ولدها إبراهيم أن يرحل من تلك البلاد، ويتقدم نحوَ /٧٤و قُونيَّة بالعساكر والأجْنَاد، ويباشر الحرب والجلاد.

وكان جنَاب المُشار إليه قبل ورود هذه الأوامر عليه مُستعدّاً للحَرب والقيَام، والتقدُّم إلى أمام كما تقدَّم الكَلام، وإذ كان لا يُمكنه تخلية البَلد خوفاً من سَطْوة العدوِّ إذا وفد ؛ أقام عبَّاس باشا فيه للمُحافظة والمُراقبة والمُلاحظة، وبعد ذلك تجهَّز وارتَحل في السَّابع عشر جماد الأول قاصداً قُونيَّة على عَجل، بعد أن أرسل جيش البَاش بُزق وبعض الفُرسان عن طريق مَنارة خَان، وسار هو بباقي الجيُوش النِّظامية، والمُهمَّات الحَربيَّة عن طريق طَرسُوس[1] وجبل طُورُوس[2].

---

(1) طرسوس "Tarse " أو "Tarssos" مدينة كبيرة تقع على نهر "قرة صو" وكانت قديما تابعة لولاية قليقية "Cilicie" وخلال العصر العثماني ضمت إداريا لأعمال ولاية اطنة "اذنة"، وينسب إليها "بولس الرسول" كما دفن فيها الخليفة المأمون عام ٢١٨هـ/٨٣٣م.

(2) جبل طوروس سلسلة جبال عظمى تتوسط هضبة الأناضول يبلغ ارتفاع أعلى قمة بها ٣٦٧٥ مترا تقريبا.

ولما بلغ طرسُوس النقى بعُثمان بك قائد العمَارة المصريَّة الذي كان بعد أن طارد /٧٤ظ العمَارة العُثمانية وحصرها في خليج مَرمَريس أياماً تخلَّصت، ولم يبلغ منها مَراماً سوى فُرقاطتين وكُوتر وإبْريقين - فقال له ألا تعلم أن تضييع فرصة الانْتِصار هي عندي من أعظَم الذُّنُوب الكبَار، وأنت قد قصَّرت في خدمتك، وتَوانيت في تنفيذ أوامر وليِّ نعمتك، الذي منه قد تكدَّرت أكثر مما لو حَاربت أنت وانكَسرت، وإنَّني لولا اعتبار حُرمة وليِّ النِّعم - جنَاب والدي المُعظَّم - لقطعت رَأسَك وأخْمدتُ أنْفَاسك.

ثم أنَّه بعد هذا الكلام والتَّوبيخ والمَلام سار بالعَساكر والجنُود حتى وصل إلى قرية نمرُود، فخيَّم في تلك الحدُود، وكان قد أرسل سريَّة من الجيوش النِّظامية فاستَولت /٧٥و على بُوغاز كولك، وهو معبرّ عَسِر المَسلك، وبافْتِتَاح هذا المَضيق تسهَّل للمَرجين الطَّريق، ولم يبْق عليهم سوى وادٍ آخر أصعب من الأول وأعْسَر، فبعث إبراهيم باشا طابُورين من العَسكَر لافتتاح ذلك المعبر تحت قيادة سَليم بك حِجَازي، وإبراهيم أغا الجُوخدار - وكانا من ذوي الشَّجاعة والاقْتِدار - ولمَّا اقتربُوا من فم الوادي التقتهم عَساكر الأعادي، وكانوا نحو ثلاثة آلاف قد كمنُوا في تلك الأطراف ليمنعُوا المصريِّين عن العبُور من ذلك المكان المذكُور، فبادر المصريُّون إليهم ونزلوا نزُول القضا[1] المُبرم عليهم، وألهبُوهم بضرب الرصَاص، وسدُّوا عليهم طرق الخَلاص، ولم تكن غير سَاعة من الزمان /٧٥ظ حتى أبلوهم بالويْل والهَوان، وشتَّتُوهم في الجبَال والودْيَان، واستَولُوا على ذلك المَكان.

---

[1] كذا بالأصل.

وبينما كان المصريُّون مُنتصرين في هذه الناحية كانت فرقة أخرى منهم قد انْتَصرت في جهة ثانية يقال لها أوغلو قَشلة[1]، انْفَشل فيها العدو أعظَم فشلة، ولما بلغ إبراهيم باشا هذا الخَبر نهض على الأثَر، وسار على عَجل حتى قَطع ذلك الجبل فعسكَر في سَهل هناك كانت قد أخْلتهُ جيُوش الأتْراك، فاستَقبله أهل تلك الدِّيار، وولاة هاتيك الأقْطَار وهنُّوه بذلك الفوز والانْتِصَار، فأعطَاهم الأمَان، وعاملهم بالرِّفق والإحْسَان.

وفي ١٠ جمادى الآخرة و٣ تشرين الثَّاني توجَّه من قبل الدَّولة بالجيش العُثماني دستُورها /٧٦و الأكْرَم مُحمَّد رشيد باشا الصَّدر الأعْظَم، فنزل المَرحلة الأولى في إسكُودار[2]، وفي الغد وجَّه عَساكره نحو قُونيَّة وسَار، وبعد خرُوجه بخمسة أيَّام صدرت من إبراهيم باشا الأوامر والأعلام آمراً عساكره بالاسْتِعداد والمَسير إلى قونيَّة لإقامة الحَرب والطِّراد، فجعل عساكره قسْمين، وسيَّرهما في طريقين مُختلفين، فلما اقترب من تلك الدِّيار اتصلت إليه الأخبار بأن أمين رءوُف باشا – مُعاون حرب الصَّدر الأعْظَم وزعيم الجيُوش التي كانت في قُونيَّة وقائدها المُكرَّم – قد أخْلى مدينة قُونيَّة، وجدَّ في المَسير قاصدا التحصُّن في أكْشَهير[3].

---

(١) أوغلو قشلة أو "أولو قشلة" إحدى المدن الصغيرة التي كانت تقع شرقي إيالة قرمان.

(٢) اسكودار "üskudar" الضاحية الشرقية من استانبول.

(٣) اكشهير أو أسكي شهر "Eskisehir" مدينة كبيرة تقع إلى الغرب من أنقرة.

فلمَّا علم إبراهيم باشا بهذا الخَبر سَبق عَسكره وجدَّ على الأثر فوصل إليها ليلاً في ٢٤ / و ١٧ من الشَّهرين المذكُورين، ودخلها دون حربٍ دخُول المُحَارب المنصُور.

وفي الغد أمر الآلاَي الرابع من الفُرسان وقسماً من العَرب الهنادي أن يتوجَّهُوا مُسرعين لمُطاردة الأعَادي، فجدُّوا في المَسير، واتبعوا الأعداء على طريق أكشهير، وفي قرب الكوين أدركُوا سَاقة الأعْداء، وأنزلوا بهم الويْل والبَلاء، فدمَّرُوهم تدميراً، وأسرُوا منهم نفراً يسيراً.

وكان إبراهيم باشا حال وصُوله إلى قُونية نزل في دار الولاية، وأخذ بإجْراء ما تقتضيه الحِكمة والدِّراية، فأمر بتحْصين المدينة وتحْويطها بالحَواجز المتينة، إذ لم يكن قد أخلاها الأتْراك إلا لكونها لا تصلُح لإقامة الحَرب والعِراك، ولمَّا وصل الصَّدر الأعْظَم إلى أكْشَهير وردت إليه /٧٧و أوامر الدَّولة أن يأخذ بأحْسَن الحَزم والتَّدبير، وينتهز تلك الفُرصة المُناسبة لإقامة المُكافحة والمُحاربة، وكان إبراهيم باشا – فارس المَيْدان، وليث الحرب والطِّعان – قد وجه مُحمَّد بك بفرقة من المُشاة والفُرسان ليأخذ له مَراكز في قَيْصَرية، ويراقب حركة الجيُوش العُثمانيَّة.

وكتب إلى إبراهيم باشا الصَّغير – الشُّجاع الشَّهير – أن يُلبِّي الطَّلب ويخْرُج من حَلب بفرقة من الأبطَال ومُشاة الرِّجال، ويمر بعيْن تاب، وينزل في شَمالي مَرعش[1] وتلك الرِّحاب ؛ حيثما يكُون

---

(١) مرعش إحدى المدن التركية الصغيرة تشكل رأس مثلث قاعدته عينتاب وأضنة ويعتقد الأثريون أنها مبنية على أطلال مدينة جرمانيسيا "Germanicia" القديمة.

أكثر مُوافقة للسُّطوة والإرْهَاب، وهكذا بهذه الحركة الحربيَّة، وقَى جناحيّ عَسكَره، وحَفظ أيضاً قُطر سُوريَّة، ولكن أضنَى جيْشَهُ العامل عدداً يسيراً /[ظ٧٧] أمام عدوّه الذي كان جمًّا غفيراً، فكان أمَامه حينئذ جيشٌ عظيم مُستندٌ إلى العَاصمة، ووراءه سُوريَّة مفتوحةً جديداً، وليس فيها قُوَّة تكفي لحفظها من المُهاجمة، وعلى يمينه عُثمان باشا والي طَرابزون[1] في سيوا بجمهُور وافر، وعلى يساره سُلَيْمَان باشا[2] في أضَاليا[3] مع عشرة آلاف من العساكر.

---

(١) طرابزون "Trabzon" مدينة ساحلية على البحر الأسود، وتمثل أكبر موانى تركيا حاليا على البحر الأسود.

(٢) الكلونيل سيف المعروف بسليمان باشا الفرنساوي، ولد عام ١٧٨٨ بمدينة ليون، التحق بالخدمة بالأسطول الفرنسي منذ صباه إلى أن تقاعد بعد خسارة فرنسا أمام الحلفاء في ووترلو برتبة كلونيل، حاول الاشتغال بالتجارة لكنه لم يفلح في ذلك وما لبث أن أصابه السأم من رتابة وخمول الحياة المدنية، فما أن سمع عن مشروعات محمد علي حتى سعى لدى الكونت دي سيجورا ليزكيه لديه في مصر، وأكرم الباشا وفادته وأناط به مهمة تكوين الأورطة الأولى من الضباط على "النظام الجديد" بجيشه فنجح في مهمته بعد جهد وعناء شديدين، وما لبث أن قربه نجاحه الكبير في تلك المهمة من الباشا فكافأه على ذلك بترقيته إلى رتبة اللواء، ثم رقي مرة أخرى بعد بلائه في حروب الشام والأناضول إلى رتبة رئيس أركان حرب الجيش مير ميران (تعادل "الفريق" أو "مارشال" في الرتب العسكرية المعمول بها حالياً) وفي عهد إبراهيم باشا عهد إليه بقيادة الجيش المصري وظل في منصبه في عهد سلفيه عباس وسعيد إلى أن توفي في ١١ مارس عام ١٨٦٠. انظر :-

عمر طوسون : الجيش المصري في عهد محمد علي، ص ص ١٠ – ١٥.

(٣) أضاليا أو أنتاليا "Antalya" مدينة ساحلية تقع على ساحل البحر المتوسط على رأس الخليج الذي يسمى باسمها.

وفي ١٨ كانُون الأول و ٢٦ رجب استعدَّ الصَّدر الأعظَم للحَرب وتأهَّب، فأمر وافي باشا أن يسير من غير تَوان ولا هُدوّ، وينزل على قرية سَلح بثمانية آلاف من الأرناؤُط، ويقاتل العدو، فأجاب وامتَثل، ونَهض على عجل، وكان إبراهيم باشا قد جعل فيها نحو ألفيّ نفر لتحميها من الأعدَاء وتقيها، وسار الصَّدر الأعظَم في طريق /٧٨و آخر بباقي الجيش والعَسكر.

وأما إبراهيم باشا – ليْث المَعارك – فحَالما علم بذلك سار بفرقة من المُشاة والأبطَال، قاصدا قرية سلح على قدم الاسْتِعجال ليُعضِّد من كان لهُ فيها من الرِّجال، وعند وصُوله إلى هناك التقى بجيش الأتْرَاك، وكان ذلك النَّهار كثير الغيُوم والثَّلوج والأمطَار، ولمَّا وقعت العين على العين اشْتَبكت الحرب بين الفَريقين، فما لبث الأرناؤُط ساعة حتى ولُّوا الأدبَار، وأركنُوا إلى الهزيمة والفرار، وتشتَّتُوا في تلك الاقْطَار بين الرَّوابي والقِفَار، فغنم منهم المصريُّون خمسة مَدافع، ومن الخيل عدداً كثيراً، وثمانية بَيَارق، وخُمسمائة وعشرين أسيراً.

وفي اليوم الثاني بلغ إبراهيم باشا أن قسماً من /٧٨ظ الجيش العُثماني يَنيف عن عَشْرَة آلاف عنان نازل في طُقوزلوخَان، وهو مكان واسع الجنبات يبعد عن قُونية ثلاث ساعات، فتأهَّب للحرب والطِّعان، وقصدهم من غير تَوان ومعه جيش الحرس، وثلاث آلايات من الفُرسان، وعند وصوله إليهم أطلق المدافع عليهم، فما لبثُوا أن وقعوا في الشَّتات، وتفرقوا في البَراري والفَلوات.

ورجع إبراهيم باشا ظافراً مُنتصراً بعد أن أسَر منهم مائة وخَمسين نفراً، فدخل المدينة بموكب عَظيم[1]، وعند دخوله سلَّم له نحو ستِّمائة من أرناؤط تلك الأقاليم، وطلبوا أن يَشْمَلهم بنظره، ويستخدمهم بين جُنده وعَسكَره، فتحقَّق بصدق نظره منهُم سلامة الطَّوية، وأرسلهم لينضمُّوا إلى فرقة مُحمَّد بك في قيْصَرية[2].

/٧٩و وفي الغد بلغ إبراهيم باشا أن الصَّدر الأعْظَم قد سار قاصداً من لاديك[3] بالجيش العَرمْرَم - وهي بلدة في تلك الجهات، تبعد عن قونيَّة ثماني ساعات - فوزَّع في الحال الأوامر على القوَّاد بأن يكونُوا في اليوم الثَّاني مُستعدِّين للحَرب والجلاد، وفي صباح الغد ورد إليه الخبر أن الصَّدر الأعْظَم قد وصل الى طقُوزلُوخَان[4] بالعَسكر، وعند الظُّهر اقترب الصَّدر المذكُور من قُونيَّة مركز العَساكر المصريَّة، فاتَّصل ذلك بإبراهيم باشا، فأخذ في الاسْتعدادات الحربيَّة، وفي الحال أمر عَسكَره بحمل السِّلاح، والتأهُّب للطِّراد والكفاح، فاستعد العسكر كما أمر، ووطَّن نفسه على المَوت أو الظَّفر، وكان ذلك يوم الجُمعة /٧٩ظ الواقع في ٢٩ رجب من سنة ١٢٤٨هجريَّة، الموافقة ٢١ كانُون الأوَّل سنة ١٨٣٢مسيحيَّة، فكان يوماً كثير الغيُوم والضَّباب بحيث كانت كثافة السَّحاب تمنع أحد الجيْشَين من أن يرى الآخر وهم في غاية الاقْتراب، غير أن المصريِّين بما قد مارسُوه قبلا من تواتُر العراك كانوا بمواقع الحرب

---

(1) قوله "فدخل المدينة بموكب عظيم" استدراك أثبته المؤلف أعلى السطر.

(2) قيصرية "Cèsarèe" إحدى كبريات مدن الأناضول تقع جنوب شرق أنقرة.

(3) لاديك مدينة كبيرة تقع على الطريق بين قونية واستانبول.

(4) تقع على طريق قونية لاديك على بعد ثلاث ساعات من قونية.

وأبوابها يَفْضِلُون على الأتْراك، إذ كانوا قد واظبُوا ميدان الحرب ودرسُوه، واكتسبُوا منه علماً بما مارسُوه، وأما الأتْراك فكانُوا يفضلون على المصريِّين بكثرة العدد، وما كانوا حاصلين عليه من الذَّخائر والمَدد.

فقسَّم إبراهيم باشا عَسْكَره إلى عدة أقسام، وأقام كل قسم في مقام، /٨٠و فجعل الآلاي الثَّالث عشر والثَّامن عشر - الذين لا يهابُون الموت ولا يخافُون من الخطر - على الخطِّ الأوَّل من يمين الجَحْفَل تحت قيادة صاحب القدر العليّ سليم بك المنسترلي، وعلى نحو مسافة خُمسمائة قدم من هذا الخط جعل سُليمان بك الفَرنساوي البارع بحركات الحَرب بالحزم والضَّبط ومعه الآلاي الثاني عشر والرَّابع عشر مُنظمين على هيئة ترجح لهم الفوز والظفر[1].

وهكذا كانت العساكر المصرية مُرتَّبة بعضها على شكل خطُوطٍ مُزدوجة مُرصَّعَة، وبعضها على شكل قلاع مُربَّعة، حتَّى كانوا من أي جهة أتاهم العدو يستطيعُون أن يلتقُوه بغاية الثبات والهدو[2]، وجعل سليم /٨٠ظ بك في القَلب ومعه صفُوفه المُزدوجَة، مُتأهِّبة لإضرَام نار الحَرب، وأقام للحَرس عن يمينه وشماله على

---

[1] شطب بالأصل، ومن الواضح أن المؤلف أثبت كلمة "الوطر" ثم شطبها وعدل عنها إلى الكلمة المثبتة أعلاه.

[2] اعتقد أن وصف المؤلف ينطبق على ذات التكتيك الذي واجه به ولجتون نابليون في ووترلو لتحييد سلاح فرسانه وحماية ظهر قواته من المشاة ذاتياً، وهو تشكيل دفاعي يصطف خلاله المشاة من رماة البنادق على هيئة مربع متساوي الأضلاع ذي خطوط مزدوجة من الجنود وبالتالي يضمن حماية ظهر المشاة من هجمات الفرسان المباغتة من أي جهة كما أنه يضمن في ذات الوقت كثافة نيرانية عالية.

نحو مائة وخمسين خطوة فرقتين من الخيَّالة ذوى البَسالة والسَّطوة، وكل واحدة من الفرقتين مُؤلَّفة من آلايين إحداهما تحت قيادة أحْمَد بك المِنكَلِي، والأخرى تحت لواء أحمد بك الإسلامبُولي، وجعل بين هاتين الفرقتين مزيد ارتباط، ورتَّبهُما مع جيْش الحَرس للاحتياط.

وإلى يمين ويسار وأمام الخط الأوَّل على نحو مائة وخمسين قدماً من مركز الحَجَل أقام ثلاث طَوابي من الطُّوبجية من ذوي النَّشاط والثَّبات، والدِّراية الحربيَّة، وكذلك /[٨١و] قدَّم من الطُّوبجية طَابيتين وجعلهما أمام الصَّف الثاني ثابتتين حيث كانتا مائلتين نحو القلب، قادرتين على المُحاماة والضَّرب، ووضع وراء قلب الحَرس على رؤس[١] صفوف الخيَّالة فرقة من الطُّوبجية ذوي الشَّجاعة والبسالة.

وفي طرف الجناح الأيمن وإلى الوراء اصطفت الدَّالاتية والبدو مُتهيِّئة للالتقاء، وجعل في جبل قرية سلح طَابُورين من قوَّاصة[٢] الأتراك الذين كانوا [قد][٣] سلَّموا طوْعاً، وانتظمُوا حديثاً للقتال والعراك، وكان الجيش مُستنداً إلى قونيَّة من وراه[٤]، وعن يمينه إلى الأمام أراضٍ مُستنقعة بالمياه، وعن يساره إلى الوراء قرية سلح ومُرتفعاتها العَوال، /[٨١ظ] وهي من هناك على مسافة ثلاثة أميال، وكان من قُدَّامه تلك الجبال التي تتصل بالسَّهل من جهة

---

[١] كذا بالأصل.

[٢] المقصود قناصة الأتراك.

[٣] زيادة اقتضاها السياق.

[٤] كذا بالأصل.

الشمال، وعند حضيض تلك الجبال جيُوش الأتراك مُغطَّاة بالـضبَّاب الكثيف مُستعدة للشِّباك والعـراك.

وأما جيش العدو فكان مُرتباً على أربعة صفُوف بحسب مـا هو بترتيب حركات الحَرب معرُوف، فكـان الأوَّل منهـا مُنتـشراً، والثَّلاثة الأخر مُتجمِّعة، وكانت فرقاً فرقاً على عدة باشَاوات مُوزَّعة، وكانت الطُّوبخَانة مُقسَّمة من مدفعين على كل طابُور، ومـن أربعـة على كل آلاي بالعد المحصُور.

وكان خَيْر الدِّين باشا على الجَناح الأيمن قد تصدَّر، وسَـعْد الله باشا على القَلب قد /٨٢و تأمَّر، والصَّدر الأعظم أخذ لنفسه قيـادة الجناح الأيْسَر، وكانت هذه الجيُوش مُستندة من الوَراء إلى الجبـال، وجانبها الأيْمَن إلى قرية سلح وتلك التلال، وإلى جانبـه[1] الأيـسر الأرض والسهل ذات الردغات والوحـل، وإلـى أمامـه[2] قُونيـة والعساكر المصريَّة، وطريق العاصمة بين الفريقين على السَّويَّة.

وكانت عساكر الأتْراك مؤلَّفة من ثلاثة وخمسين ألفاً وثلاثة وتسْعين مدفعاً من أجْزام مُختلفة، وكان الجيْش المصري خمسة عشر ألفاً غير زائد ومعهُ ستَّة وثلاثُون مدفعاً من جرم وقياس واحد، ولـم يكن قُدَّامهم سوى أمرين؛ إما الإقْدام /٨٢ظ والانْتصَار، وإما الانْهـزام والبوار.

---

(١) كذا، والصواب جانبها.

(٢) كذا، والصواب أمامها.

وكان الصَّدر الأعْظَم قد وطَّن نفسه على أن يذهب قتيلاً أو يرجع غالباً، وأقام أحْمَد فَوْزي باشا عنهُ نائباً حتى إذا اقْتَضى الحال لا يقع في العسكر اخْتلال، غير أنَّه لتراكم الضَّباب وتكاثف السحاب قد أقام الفريقان بُرهة من الزَّمان لا ينظر أحد منها الفريق الآخر، ولا يفعل أدْنَى حَركة بأن يتقدَّم أو يتأخَّر.

وعندما ظهر النُّور قليلاً، وأزال من الضَّباب ما كان حِجاباً ثقيلاً انطلقت أعْيُن الرِّجال والأبطال، ورأى الجيش المصري عدوَّه مُنتظماً على مَسافة ثلاثة أمْيال ؛ فأمر إبراهيم /٨٣و باشا الجناح الأيسر أن يلوي قليلاً إلى الوَراء ولكن بكل انْتظام بحيث لا تتمكَّن منهُم الأعْداء ؛ لأنه رأى أن مُعظم حَركتهم مُتَّجِهةً إلى نحو تلك الجهة، فاندفعت عَساكر الأتراك إلى الحَرب أيُّ اندفاع، وظلَّت سائرة حتى بقي بينها وبين المصريِّين نحو ألف ذراع، فبدأت الحرب بقُلوب غير جَازعة، وأطلقت مدافعها طلقات مُتتابعة، إلا أن المصريِّين لم يُقاتلوا[1] تلك الحركة كمن تأثَّر، بل لبثُوا ينتظرُون تقدُّم العدو أكْثَر فأكْثَر.

وعند ذلك أخذ إبراهيم باشا يفتقد[2] الصُّفوف، ويجُول بين العساكر ويطُوف، ويشجِّعهُم بالكلام، ويحرِّضهم على /٨٣ظ الثَّبات والاقْتحَام، ثم سار إلى جهة اليمين نحو بِئْر هناك قديمة السِّنين، ليقف بأكثر جلاء على حَركة جيش الأعادي، ومعه ألف وخُمسمائة من

---

[1] كذا بالأصل، ولعله أراد "يقابلوا".

[2] كذا بالأصل، ولعله أراد "يتفقَّد".

العَرب الهنادي، وجماعة من أعوَان حربه، وكثيرٌ من الذّوات الـذين كانوا يفُوزُون بقُربه.

ولمّا وصل إلى تلك البئر المذكُورة بقوّاده وأبطاله المشهُورة اتفق أن شُقّت حجب الضّباب، وزال قتام السحاب، فأمكَنه حينئـذ أن يرى جميع الجيُوش السُّلطانية ويتأمّل حركاتهم الحربيَّة، وكان جـيش فرسان الأتْراك قد انفصل عن المُشاة وتقدم للعراك ليفُـوز بـالفخر والسُّطوة، وأصبح /٨٤و بينه وبين جانب الجيْش الأيْسَر نحـو ألـف خطوة، فعزم إبراهيم باشا من غير تباطي[1] أن يدخل بينهما بالجيش الاحتياطي، وأمر البدو أن يتقدّموا على الأثَر ليقفوا بـأكثر وضُـوح على حالة ذلك العسكر، فساروا قليلاً ولم يلبثُوا طويلاً حتى رجعـوا مُنكَسرين، ومن كلل الأعداء متشتّتين.

فأمر حينئذ جيش الفُرسان وجيش الاحتيـاط والمُـشاة مـن الشُّجعان أن يتقدّموا نحو العسكر، ويهجمُوا على جناحي العدو الأيمن والأيسر، فاندفعُوا جميعا كالسيل العَرمرم، ونزلوا[2] علـى الأعـداء نزُول القضاء المُبرم، وقد هانت عليهم /٨٤ظ الآجال في جنب بلـوغ الآمال، فصدمتهم الأعْداء صدمتهم[3] تُزعزع الجبال، وتـرد أسُـود الدّحال عن حماية الأشْبَال، فتراكم من الجـانبين الهيَـاج، وتلاطـم الجَحْفلان كالأمْوَاج في البحر العُجاج، وهاج كلٌ وماج، وخاض فـي

---

[1] كذا بالأصل.

[2] كذا بالأصل : ونزول، وشطبها المؤلف وعدل عنها إلى المثبت بأعلاه.

[3] كذا بالأصل، والصواب "صَدمةً".

البلاء وعاج، وتفاقمت الأهوَال وارتفع العُجاج، ودار بهم ملك الموت من سائر الجوانب والفِجاج، وما زالوا على تلك الحال وهم في أشد قتال، حتى تفطَّرت مُهج الرِّجال ، وتكَبْكَبت رؤس[1] الأبطال، وجرى الدَّم وسال.

وكانت من الجانبين صيحات الجنود تُذعر قلوب الأسُود، وفعل في ذلك اليوم المصريُّون مالم يُفعل /٨٥و مثله في ماضي القرون، ولا رأت مثله العيُون من أيام الإسكَندر ورمْسيس الأكْبر، [وما][2] لا يستوفي وصفهُ الكلام، وتعجز دون بيانه ألسنة الأقلام، وكان بطلهم إبراهيم – وسيِّدهم العَظيم – يجري بينهم بأسرع من النَّسيم، وهو يهوِّن عليهم الأهْوال، ويُحرِّضهم على الثَّبات والقتال، ويقتحم بنفسه أحياناً أشدَّ المَخَاطر، ويفعل تارات مالا يفعله أحد العَساكر بهجُومه على الكَتائب والمَواكب، وعدم اكْتِراثه بالأهْوال والنَّوائب، حتى خُيِّل لجنُوده أنه لم ينظر العِدى، أو لم يعرف المَوت والردى.

وكانت طلقات البَنادق /٨٥ظ والمَدافع تصعق الفلك كالرَّعُود، وترج الأرض كالزَّعَازع حتى كادت تلك الجبال القَريبة تتزلزل من قواعدها لهَول تلك الحَرب العجيبة، وكانت تلك الطَّلقات دائمة القصف والارتجاج كالبَراكين الهائجة أشدَّ الهياج، ومُهاجمات الرجال والفُرسان، وحَرّ الضَّراب والطِّعان يحرق الأرض فتطير حصاها شراراً، ويصعد غبارها دُخاناً وناراً.

---

[1] كذا بالأصل.

[2] زيادة اقتضاها السياق.

وكان جيْش الأتراك يحاول مع شدَّة العراك أن يخرق صفُوف المصريِّين، ويشتِّتهم ذات الشّمال وذات اليمين، ولكنهم ثبتوا ثبُوت القلاع، وامتنعوا عليه أشد امْتناع، فكان العَدو /[٨٦و] لا يستطيع أن يُحارب كمُحاربتهم، ولا يأمن على السَّلامة من مُقاربتهم، فلذلك لم يستطيع الأتراك أن يدنُوا منهم وإن كانوا يزيدُون أضعافاً عنهم، فقصر عدوهم عما كان يريد، وسلمت صفُوفهم من الاخْتراق والتَّشريد، بل كانُوا يهجمُون عليه هجوم الصَّناديد، ويأسرون القريب من عَساكره ويذعرُون البعيد.

ويمكننا أن نقول أن كلا من الفريقين قد فعل في صفِّه ما يعجز القَلم عن القيام بحق وصفه، فكان الرجال يهجمُون على الأبطال، والأبطال على الرِّجال، وكثيراً ما يلتحمُون اخْتلاطاً في ضيق المجال، فيراهم النَّاظر كخيالات /[٨٦ظ] سوداء يقطُر الدم منها، وقد تدرَّعت من العُجاج بعد أن تمزَّقت أثوابها عنها، وكان صوت البارُود يزيد أصواتهم إرعاداً، ودخَّانه يزيد ألوانهم سَواداً، حتى تجسَّم الويْل للأبْصَار واشتدت ظُلمة الليْل في وسط النَّهار.

ومما كان يزيد فَظَاعة ذلك المَنظَر المُخيف دويُّ الحَرب العنيف، وتراكُم ذلك الضَّباب الكثيف الذي كان لم يزل يحجُب بعضهم عن البعض، فيلتطم الجَحْفَل بالجَحْفل، وينصرعُون جميعاً إلى[1] الأرض، وقد تفطرت أكْباد تلك السُّهول، وتمزَّقت أحْشَاء تلك الجبال والتلُول من صرخات المُتوجِّعين، /[٨٧و] وتنهُدات المُتألِّمين، وأنَّات الكَراديس المقتُولين.

---

[1] بالأصل: إلى، وشطبها المؤلف وعدل عنها إلى الكلمة المثبتة أعلاه.

وبينما كان القتال هكذا شديداً – تقشعر منه الأبْدان ولو كانت حديداً – أظهر المصريُّون الشَّجاعة الزايدة في المُكافحة والمُجالدة، وهجمُوا على الأعْداء من ثلاث جهات في دُفعةٍ واحدة، وانقضُّوا عليهم كالعقبان وحكَّمُوا حرابهم في الصُّدور والأبْدان، وفعلوا فعالاً تعجز عنها مَردة الجَان، وأما الأتراك فلما نظروا إلى جلاد المصريِّين وثباتهم، وشدة هجماتهم ووثباتهم قطعُوا الآمال من الظَّفر، ووقعُوا في الارْتباك والحير، وأيقنوا بالمَوت الأحمَر، فأرْكن بعضهم إلى الإحْجَام، /[٨٧ظ] وفرَّ بعضهم دون ترتيب ولا انْتظَام، فكانوا يتقلَّبُون في ذلك القفر كما يتغلَّب تيار المَوج في لُجَّة البَحر.

وبينما هُم في ذاك الشَّتات القاطع، صدمتهم فرقة الآلاي الرَّابع تحت قيادة صاحب البَطش القوي أحمد بك المِنكْلي فأراهم العَجائب، وفعل بهم الغَرائب، فتحيَّروا من عظم البَلاء، وارتدُّوا مذعُورين إلى الوَراء حتى وقعُوا على باقي أصحابهم وهم يرون المَوت قد أحاط بهم، فاختبط جيشهم طولاً بالعَرض، وأمسى لشدة الارتباك بعضه يصدم بعض، وحينئذ اشتد الويْل وازدحمت الرِّجال بالخيل حتى /[٨٨و] كانت لهم ساعة تُحزن النَّاظر، وتوجع القلوب والضَّمائر، لا يستطيع القلم أن يصفها، ولا من لم يُشاهدها أن يعرفها، فأعْمَل المصريُّون بهم أسنَّة الحديد، وكلل المَدافع ورصَاص البَوارِيد، وحكَّمُوا القَنابل والسُّيُوف في تفريق الكتائب وحَصْد الصُّفوف.

وأما الصَّدر الأعْظَم فإنه لما رأى ذلك الخَطب العَرمْرَم اقتحم معركة الصِّدام عازماً على إرجاع النِّظام، وإعادة صُفُوف جيوشه

إلى التَّرتيب والالْتِحام، وتجديد الحَرب والاقْتحام بعد ذلك الانْهـزام، وكان قد قُتل تحته في ذلك اليوم ثلاثة أحْصِنة، /٨٨ظ وتجرَّح الرابـع في عدة أمْكِنة، فسَار - كالبَرق إذا صدر - إلى نحو الآلاي السَّابع عشر الذين كانوا من المُشاة، وأمسوا في حالة بعيدة عن النَّجاة، بـل كانُوا في أسواء الأسْوَاء[1]، وعلى همَّة تسليم سلاحهم للأعْداء، وفيما هو يجُول من خلف وأمام، وينشِّطهم على الهجُوم والاقْتِحام لمحةُ قائد من قوَّاد المصريين وشُجعانها الموصُوفين، فعلم من ملبُوسه الثَّمين أنَّه من ذوي الدَّرجات العَالية والرُّتب الرفيعة السَّامية، فأمر بعض البَدو أن يلحقُوه فلحقُوا به وضايقُوه، وأخذوا عليه بعض الخَنادق وهمُّوا أن يطلقوا /٨٩و عليه البنادق، فأشَار إليهم أن لا يفعلُوا، وأوقفهم عما عوَّلوا، ثم قال : "أنا الصَّدر الأعظم، ودستُور الدولة الأكْرَم"، فحينئذ تركوا بنادقهم وتقدَّمُوا إليه، وأخذوا سيْفَهُ وسِلاحه، وكُل ثمين عليه حتى أخذوا طَوق برفسه المُزركش بالطراز البديع، ولم ينظرُوا إلى ما يجب من الوَقار إلى شَخْصِه ومقامه الرَّفيع.

وفي الحال جاء سَليم بك قائد الطُّوبجية وأحْمَد أفندي ياور إبراهيم باشا في الأمُور الحربيَّة، وأخذوه من أيدي البَدو بكل احْتِرام واعتبار إلى مولاهم إبراهيم باشا الباسل القهَّار، وكان قد مَضى لهم ساعتان في الحَرب وشدة /٨٩ظ الكفاح والطعن والضرب من حينما أسروه إلى أن أتُوا به إلى مولاهم وأوصلُوه ؛ فالتقاه إبراهيم باشا بالوقار ومزيد الاعْتبار، وبالغ في إكْرامه وشيَّعهُ بخفرٍ يليق بشخصه

---

[1] كذا بالأصل.

ومقامه، وأوصى خفره أن يوصلُوه إلى قُونيَّة بالتَّبجيل والتَّكْريم، وينزلوه في الدَّار التي هُو فيها مُقيم.

هذا وأن نار الجلاد لم تزل بمزيد ازدياد إذ الأتْراك كانوا لشدَّة بلاهم لم يعلموا بأسْرِ مَوْلاهم، ومع ما كان [قد][1] انْهزم من الصُّفوف تمكَّن قوَّادهم من إرجاع الباقين إلى النِّظام المَألوف، فثبتوا بالعزم القوي وهجمُوا على المصريِّين على هيئة الخَط المُلتوي ليحيطوا بهم من ثلاث /٩٠و جهات، ويقطعوا خط اتِّصالهم بقُونيَّة، ويرمُوهم بالشَّتات، على أنَّهم لو تمكَّنُوا من ذلك لرمُوا المِصريِّين بأفْظَع المهالك، وكسرُوهم كَسرةً هائلة، وخَسَّرُوهم أتعابهم سنةً كاملة بحيث لا يعُود يُمكنهم الرجُوع إلى الثَّبات، ولا تعويض ما فات.

وشرع الأتراك على هذا العزم يتقدَّمُون، وكادُوا بحركتهم هذه ينجحُون، إلا أن بعض قوَّاد المصريِّين النُّبلاء قد لاحظ وعرف ما صمَّم عليه الأعداء، فسار بأسْرع من البَرق اللاَّمع، وأعْلَم قوَّاد الجيُوش بالواقع، فثبت جناح الجَيش المصري ثباتاً يقضي بالعجب، ويستحق أن يُدوَّن بأحرفٍ من ذهب إذْ /٩٠ظ على ذلك الثَّبات والصَّبر يتوقف النَّصر والكَسْر.

وبعد قليل لما رأى الأتراك ثبات المصريِّين على الهجُوم والعراك، واستبعدوا الفوز والفلاح، وقطعوا الأمل من النَّجاح ؛ فولُّوا الأدْبار، وأركنوا إلى الفرار، وتبدَّدُوا مُتشتِّتين في تلك القفار، فأمر

---

[1] زيادة اقتضاها السياق.

إبراهيم باشا جيْش الفُرسان أن يُطاردهم ففعل وأدركهم مُنهزمين عن عجل، فأنزل بهم من الأهْوَال ما يقصُر عنه المقال، وأخذ منهم نحواً من ثمانية آلاف أسير وستّة وخَمْسين مدفعاً بين صغير وكبير، وكسبُوا أعلامهم ورايَاتهم وجميع ذخائرهم ومُهماتهم، بل كسبُوا منهم ما لا يُحصى وغنمُوا ذخائر وصفها /٩١و لا يُستقصى.

وقد قتل من الأتراك في ذلك اليوم المهُول ثلاثة آلاف رجل، وفقدوا مثلها من الخيُول، وتركوا ضعفها مجاريح مُنطرحة في تلك السُهول، وأما خَسارة المصريين فكانت نحواً من ثلاثمائة وستّين، ومن المَجاريح خُمسمائة وثلاثين، وما برح الدُّالاتية وعرب الهنادي يُطاردون جموع الأعَادي بدون تقصير ولا تأخير حتى أوصلُوهم إلى أبواب مدينة أكْشَهير، فأسرُوا منهم كثيراً، وقتلوا جمًّاً غفيراً، وكان ابتدا[1] هذا القتال بين العَسكَرين من بعد الظُّهر إلى ما بعد المغرب بساعتين، فاستمر نحو /٩١ظ سبع ساعات ونصف على ما سبق من التَّفصيل والوصف، وبعد ذلك رجع الجيش المصري إلى قُونية ظافراً منصُوراً، وغانماً موفُوراً ؛ فدخلها على ثلاث ساعات ونصف من المساء وهو سَكران بخمرة النصر على الأعْداء.

ولما عاد إبراهيم باشا إلى منزله في سراية قُونيَّة أراد أن يرى أسيره مرة ثانية، فأتى الغرفة التي كان [قد][2] أنزله بها ذلك اليوم فوجده راقداً مُستغرقاً في النَّوم، فأيقظهُ بكل لطافة ووقار،

---

[1] كذا بالأصل.

[2] زيادة اقتضاها السياق.

وسأله بكل إجلالٍ واعتبار أن يحضر - إن شاء - إلى ديوانه، ويستأنس به وبأعوانه، فنهض وتبعه في الحال، وهو تلوح عليه علائم العَظمَة /٩٢و والجَلال، ولما بلغا المكان ودخلا الدّيوان أعطَاه إبراهيم باشا المحلّ الأوّل ليجلس به وجلس هو بقُربه، وكان يُعامله مُعاملةً حَسنة، ويعتبره كأوّل رجل من وزراء السّلطنة، ويحتفله[1] احتفالاً زايداً، أُعجب به كل من كان شَاهداً.

ثم أمر إبراهيم باشا بالقَهوة أن تحضُر، ولما أُحضرت أبَى أن يشربها مُحمّد رشيد واعتَذر، وقد ازداد قلقاً وغمّاً، وخاف أن تكُون ممزُوجة سُمّاً، وطلب عِوضَها شَربة من الماء، لأنه كان في غاية الظّمأ، فأمر إبراهيم باشا أن يأتُوه بكأس شَربَات، فقال : "إنّي أفضّل المَاء على جميع المشروبات"، فانتَهر إبراهيم باشا /٩٢ظ رئيس السُّقاة وقال :- "أحضر كأس شَربات بدون إمْهَال"، فإذ ذاك لم يعد محمد رشيد يجد بُدّاً من القبول بعد ذاك التّشديد، ولما مَلأ السّاقي الكأس وأتى بها كان مُحمّد رشيد يتمهّل عن أخذها وشُربها، فمدّ إبراهيم باشا يده بسرعة، وشرب منها قِسماً كبيراً من أول جَرعة، ثم قال له :- "خُذ ولا تَسئ بنا ظنّاً" فأخذها وشَربها مُطمئناً.

وفي ذلك الليل أمر إبراهيم باشا سُليمَان بك الفرنساوي أن يتبع الجيش أثر العدو في تلك البَراري والمهاوي، هذا وإن هذه الكسرة القويّة قد وصلت أخبارها إلى القُسطنطينيّة بسرعة كُليّة، فاضطَربت الأهالي الصّغار والكبار، وجزعت رجال الدّولة /٩٣و من

---

[1] كذا بالأصل، ولعله أراد "ويحتفل به".

تلك الأخبار حتى أن السُّلطان أمسَى مشغُول البال مُضطرب اللُّب كثير البلبال، وكانت لم تزل السُّعاة تتقاطر، وتصل الواحد بعد الأخر حاملة أخبار الويْلات، وذلك الكسر والشَّتات، حتى أن انتصار الدولة المصريَّة قد زعْزع أركان السَّلطنة العُثمانيَّة، ولهج الرِّجال والأوْلاد بأن المصريِّين قتلوا وأسرُوا جميع الجيُوش والقوَّاد.

ولما بلغ السلطان محمُود [خبر][1] أسر الصَّدر الأعْظَم، وانكسار الجنُود انزعج واضْطَرب، واستولى عليه الغيظ والغَضب، ولم يعد يُمكنه بعد تلك الحال وفقد المهمَّات والرِّجال إلا التَّسليم للقضا، والنَّصيب الذي يَغْلب الرضى[2]، ففكَّر رجال الدولة فيما /٩٣ظ يُجبر الخلل، فلم يجدوا أوْفَق من الصُّلح في نجاح العمل، ولكن كانوا يريدُون حسم الدَّاء، وتسكين تلك الدَّاهية الدَّهماء على طريقة مُناسبة مُرضية، بحيث لا تنهتك بها حُرمة الدولة العليَّة بعد العَظمة والاقْتِدار، والصَّولة والفَخار.

فطلبُوا إذ ذاك من رُوسيا أن تُساعدهم ومن فرانْسَا[3] أن تتوسَّط القضيَّة، وأفهمُوها مقاصدهم، ولفصل بلوى هذا الخلاف توجه خليل باشا مع الجنرال مُورافياف قاصدين الأسْكَنْدرية ليسعيَا في نهاية هذه القضية مع الحَضرة الخديويَّة، فأقاما هناك المُخابرة بكل المجهُود، ولكن سَعيهما لم يأت بتمام المقصُود، حتى أن الجنرال

---

(1) زيادة اقتضاها السياق.

(2) كذا بالأصل.

(3) كذا بالأصل.

مُورافياف المذكُور /٩٤و لمَّا لم يجد باباً لحسم تلك الأمور تهدَّد الخديوي الأعظَم، والدَّاوري الأكْرَم الأفخم، بأنَّهُ إذا لم يأمر ولده إبراهيم باشا بالرجُوع والانكِفاف عن الحرب والهجُوع ؛ فإن دولته المسكوبيَّة[1] مُستعدة لإرسال عمارة حَربيَّة لتضرب الأسْكَندريَّة، إلا أن تلك التَّهديدات لم تُزعزع الخديوي صاحب الانْتصَار والثَّبات.

ولما طلب الباب العالي من فرانسا[2] توسُّط الحال ورفع الحرب والقتال فإن وكيل سفارة فرانسا[3] البَارون دي فارين – الذي كان من رجال السياسة المُعتبرين – بعث بالرسالة الآتية إلى إبراهيم باشا صاحب الهِمم السَّامية :-

"/٩٤ظ حضرة صاحب القدر الشَّامخ، والمقام الباذخ، إنه لمن واجباتي أن أُخبركم بأن البَاب العالي لما كان يُحب أن يضع حدّاً للحرب القائمة التي تجلب الدَّمار على رعَاياه – التي أقامته العناية وكيلاً أميناً عليها – فقد بعث بخليل باشا إلى الأسْكَندريَّة، وفوَّض إليه أمر إيجاد علاج للخلاف الحَاصل وتسوية نهائية مع حضرة صَاحب السُّموْ مُحمَّد علي باشا وَالدكم المُعظَّم.

---

(١) النسبة هنا إلى عاصمة الدولة موسكو، وكان قنصل روسيا بمصر يدعى بقنصل المسكوبية أو المسكوا، انظر :-
الخشاب : خلاصة ما يُراد من أخبار الأمير مراد، تحقيق حمزة عبد العزيز بدر، دانيال كريسليوس، القاهرة ١٩٩٢، ص ٢٩.

(٢) كذا بالأصل.

(٣) كذا بالأصل.

وإذْ كان هذا المشرُوع ناشئاً عما كُلِّفت تبليغه من جانب الباب العالي إلى حضرة صاحب السُّمو والدكم المَاجد رأيت أنه من الفرض الواجب علي أن أُعلمكم به، وأنا بصفة كَوْني وكيل دولة – هي ولئن لم تكن تتمنّى على الدَّوام إلا نجاح ولمو [٩٥ب] السَّلطنة[1] /٩٥و العُثمانيَّة – لها أيضاً أمانة كلية في الحَضرة الخديويَّة، ولذا تفوَّض إليّ أيضاً أن أتخَابر مع سموُّكم، فأنا حسبي يا صاحب السُّمُو أن أطلعكم على أحوال الأمُور، راجياً بعد أن تكونوا وقَفتم عليها لا ترون مكاناً لمُداومة أسباب النِّزاع والعَداوة التي غائلتها اللوم والعَار، والمسئوليَّة على مُسبِّبيها، وربَّما منها تتولَّد الصعُوبات التي تحول دون المقصُود، فتمنع إفضاء الخلاف المُباشر فيه.

فإذا تقرَّر ذلك فلا غَرو أنكم تُحلُّون تقريري هذا محلّ الصِّدق والصَّواب، وتتلبَّثُون عن التقدُّم إلى أمام، وتصدرون أوامركم إلى قُوَّاد جيشكم بالتوقُّف، وإنِّي لمُعتقد اعتقاداً جازماً بأن سُموُّكم وافر التعقل، حسن /٩٥ظ الإدارة يإلقاء[2] السَّلامة والتأمين، فلا يرضى بما يناقض ذلك.

وأنا مُرسل كتابي هذا لسموُّكم صُحبة ساعٍ، فارجُو متى وقفتُم عليه أن تكُونوا على يقين مما تضمَّنه من مقاصدنا

---

[1] كلمة السلطنة ليست بالنص، لكن المؤلف أثبتها في تعقيبة الورقة ٩٥و.
[2] كذا بالأصل.

السَّليمة، راجياً أخذ الجواب الذي ستشرفُوني بـــه صُـــحبة ناقله، وإنني اغتنم هذه الفرصة يا صاحب السُّمو والفخـــر لأقدِّم لديكم خُلوص حاسياتي[1] واعتباري التـــّام.

وكيل سفارة فرانسا[2] لدى البَاب العالي

(الإمْضَا[3]) البارون دي فارين

من ترابيا في ٩ خلت من شهر كانُون الثاني سنة ١٨٣٣.

فلما وقف إبراهيم باشا على هذا الكتاب وقرأه، واطَّلع علـــى فَحْواه أجابه بما معناه أنه لمـــا لـــم يكُـــن إلا /٩٦و قائـــداً للعَـــساكر المصريَّة، فلا يُمكنه إلا أن يسلُك بحسب الأوامر الخديويَّـــة، وبنـــاءً عليه ليس بوسْعه أن يتوقَّف ويُضيع الفُرصة، ثم حمَّل الصَّدر الأعْظَم أن يُعلم الدَّولة بتقدُّمه نحو بَرصة[4]، وذلك ليس على نيَّة حـــربٍ ولا جِلاد، وإنَّما جل القَصد والمُراد في خروجه من قُونيَّة وتلك البلاد هو لداعي هجُوم الشِّتا[5] ودخول فصل البَرد، وعدم وجُود ما يـــسُدُّ بـــه احْتياج الجُند، ثم ارتحل من ذلك المكان بالرِّجال والفُرسان في التَّاسع والعشرين من شَعبان، وعند وصُوله إلى كُوتاهية[6] أرسل له البَارون دي فارين رسالة ثانية، يطلب إليه ويُشدِّد عليه أن يتوقَّف في مكانـــه

---

(١) كذا بالأصل، ولم أدر ما الوجه فيها.

(٢) كذا بالأصل.

(٣) كذا بالأصل.

(٤) برصة "Bursa" مدينة ساحلية تقع على بحر مرمرة قبالة استانبول.

(٥) كذا بالأصل.

(٦) كوتاهية "Kütahya" مدينة كبيرة تقع جنوب غربي اسكي شهر.

برجاله /٩٦ظ وفُرسانه، ولا يعُود يتقدَّم ولا خُطوة قَدم إلى أن ينتهـى الحَال ويرتفع النِّزاع والجِدال، علـى طريقـة مُرضـيَة للحكُومـة المصريُة والدُّولة العُثمانية.

وكتب أيضاً إلى الحضرة الخديويَّة يعلمهـا بهـذه القـضية، مُشدِّداً على جنابها الشَّريف أن تأمر ولدها بالتأخير والتوقيف، فلمـا وقف إبراهيم باشا على هذه الرِّسالة، واطَّلع على ما تـضمَّنتهُ مـن المقالة، أجابه بهذا التَّحرير، وكان أبُوه قـد أمـره أن يتوقَّـف عـن المَسير:-

"حضرة صَاحب المَقَام السَّامي حليف الشَّرف والفخَار، ذي الهَيْبَة والوقَار، مُحبنا وصديقنا البارُون دي فارين، /٩٧و لقد حظيت برسالتكم الودَادية التي بعثتمُوهـا لي بتـاريخ ١٠ رمضان سنة ١٢٤٨ (٢٩ كـانون الثـاني سـنة ١٨٣٣) ووقفت على ما تضمَّنته من المحبَّة والخلُوص[1]، ثم أنِّي قبـل أن أسير من قُونية قد عرَّفت الباب العالي بواسطة الـصَّدر الأعْظَم أنَّ الذي حملني على الخروج من قُونيَّة والتقـدُّم إلى بَرصة لم يكن إلا داعي عدم وجُود مـا يـسد احتياجـات الجيْش ويقوم بأوده في فـصل الـشِّتاء البـارد ونُقـصان الحَـطب.

[1] كذا بالأصل.

وإذا لم يكن لي أدنى قصد في حركتي إلا السّبب الذي ذكرته، فإذا تقدمي كان من هذا القَبيل – وإذ قد وصلت الآن إلى كُوتاهية، ووجدت /٩٧ظ فيها ما يكفي ويقوم بأود الجيْش – فقد صمّمتُ على الوقُوف هُنا امْتِثالاً لأوامر والدي وولِيّ نعْمَتي إلى أن تَرد لي منه إفادة جَديدة في هذا الشّان، وإنني سأعلم الباب العالي بذلك أيضاً راجياً أن أكُون قد وفّيت بمرغُوبات سَعادتكم الوِدادية، التي يَسُرني جداً أن أقوم بالإيفاء بها.

وإنّي انتهز هذه الفرصة لا ستفحص عن عزيز سَلامتكم.

(الإمْضا[1]) إبراهيم

من كُوتاهية في ١٥ رمضَان سنة ١٢٤٨.

وكان إبراهيم باشا قد أطلق سبيل الصّدر الأعظم فعاد إلى الأستانة، وكانت الدولة /٩٨و [قد][2] سمّت أمين رأوف[3] باشا صَدراً أعظم مكانه، وفي ١٧ شباط سنة ١٨٣٣ مسيحيّة قدم البارون رُوسين سفير فرانسا[4] إلى القُسطنطينيّة فتمثّل أمام حضرة السُّلطان وتخابَر معه بهذا الشّأن، ووعده بأنهاء الخلاف على أي وجه كان، وأرسل إلى الحضْرة الخديويّة برسالة ودادية يطلب منها ترجيع الجيُوش المصرية إلى بلاد سُوريّة، وهذه صورتها :-

---

[1] كذا بالأصل.

[2] زيادة اقتضاها السياق.

[3] كذا بالأصل.

[4] كذا بالأصل.

" حضرة صاحب السُّمو والمقام العالي، لا يخفـــى عليـــكم المركز العَسِر الذي بات فيه البَاب العالي من جرى[1] نجاح ولدكم إبراهيم باشا، حتى أنه اضْطرَّ أخيراً أن يقبل مساعدة دولة /٩١٨ظ رُوسيا الماديّة[2] التي كانت قد عرضـــتها عليـــه ورفضها غير مرة.

ولما بلغه أخيراً حُسن لواياكُم ومَيْلكم إلى فصل الخلاف طلب توقيف تلك المساعدة، ولكن لسُوء الحظّ تـــأخرت الإفـــادة فوصلت العمارة إلى البُوسفُور قبل وصول إفادته.

والآن قصدى أن أحْملكم على قَبُول ما عرضه عليكم خليل باشا مُعتمد الباب العالي لكي توفّرُوا أسباب نزع السّلام، ليس في الشّرق فقط بل في الغَرب أيضا، لأنّ ذلك أصـــبح يُـــضر بميزانيّة أوروبّا وبصَوالحنا أيضاً، فإذا أرجُو سُموكم – لـــيس فقط من أجل صَوالحكم الخُصوصيّة بل من أجـــل سَـــلامتكم وأمْنكم الذّاتي أيضاً –أن لا تتـــصلّبُوا /٩١٩و في عَـــزمكم، وأن ترضُوا بما سَمح لكُم به الباب العالي من باشويّة عكّاء ونواحيها وبعض أطْرَاف سُورية، وإلا فبمزيد الأسَف أقـــول لـــسُموكم أنّكُم إذا كُنتم لم تزالُوا مُصمّمين على عدم التوقُّف، وإخـــراج عساكركم من الأناضُول تحملُون دوْلتي على أن تَمُـــدّ نحْـــوكُم ذراع العِدوان، الأمر الذي لا نرضَاه.

---

[1] كذا بالأصل، ولعله أراد "جرّاء".

[2] كذا بالأصل، ولعله أراد "المعادية".

وأنا قد تعهّدت للباب العالي بذلك إذا اقتضتهُ ظروف الحال، ودولتي لا يمكنها إلا أن تنفذ ما قد تعهّد به وَكيلها المُطلق، ورسَالتي هذه تصلكم صُحبة باشْ ياوري فارجو أن يُصادف لدى سُموكم المُعاملة اللائقة المُتصف بها شَخْصكُم السَّامي، وان تكُونوا على /[٩٩ظ] يقين مما تضمّنت من مقَاصدنا، وسُموكم تعلمُون ما بين دولتي وبينكُم من الوِدَاد ومُراعاة الخَاطر، فلا تحملُونا إذاً على أن نُخالف ظنّنا بمقاصدكم السَّامية، ومن طيّه تجدُون صُورة الرِّسالة التي بعثت بها إلى جناب ولدكم الأمْجَد.

هذا وإنّي اغْتنم هذه الفرصة الثّمينة يا صاحب القدر والفخر لأؤكد لسُموكم اعتباري التّام.

ألفيس أميرال سفير فرانسا[1] لدى البَاب العالي.
(الإمضا[2]) البارون رُوسين
من ترابيا في ٢٢ شباط سنة ١٨٣٣.

فأجابه الخديوي الأعظم والداوري الأكرم الأفخم بما مُلخصُّه :-

"/[١٠٠و] وصلتني شِقّتُكم الرّسميّة بتاريخ ٢٢ شباط سنة ١٨٣٣ وفهمت مضمُونها، أما قولكم أن ليس لي حق أن أطْلُب أكثر من

---

[1] كذا بالأصل.
[2] كذا بالأصل.

باشويّة عكّا ونواحيها وبعض أطراف سُوريّة، وبناء عليه يجب أن أخرج عَساكري من الأناضُول بدون أدنى عاقة[1]، ثم تهدّدني إن لم أفعل ذلك، فمهلاً يا جناب السّفير المُحب، بأي حقّ تطلبُـون منّي ذلك، ألم أغلب ؟!، أو لم أكن قادراً أن أغلب بعد ؟! فكيف تكلفُونني ترك حقّ كهذا ؟ إني أرجو أن مقاصدنا ونوايا دَولتكم المُعظّمة وخدينتها الدولة الإنكليزيّة لا تُريدان منّـي ذلـك ولا تُحوجَاني إليه، بل تُعاملاني بالمَعدلة والإنصَاف، وإنني أقُول ثانيـاً انني قد غَلبت وقد يَحقُّ/١٠٠ظ للغالب أن يضَع الشُّروط وليس للمغلُوب، وأنّي لا أتنازل عمّا قد طلبتهُ من مُعتمد البَاب العالي، وإذا اقتضت الحال فإني مُستعدٌّ أن لا أعيد السّيف إلى غَمده قبل أن أنال المقصُود، أو أموت شَريفاً بين جيشي وأمّتي.

وإنّي يا جناب السّفير اعتقد اعتقاداً جازماً بعـدالتكم وجَـودة تدبيركُم، ولذا أرجُو أن تصادقُوا على تصرُّفي، وأن تَسْندوا لدى الباب العالي مَطاليبي التي بلّغتها إلى خليل باشا، والسّلام أحـسن ختام.

(انتهى مُلخّصاً)

(الإمضا[2]) مُحمّد عَلي

من الأسكَندرية في ٨ خلت من آدار[3] سنة ١٨٣٣.

---

(1) كذا بالأصل، ولعله أراد "إعاقة".
(2) كذا بالأصل.
(3) كذا بالأصل، ولعله أراد "آذار".

/١٠١و ولما بلغت هذه الرّسالة السّفير المُشار إليه، واطّلعت الدّولة على ما احتَوت عليه ؛ لم تجد بُدّاً من مُلافاة الأمر، وإخماد ذلك الجَمر على طريقة مُناسبة، خوفاً من العَاقبة، ففوّضت البَارون روسين بفضّ هذه القضيّة، وأنها تتنازل للحضرة الخديويّة عن جزيرة كريت وسُوريّة، وتُسلّم مقاليدهما للحكُومة المصرية.

فأرْسَل البارُون رُوسين البارون دي فارين في التّاسع والعشرين من آدار[1] إلى كُوتاهية وتلك الدّيار للمُخابرة مع إبراهيم باشا بهذا الصّدد، وعند وصُوله إلى ذلك البلد التقاه إبراهيم بالتّرحيب والتّكريم، واحتفل له الاحتفال العَظيم، وبعد إقامة فرُوض /١٠١ظ الواجبات دارت بينهما المُخابرات، فطلب إبراهيم باشا علاوة على كريت وسُوريّة ولاية أدنة، ولما كان البارون المُشار إليه مفوّضاً إليه التّفويض التّام من طرف السّلطنة سلّم له بهذا الطّلب حسماً للنزاع والتّعب، وتحرّرت شُروط العُهدة في ٨ نيسان و١٦ ذي القعدة، فأُمْضِيت من الطّرفين، وصادق عليها كل من الدّولتين.

وهكذا انتهى الحال وارتفع النّزاع والجدال، وخَمدت نار الفتنة بعد الاشْتِعال، ورجع إبراهيم باشا إلى قُطر الشّام بالعز والإقبال بعد ما بلغ المَرام، وأطاعه الخَاص والعام، ووقعت هيْبته في قلوب الأنَام، فدارت بقدُومه /١٠٢و البشَائر، وقامت الأفراح وابتهجت العشَائر، وقصدته شعراء الزّمان من كل جهةٍ ومكان، وقدّمُوا له المَدائح والتّهاني، فمن ذلك ما قال الشيخ ناصِيف اليَازجيّ اللُّبنانيّ،

---

[1] كذا بالأصل.

علاَّمة زمانه وشاعر عصرِه وأوانه يمدحه بهذه القصيدة ويهنِّيه بتلك الفتُوحات السَّعيدة مُستفتحاً بذكر المرحُوم الخديوي الأعْظم، الذي برز من عَرينه هذا الأسَد الغَشمْشَم :-

يا فاتح القُطرين أنتَ مُحمَّدُ ... هل دُون فتحُك في البلاد مُسدَّد ؟!

العَربُ تشهد والحَضارة قبلها ... والزِّنج تشهدُ والجَزائرُ تشهدُ

ما كان أيْسر ما فَعلت وفوقهُ ... لو كان مِثْلكَ في البريةِ يوجدُ

أنت العَليّ كما يُقال ونَسْلهُ ... منك المَعالي لم تزل تتولَّد

/١٠٢ظ سُدت البلاد بهمةٍ نبويةٍ ... فالأرضُ دارك والخلائق أعبدُ

وأتيتنا باسم النبيّ وصِهرهُ ... وغَزوت غَزْوهُما على ما نعهدُ

جبلٌ بمصر إلى الحِجاز وظلُّه ... لحِق الشَّام وظلَّ منه الأبعدُ

لو كنتَ تَنهر أرضَهُن تزلزلتْ ... ولو ازْدَجرت النِّيل أوْشَك يجمدُ

يا سيِّداً عُرف اسْمُه بالرَّفع ... لا بالخَفض والتَّنوين أنت المُفردُ

بك يستعين الجيْشُ حيثُ رميتهُ ... بدداً، وإياك الصَّوارم تعبدُ

لمَّا بعثتَ من الكنانة سَهْمَها ... حَلفت عليه أنه لا يَصردُ

ما زالت النَّار التي وُقدَت له ... برداً عليه ونَار لا تبردُ

من مثلُ إبراهيم إلا سيْفهُ ... يوم الكَريهة والقنا المتأودُ

كالسَّيف إلا أنَّه لا يتقي ... حَذراً ويحسب أنَّه لمُخلَّدُ

ملكٌ يخاف الله ليس بحاسدٍ ... وتخاف سَطْوَته المُلوك وتحسدُ

يعتاد سُهد العين وهـي قريـرةٌ ... من كل عين في حِمـاه ترقـدُ

/١٠٣و يا أيُّها القَمر الذي من حوله ... شُهب الصُّواعق والسُّحاب الأسْـود

أمطارٌ راحتك الدِّماء من العِـدى ... يوم الوغَى وعلى الصُّغاة العَـسْجَدُ

أرأيت ما أجْرَى عِداتُك نعمـةً ... سبقُوا ولكن في الفرار وأُجهـدوا

وليُّ العدو يكـاد يـسبق مُهـره ... ويود لو أكل الطـريق فينفـدُ

أخذ الصُّحابة بعـضها وتخلَّفـت ... منها رجَال في البقيـة سُجَّـدُ

لو كُنت تُصغي لاستمعت نَوادبـاً ... في التُّرك تندُب أهلهـا وتُعـدِّد

أرسلت قبل الجيش جيشَ مهابـة ... جيش العـدو لهولِـه يتبـدَّد

فاثْبُت مكَانـك وابعـث اسْـمكَ ... بعدها وكَفَى القتال به وأنت مُوسـدُ

ولقد ضَربت حصُون عكَّا التـي ... كانت لهيْبَتهـا الفـرائض ترعـدُ

الله أكْبَـر لـيس دُونَـك قلعـةٌ ... تحْمى ولا حِـصن أشـم مُمـرَّد

خافت جبال الأرْض منـك وقـد ... رَأت هذي الفِعال بمثلهـا تتـردَّدُ

وتحصَّنت منك الأسُود فـلا تلُـم ... قوما بأعلاق الحصُون استَنْـجَدوا

/١٠٣ظ أسالت عبد الله أين قارعةٌ؟ ... ورجَالـه وفـؤاده المُتوقِّـدُ

أمْسى يُشدد قومـه فغـدا ومـن ... لفُؤاده بفتـىً تـراه يـشـدِّد

لما مَررت بـه أسـيراً خاضـعاً ... خَشعت له أبْـصَار مـن يتفقَّـدُ

دون التبصُّر فـي تقلُّـب أمـره ... سبَب الزهادة عنـد مـن يتزهَّـدُ

ساءت ظنُون القوم فيــه وظنّــه ... والظنُّ أكثــره يَخيــب ويفــسدُ

لم يَدر أن القتل أهْونُ عنــد مــن ... دفع المَنيَّة عنــه وهــي تُعربــدُ

لا حدَّ دُونك في المَكارم والعُلــى ... وعَسى البقاء عليــك لــيس يُحــدد

فالظُّلم إلاَّ عــن طبَاعــك يَتَّقــي ... والعودُ إلا عــن جَنابــك أحمــدُ

وقال أيضاً مُؤرخاً فتح عكَّاء :-

في فتح عكَّا بردُ نــار مُغَاطِــبُ[1] ... دارُ الخليل وللــدِّيار بــه البُكــا

راس الثُّمــان وأربعــين بطيِّــه ... مِئتان مع ألــف، فبــارك ربُّكــا

سنة ١٢٤٨

/١٠٤و وكان قد اقْتَرحهُما عليه الأمير بَــشير ليُقــدِّمهما إلــى مَقامه الخَطير، وهما يتضمَّنان ثمانية وعشْرين تاريخاً علــى وجــهٍ غريب وأسلوبٍ عجيب، وذلك يحصُل من كل شطرٍ مــن أشْــطُرهما على طريق حساب الجُمَّل، ومن مُعجم كل بيت ومن مُهملــه، ومــن جمع ما في كل شطر من المُعجم مع ما في غيره من المُهمل جاريــاً في ذلك على الطَّرد والعَكْس في الحرُوف والشُّطور بين تقديم المُهمل تارة وتأخيره أُخرى، والمُخالفة بين الأعْجَاز والصُّدور وذلــك مــن الطُّرق المُبتكرة في هذه الصِّناعة، والتَّاريخ النَّاطق لفظاً في مثل هذا مما يدلُّ على تمام البــَراعة.

---

[1] كذا بالأصل، ولعله أراد "مغاضب".

وممَّن قدَّم له التَّهاني في نوال هذا النَّصر ولهَج بالبَشائر والمسرَّات من شُعراء العصر الأديب الفاضل والأريب /١٠٤ظ الكَامل، اللوذعيُّ الذكي الشيخ أمين الجندي ؛ فإنه مَدحه بموشَّحاتٍ بَاهرة، وقصائد نفيسة فاخرة، منها قصيدته اللاَّمية التي ذكر فيها فتُوحاته الشَّامية، وهي من أرَقِّ الشِّعر وألطفه، وأجود النَّظم وأظرفه، كثيراً ما تلهج الناس بإيرادها، وتعتني في غالب الأوقات بإنشادها ومطلعُها قوله :-

عرج أخا البأساء نحو بني العُلا ... وألثم ثرى أعتابهم مُتذلِّلا

وابْسَط أكُفَّ رجاء كَسرك عندهُم ... وأجرى الدمُوع على الخُدودِ توسُّلا

ودع التعجُّب من شجاعة من مَضى ... من قبل وأترك عَامراً ومُهلهَلا

وزن الرِّجالَ فإن في أفْرادِهم ... لا يُزان بألف ليثٍ في المَلا

ومنها :-

إن قيل إبراهيم جاء مُحاربـاً ... سقطُوا وإن كان الكَلام تقوُّلا

/١٠٥و هو سيِّدُ الوزراء دُرَّة عِقْدَهُم ... وأجلُّ من بالمُكرُمات تَسربلا

في حُكمه ترعى الضَّواري والظبا ... وبعدله أضحى الزمان مُجمَّلا

فاق الأوائل سُؤدداً وفَخامة ... وسَما الأواخر رفعة وتفضُّلا

كم مُنكراتٍ قد أزال وجُودها ... عنَّا وكَم من باطل قد أبْطلا

لا عيْبَ فيه سوى الثُّبات ... وأنه يَلقى الكَتيبة وحدهُ والجَحفلا

ذو هِمَّة عَلويَّة لو صَادمت في ... الحَرب طَوداً شامخاً لتزلزلا

قامـــت قيامـــة عكّـــة مـــن بأســـه ... وأحاط من كل الجهات بهـــا الـــبلا

بمـــدافع مـــا أن لهـــا مـــن دافـــع ... وقنابل تحكـــي القَـــضاء المُنـــزلا

نُـــسيك بـــدراً والنُّـــضير وخيبـــراً ... وحرُوب مكّة والبَسُوس وكَربـــــلا

لـــو شـــام حَـــر لهيبهـــا اســـكندر ... لاندكّ مُحكم سده وتفـــصّـــــــلا

ووزيرهـــــا المـــــدعُو بعبـــــد الله ... أمن الردَى ولأرض مِصر أرســـلا

/١٠٥ظ برزت جميع جنُودها لقتالـــه ... فهناك جدَّ بفتْحها واستَعـــــــجَلا

حتـــى إذا طلبُـــوا الأمـــان أجـــابَهُم ... وأنـــَـــال كُلاً منهم مـــا أمَّـــــــلا

وسَرى إلـــى حِمـــصٍ ليقمـــع مـــن ... غدا في مَالهـــا وعقارهـــا متخـــوّلا

وبها العَساكر والدَّساكر قـــد حكـــت ... قطع الظَّـــلام إذا بـــدا مُتنـــضّـــلا

زحفُـــوا إليـــه كـــالجَراد فـــأدبرُوا ... لمـــا رأوه كالـــسّحر مـــرَّ مُقـــبلا

ذُهلوا بـــصاعقةِ المـــدافع فـــانثَنُوا ... يترقَّبـــون إلـــى الـــسَّلامة مَنـــزلا

فترى الكُماة مُمدَّدين علـــى الثَّـــرى ... والخَيْل مـــن وقـــع القَنابـــل جُفَّـــلا

وإلى حَمـــاةِ الـــشَّام ســـار وبَعـــدها ... لمعـــرَّة النُّعمـــان يختـــرق الفـــلا

وغداً يجـــدُّ الـــسير فـــي آثـــارهم ... بمواكـــب وكَتائـــب لـــن تُـــصطلا

حتى أتى حَلَـــب فلـــم يـــر مـــنهمُ ... إلا طَريحـــاً أو جريحـــاً مُبتلـــى

أضحت طَعامـــاً للطيـــور لحُـــومهم ... ودمـــاؤُهم للمـــشرفية مَنهـــــلا

مـــن مُبلِّـــغ الأتـــراك أن جيُوشـــهم كُسرت وأن حُسينهم ولّى إلـــــى

/١٠٦و هل يَغلِبُ الأسد المُجرَّبُ ثعلبٌ مهما استَعان بمكـــره وتحـــيُّلا ؟!

والعزُّ في العـــرب استـــتار مَنـــارهُ ببزُوغ شمسِ مراحمٍ لن تأفَـــــلا

فأقام في تلك الرِّحـــاب ولـــم يَـــزل بالعزِّ مرفُوع الجناب مُبجَّـــــلا

ومنهُم العالم العلاَّمة والأديب الكامل الفهَّامـــة المُعلِّـــم بُطـــرس كَرامة، فإنه مدحه بهذه القصيدة الباهرة، والخريدة النفيـــسة الزَّاهـــرة مُعرِّضاً بها بمدح جَناب أبيه المُعظَّم عَزيز مصر القاهرة :-

فـــتحٌ بـــه الفَـــتْحُ القريـــب مُؤكَّـــد وكَواكـــب النـــصر المبـــين تُوقـــد

والـــدَّهر بعـــد الغَـــدر أصـــبح وافيـــاً يُثنـــي عليـــه بالجَميـــل ويحمـــدُ

والعـــز أشْـــرق فـــي الـــدِّيار مُبـــشراً رُتب العُلى والـــسَّعد جـــاء يغـــرِّد

ومحاســـن الأيـــام ضنّـــاء جبينهـــا بـــين الورى فكأنما هـــو فَرقـــــــدُ

مـــا المَجـــد إلا بالحُـــسَام ولـــم يـــدم شرف الفَتى ما لـــم يـــصنهُ مُهنَّـــدُ

/١٠٦ظ وموارد اللـــذَّات حـــربٌ تـــضرم الأعْداء لا كـــأس تـــدُور وأغْيُـــدُ

يا يـــوم عكَّـــة لـــم يـــدع ذكـــراً لمـــا عبر الزَّمان بـــه ومـــا يتجـــــدَّد

يـــوم بـــه الحَـــرب العَـــوان تـــضرَّمت بقنابل مثـــل الـــصَّواعق ترعـــدُ

رجمـــت بـــشهبِ كُراتهـــا الأسْـــوار من لهب فـــدك الـــشَّامخ المُتوطِّـــد

ورمت بـــصدُور بروجهـــا قلـــل القـــ ـــضا تلك المَدافع فهي طوعاً تسجدُ

وثعالبُ القَبو ذات بين حصُونها ... تقتنصُ كل مُمنع وتُمهِّدُ

فتخَال والهيْجَاء تلهبُ حولها ... نار الجَحيم بجوِّها تتصمَّدُ

سبقت إليها الصُبح أسدَ عرينهُ ... وبغير صُبحٍ حرابهم لم يهتدُوا

من كل أروع قد تعوَّد في الوغَى ... أخذ الكُماة وما يقُول السيِّد

وتراه يبسُم للكفاح كأنما ... ورْدُ الحِمَام لديه نِعْم المورد

وثبُوا على الأسوار ثم تسنَّمُوا ... الأبراج والسَّيف الصَّقيل مُجرَّد

وتجلَّد القوم العداة وإنَّما ... لم يُجدِهم عند العِراك تجلُّد

/١٠٧د نثروا جماجمهم ولم يمنعهُم ... من سيْف أجناد الجهاد مُشيد

وجرى النَّجيح على الطلول فخضَّبت ... كف المعَالم والصَّعيد مورِدُ

أمست خلاءً قد تحمَّل أهلها ... وبذاك خبرها الغُراب الأسْودُ

مهتُوكة الأسْوار تشْقَى بعد أن ... كانت هي الحِصن المنيع المُسعد

عَذْراء تخطبها الملوك ولم تزل ... بكراً إليها قبل لم تُمْدَدْ يدُ

حتى أتَى وافتضَّ منعة غرها ... بحُسامه أسدٌ أبوه مُحمَّدُ

مولى تعوَّد فتح كل مُحصَّن ... والمَرءُ مشغُوفٌ بما يتعوَّد

سَل أهل نجدٍ والحجاز وسَل ... بني قَحطان عنه والفَوارس تشهدُ

يوم أقام الحَرب دائرة على ... الدَّرعية الدَّرعاء وهي تعربدُ

وأذاقها الطَّعن الشَّديد فأخْرَجت ... أيدي الرماح فُؤادها يتنهدُ

وسقى عُبيد الله بعد سعُوده ... كأس الهوان ولم يُغثه المُنجد

وأغـــار فـــي تلـــك الـــدُعار خيلـــه ... حتى أراعهم الظُبا الســـــــدد

/١٠٧ظ ولوى أعنّتهم تكر على بني حَـام ... فسل عما لقتهُ الأعبـــــــــدُ

هلكـــت بنُـــو الـــسُودان فـــوراً ... وانثنت يوم الوَغى وسَوادها يتبـدّدُ

وإلـــى قتـــال المَـــورة المَـــوراء مُـــذ ... رُفع الشِّراع غدت تمُور وتخمـــدُ

ولقـــد أتاهـــا والعَرمـــرَم مُزبـــد ... بعَرمرِم من أسد لا يزبـــــــدُ

وطـــئ المعاقـــل والحـــصُون وقادهـــا ... بمواقع تذكارهُنّ مُخلّـــــــــد

سعدت بـــه هـــذي الـــديار وأخْـــضَبت ... وبأهلها تشْقَى الدِّيار وتـــسعـــدُ

شهمٌ لـــو اسْـــم أبيـــه يُتلـــى بالوغَـــا[1] ... لتفرّقت أعـــداؤه وتبـــــــدّدوا

وإذا تَعاظمـــت الأمُـــور فلحظـــة منـــه ... تحل بهـــا الأمُـــور وتُعقـــــــد

لـــولاه مـــا ســـار الحَجـــيج ولـــم ... يفُز بزيارة البيت الحَـرام مُوحِّـدُ

أمـــر الزمَـــان بـــأن يُـــسالم أهلـــه ... فأطَاعه فيما يـــروُم ويقـــصِـــدُ

فاضـــت يـــداه بـــالنُوال سَـــحائباً ... هتانها صَـــافي اللجـــين وعَـــسْجَد

ملـــك تتـــوّج بالمَحامـــد والثّنـــا ... وبصَارم النّـــصر المَديـــد مُقلـــد

/١٠٨و ولقد غدا بـــين الملُـــوك مُحمّـــداً ... وعلـــيّ شـــأن فَـــضلهُ لا يُجْـــحَد

ولمـــا أراد الله مـــن شـــرف بـــه ... باسْمَين سُميَّ وهو نِعـم المُفـــرد

ذو همـــــةٍ لا مُنتهـــــى لمَرامهـــــا ... وعزائم ترقَى الـــسّماك[2] وتـــصعدُ

ويجـــل قـــدراً أن يقـــال غَـــضنَفرُ ... عنهُ فكـــم ليـــث لديـــه مُخمـــــد

---

(١) كذا بالأصل.

(٢) السماك، إحدى المجوعات النجمية في التقسيم الفلكي العربي الكلاسيكي، ابـن طاووس : فرج المهمُوم بتاريخ علماء النجوم، النجف (د.ت) ص ١١٤.

أضحى بـه الملك السعيد مُشيِّداً ... والمَجد من فرح يقُوم ويقعُد

وأنارت الأمْصار شَمْسَ علائه ... فغَدت تُسبِّح عَدله وتُوحد

لاتجزعي يا عكَّة من ذا البَلا ... وتصبَّري فاليوم يعقبهُ غد

وخُذي لك البُشرى فكفُّ نَواله ... ستُعيد حيك للحياة وترفد

ويفيض من مصر عليك جماله ... فيجود ربعك بالسُّرور ويُعضد

أقسمت بالشرف الرَّفيع ومجده ... وبجُود كفَّيه ولست أُفنِّدُ

لو أن تُقام الزَّاخِرات مدائحاً ... منظُومها بالزَّاهرات مُنضَّد

لم تُحْص مدح أبي الخليل وإنَّما ... بمَديحه حُلي النِّظام المُنشد

/١٠٨ظ لا زال مسعُوداً يُصاحب جيشه ... نصرٌ من الله عليه مُؤيد

وبفتح عكَّة سيفُ إبراهيم قد ... قال المُؤرِّخ ظافر ومُؤيدُ

فأجزل جوائزهم وأحسن إليهم، وأفرغ خِلع اللطف والإحْسَان عليهم.

قُلت وقد تقدَّم البيْتان اللذان اقترحهما الأمير بشير على الشَّيخ ناصيف ليقدمهما إلى مقامه السَّامي المَنيف، فلما بلغاه تحرَّكت منه العواطِف الأدبيَّة، وأخذت بعطفيه هزة الأريحيَّة، لما كان مُنطبعاً عليه من حُبِّ الفَصَاحة والأدب، وذلك على جَمْعه بين السَّيف والقلم شاهد عجب.

فأرسل يطلب من الشّيخ المذكور قصيدة على نَسق قصيدة السيد شَاكر النّحلاوي التي مدح بها الشيخ عبد الغَني النّابُلسي[1]،/١٠٩و فنظم القصيدة الآتية وقد أودع كل بيت منها تاريخين، وافْتَتح صدُورها بحروف إذا جُمعت أعْرَبت عن هذين البيتين :-

أنت الخَليل وفي الأطْلال بردُ لظَى ... أطلالُ عكّا ورفض الرُّعب والحذرِ

١٢٤٨ ١٢٤٨ ١٢٤٨

كُن بالغاً أوج سَعد ما به ضررٌ ... أو غَالباً لم يزل في أوّل الظّفرِ

١٢٤٨ ١٢٤٨ ١٢٤٨

وهما يتضمّنان ثمانية تواريخ في كل شَطر تاريخان كأنها فرقدانان[2] نيّران، وأما القصيدة فهي قوله :-

الزهر تَبسُم نُورا عن أقَاحيها ... إذا بَكى من سَحاب الفَجر باكيها

نور الأقَاحي الذي ما بالحيَاء به ... من صحّة وصفاء عزٌ مُنشيها

تلك الرُّبوع للِيلَى أين مربعُها ؟ ... عن قَصده وسيُوف العَرب تحميها

أدْماء تَجني على الأكْبَاد قاسطةً ... تبَارك الله ما أحْلى تجنّيها

---

(1) عبد الغني النابلسي (١٠٥٠ - ١١٤٣هـ /١٦٤١ - ١٧٣١م) أصله عائلته من نابلس بالشام وإليها نسبته، شاعر وفقيه وأديب متصوف مكثر من التصنيف، ولد ونشأ في دمشق ورحل إلى بغداد ثم سافر إلى مصر والحجاز، ثم عاد واستقر في دمشق وتوفي بها، انظر الزركلي : الأعلام، بيروت (١٩٧٩) ٤ : ٣٢.

(2) كذا بالأصل.

/١٠٩و ليلى، ولي شوقُ قيس في محبَّتـ ـها فشعره فجنون شابهُ فيـها

خالٌ لها عمَّة ورد بدا حَرماً في وجنة حُميت عمن يُدانيها

لله مُقلتها السَّوداء صائدةً قلُوب عُشَّاقها والقِرط راعيها

يقول قَوْمي رويداً قد سقِمتَ هوىً فقُلت مهلاً شفائي في نَواحيها

لعلَّ صَافي نَسيم من خَمائلها أتَى يهبُّ على روحي فيشْفيها

وبي رقاق ليَالٍ في النقاء وفت[1] بيض اللقاء فما أهنى لياليها

في جنَّة حُورها تزهُو بنا وبها لوكان يصفُو خلُودٌ في روابيها

يهزُّني ذكرها وجداً فأعلمه جُرحاً ورُوحي تراه من مَجانيها

اسَاتُ كتم الهوى والصَّب كيف له ستر وأدمعه قد هلَّ واشيها

ليس الهَوى بخفيٍّ عند رادعهُ فكيف ناشِرهُ يَطويه تَمْويها ؟!

استودع الله صبراً ما أمارسه ومُهجة عن جِسانٍ لست أحميها

طاب الهَوى والضَّنى واللوم لي فدمي أسر في بذله في حي أهْلِيها

/١١٠و لبَّيك يا لحظها الجَاني على كبدٍ سَالت أسىً في الهوى لولا تأسِّيها

أن تعْفُ طوعاً فإن العفو لي أربٌ أو لا فريْحَان روحي في تفانيها

ليت الصِّبا عاد لي بعد المَشيبُ على شرط الوفا وهو أدنى من تجلِّيها

---

[1] كذا بالأصل، وبصدر البيت اضطراب واضح.

بكرٌ مُحجَّبـــةٌ لا تتجلـــي لَحِيـــاً[1] حتى من النُّجم حتى ما يُلاقيهـــــا

راق الدَّلال لها والـــذُّل لـــي أبـــداً ولم يُرق كأس وردي من تَدانيهـــا

دمعي ومبسمها الدُّر الثَّمين صـــدىً لمُهجتي فبصبر القلب أرْويهـــــا

لما رأت جدَّ وجْدي فـــي محبَّتهـــا قامت بسيماء هـــزلٍ عينهـــا تيهـــا

ظنَّ الجهُول الهَوى سَـــهلاً لواجـــدٍ مَهلاً فقد تاه جهـــلاً أو عَمـــي تيهـــا

يُهيجه غزلُ عـــينٍ جـــاء حائكـــه يُحيك برد الـــضنَى حُلـــواً لهاويهـــا

إن العيُون التـــي بانَـــت لطائفهـــا لها خَفاءٌ ومعانٍ ليْسَ ندريهـــــا

طلاسِم سحرها المرمُـــوز طالعـــةٌ أشكالُه في سطُور حَار قَاريهـــــا

لـــواحظ لحـــن فـــي زي الحِـــداد لكي يبرُزن حُزناً على قَتلى روامِيها

/١١٠ظ النَّاهبات البَواكي المُبكيات فقد كُفَّت عقُول البرايـــا عـــن مَعانيهـــا

لولا سَواد لها ما ابْيَضَّ فُوديَّ عن شَيبي ولا احْمَرَّ دمعي مـــن تَهاديهـــا

عَسي الذي بصدودٍ جـــاء يأمُرهـــا يجيه غَلطاً هُـــدىً فيُنْهيـــــــيها

كل الجُرحات مُشفيها الدَّواء سوى جِراحها أين حلَّت فهـــي مُـــشفيـــها

إلى العيُون التي في طَرْفها حـــورٌ عهد الرِّعاية رقـــاً مـــن مُحبِّيـــها

ويْلاه من زيفهـــا داءٌ تطيـــب بـــه فلا شَـــفينا بعتـــق مـــن دياجيـــها

---

[1] كذا بالأصل، ولعله أراد "لحيٍّ" أو "لحياء".

رُوحي وعيني فدى عيْن مُطهَّـرة ... ومُهجـــة للتـــي بـــالنَّفس أفْـــديها

فهي الجَميلة لكـــن بـــين عَاشـــقها ... والصَّبر جُودٌ قبـــيحٌ مـــن تَجَافيهـــا

ضاع الزمـــانُ وطـــال الوَجـــد وا ... أسَفِي ولم يقصُر سباقي في تَصابيها

أشَـــابني عتبهـــا قُربـــاً فأزْهَـــدها ... وعيَّرتني بـــشيءٍ جَـــاء مـــن فيهـــا

للشَّيب أنفع طِبٌّ فـــي الفَتـــى نبـــأ ... بمـــا يُـــوافي وترهيبـــاً وتَنْبيهـــا

رأسٌ يصفده نامي الـــصِّبا عبثـــاً ... بـــأدهم الـــشُّعرة النـــدَّاب نَاميهـــا

/١١١و عيشٌ قصير طويل الرُّعب أعدَّ ... له ما يقصر النَّفس قُرباً نَحو باريهـــا

بـــرق المُنـــى خُلَّـــب إلا أقـــلُّ ... حَسْبِي تقرُّ عين به رصـــداً يُـــسلِّيها

والنَّاس من يَـــشْتهي مـــا المَطـــل ... حاصلهُ ومن تفيه عِداة نـــام داعيهـــا

أعُوذ بالله مـــن علـــمٍ بـــلا عَمـــل ... ومن تَـــدارك نفـــسٍ كَـــلَّ راعيهـــا

لوَّامـــة أوقَفتنـــي لا أُطاوعهـــا ... ولا يُحبـــب ضَـــعفي أن أعاصـــيها

حلَّت لها النَّار دُون العَار في دول ... من حَاسديها بـــأرض ســـالَ واديهـــا

ذرْني وما بي، هل لومٌ يلُـــمُّ بهـــا ... وقد مُلئت ومُلِّـــت مـــن أعاديهـــا ؟!

رماحكم يـــاكِرَام الحـــيّ لا تقفُـــوا ... ولا تَـــرُعْكُم بُلـــىً جـــدَّت دَواهيهـــا

كُل البَلايا من الدُّنيا متى نزلت بنا ... فنيـــران إبـــرهيم[1] تُفنيهـــا

نارٌ ونور مَتى قـــال النُّـــزال لـــه ... والجُود هات يـــداً لـــم يُلـــق ثانيهـــا

---

[1] كذا بالأصل.

بَنى من العـز بيتـا دون أعمـدةٍ ... سِـوى قنـاةٍ لـه عـزّت مبانيهـا

اللوذَعيُّ العزيـز البَاسـل المَلـك ... الغَازي الملا بيـدٍ حَـسْبي أياديهـا

/١١١ظ للسيفِ والرُّمح والأقْلام قد ... ولـدت رَاحاتـه ولـسُؤال تفاجيهـا

غازٍ مَهيب حَسيب ماجـدٍ نَجِـبٌ ... صافي الصِّفات نفيس النَّفس زاكيها

أقوالـه خُطـبٌ، أفعالـه شُـهبٌ ... آراؤه قُـضبٌ بـالله حَاميهـا

أحيى[1] المَحامـد مفـداةً مُـسلَّمةً ... الـيس أمْوالـه تفنـى وتُبقيهـا ؟

ورد ما مرَّ من عَدل الـصَّحابة لا ... يلهُـو بزهـر ولا خَمـر يُعاطيهـا

جِرار خَيْل يحل البَـأسُ جانبهـا ... والفتحُ والحَتف عـدلاً بـين أيـديها

سَل قوم عكّاء حين أربد مَـشرقها ... والشَّام والتُّرك لمـا اسْـودَّ ناديهـا

عبد الخَليل لعبـد الله صَـار بهـا ... اسْماً، وشبه اسمه راحـت أسَـاميها

داس الـبلاد بـإذن الله يكْـسِرها ... وتكسر[2] السَّيف نزعاً من نَواصيها

ماجت سَراياه أمجـاداً بـساحتها ... تُبقـي وفيـاً وتُبلـي مـن يُعاديهـا

أحبِب بأصـيدٍ تحكـي[3] الـدَّهر همَّته ... لكن متى ناب شرٌ من يُحاكيها؟

بعيدُ قدر عن الأمْثال ليس له شـبه ... فمـا مَدحـه مـا جَـاء تـشبيها

---

[1] كذا بالأصل.

[2] كذا بالأصل، والصواب "يكسر".

[3] كذا بالأصل، والصواب "يحكي".

/١١٢و هوالذي حجَّ آل البيت[1] جـاء ... به بعد الذِّهاب جلَّى الطرق جَاليهـا

ضل السَّعودي وهاب السُّواد فمـا ... أهـداه إلا بَبـرق البِـيض واليهـا

رسُول حق نزال الحَـرب سُـنَّته ... وفـرض الجـدّ بالجَـدوى يُواليهـا

دام الحِجاز وسُود الزّنج ثم وفـي ... فيهـا القتـال وأمُّ الـرُّوم يرميهـا

الله أكبر، هذا حـالُ مـن جلـس ... الأيَّام فوق سُـروج الخيـل يُـدميها

والحَمـد لله لـم تقـصُر بـواكره ... في ما يقُوم ولم تحـصر مـسَاعيها

غـلاب نـادٍ، وأجنـاد يعاهـدُ ... نصرٌ قريب علـى لُطـفٍ يُماشـيها

أحْصَي المُنى والثُّنا والحَزم والكَرم ... الأسْنَى وآيات عدلٍ لـست أُحْـصيها

لا أعقب الويْل مُصرّاً وهو تَاركها ... همُّـا فجـود يديـه جـاء يُغنيهـا

بحرٌ وبدرٌ وليثٌ لايُرد لـه أمـر ... وصِمـصامة سُـبحان باريهـا

أبو الفتُوحات، أم الحَرب طاهيها ؟ ... سُلطان سَاحات بر العَـرب واقيهـا

له البلاد بأشـخاصِ العبـاد بمـا ... أبْقَى التِّلاد بمـا حَاطـت أقَاصـيها

/١١٢ظ مُحمديٌّ عليٌّ شأنه كَـسرت ... طوارقَ الرُّوع باسـمٍ منـهُ يأتيهـا

يا يوم عُثمان لـم يقـظ بَبـاكره ... إلا حَنايـا ظُعـون وهـو حَاديهـا

زلّت به قدمٌ جَـاءت بـه مرحـاً ... فولـت القَهقَـرى والجـسم يُنعيهـا

---

[1] كذا بالأصل، وبصدر البيت اضطراب واضح.

لسيف سُلطان مصر هيْبـةٌ لقـى ... البلاد حي بها يـا سـيف غَازيهـا

فاق الثُّنا أنَّـك الـدُّنيا وقاهِرهـا ... سَـعداً وحاكمهـا حقّـاً وقاضِـيها

يا فاتح المنصب الطاري ندىً وردىً ... على الصَّدى والعِدى يُخلي طَواريها

أتيت نحوك أحيِّي الليل عن عجـلٍ ... واقتُـل الخيـل جوابـاً أزجيهـا

والله يشهدُ كم ليـل سَـهرتُ بكُـم ... أجلُـو رَقِيمـة دُرٍّ رد جَاليهـا

لم يأتهـا قبـل إلا شـاكر عجبـاً ... وجئـتُ بعـد فأهـدتني قَوافيهـا

أبقَت صُداعاً بـرأس راح يـسلُبه ... وحبَّـذا سَـلب أدواء تـداويها

لم ألق كُفـواً لهـا ممَّـن رفعـت ... يدي قبلاً إليـه فلـم أهـتم تنزيهـا

ظلَّ البديع لهـا عبـداً يلـم بهـا ... وكل خَطـبٍ سـليم عنـد رَاقيهـا

/١١٣و فأنعم بها، وهي فلتنعم بمُكرمها ... جُـوداً ومُعظمهـا جاهـاً ومعليهـا

رَاقت كـأدنى مَعانيـك الحِسان ... فما آيات حقٌّ كـشطر مـن مَبانيهـا

سنة ١٢٤٨

فلما وقف على هذه القَصيدة الأنيقة، وتأمّل مـا فيهـا مـن الألفاظ الرَّقيقة، والمعاني النفيسة الدَّقيقة، مع ما انْطوت عليـه مـن سلامة التركيب وحسن الانْسِجام وعذُوبة الأساليب، وعلى ما فيها من الصناعة التاريخية، والالتزامات البديعية أُعجب بها غاية الإعْجَـاب، ووقعت عندهُ موقع الاسْتِحسان والاسْتِعذاب، فأنفذ إليه عـشرة آلاف

غِرش، وخَاتماً من الياقوت الفاخِر على ما اعتاده من جميل المكَارم، وبديع المآثر.

/١١٣ظ واستقرَّت لإبراهيم باشا ولاية عَربستان فنادى بالعدل والأمان، وعامل الناس باللطف والإحْسَان، وضبط الأمُور والأحْكَام على أحسن ترتيب وأكمل نظام، وأقام سَعادة شَريف باشا حِكمداراً على مدينة دمشق الشَّام بأمر الحضرة الخديوية - ذات المآثر السنيَّة - فعلا في البلاد شأنه، وارتفع مكانهُ، وساعدته الأقدار ودانت له الأقْطَار، واستنار عمُوم الأهالي بصبح عدلهِ المُتلالي في ظُلمات الليالي.

ومن أعماله المُرضية التفاته إلى أخبار الرَّعية، والبَحث عن أحوال الأحْكَام، وتصرُّفات الولاة والحُكَّام، بحيث لا يراعُون في الحق أميراً، ولا كَبيراً ولا /١١٤و صَغيراً.

وكان إذا سافر إلى بلدٍ لا يُحب أن يدخلها بالاحْتفال وكثرة العَدد، بل مُتخفِّياً حتى لايعلم به أحد، ولم يكن يُفرِّق في التَّأديب بين القويّ والضَّعيف، والحقير والشَّريف، ولا يُراعي جانب أحد في القِصَاص ولو كان من أحبَّائه الخَواصْ، ولذلك لم يكن أحد من أجناده وأكابر ضبَّاطه وقوَّاده يتجاسر أن يَحيد عن طريق الصَّواب بشيء من أنواع الظُّلم والارْتِكاب.

وكان النَّاس يهابُونه ويحترمُونه ويخافُونه لشدَّة بطشه وصَرامة أحْكَامه، ولذلك انتشر العدل والأمان في أيَّامه فإن بعض

التجَّار – من أهل المَناصف والشحار – ذهبُوا /١١٤ظ يشترُون غَنماً من نواحي حِمص وحَما[1] فسَطا عليهم قوم من العرب وسلبُوا ماكان معهم من الفضَّة والذَّهب، فحضروا إليه وتمثَّلوا بين يديه وشكُوا أمرهم لدولته، فأمر لهم بدفع المَال من خزينته، وأرسل واحداً منهم من ذلك اليوم دليلاً على أولئك القوم، فحصل منهم ما سلبُوه من الدَّراهم، وأدَّبهم بالقَصاص الصَّارم، فتأمَّنت الطُّرقات وتمهَّدت السُّبل في سائر الجهات، وانْقطعت أسباب الفتن والحَركات حتى لم يعُد أحد يتعدَّى على أحد، فكانت النَّعجة ترعى مع الذِّئب، والخرُوف يبيتُ في حُضن الأسَد.

حادثة عجيبة ونادرة غريبة

/١١٥و وكان إبراهيم باشا مع شَجاعته وحُسن تدرُّبه في أبواب الحرب وبراعته ذا سياسةٍ ونباهة وفراسة، وله في ذلك نوادر كثيرة وحكايات شَهيرة، منها أن رجلاً من أهل رأس بيْرُوت مرَّ ذات يوم على الرَّمل[2]، وأوغل في ذلك السَّهل فرأى في طريقه رجُلاً مقتولاً في تلك القِفار، فارتاع لمنظره، وأخذته الرِّعدة والاقْشِعرار، فرجع على الأثر، وحدَّث المُتسلِّم بذلك الخَبر.

---

(١) كذا بالأصل، ولعله أراد "وحماة".

(٢) كذا بالأصل.

وكان مُتسلِّم المدينة يومئذ رجلاً علـيَّ الهِمـم، موصُـوفاً بمكارم الأخلاق وحُسن الشِّيم، ممدُوحاً عند الغائب والشَّاهد يقال لـه حُسين افندي راشد، فبادر بإحْضَاره واستِكشَاف أخبـاره، /١١٥ظ وإذا هو رجل غريب، ليس له في المدينة خليل ولا قريب، فتألَّم المُتسلِّم قلقاً وكدراً، وقبض من أهل رأس بيرُوت على نحو عـشرين نفـراً، وسألهم عن ذلك المقتُول فقالوا ليس عندنا علمٌ بـشيء ممـا تقـول، فتهددهم بالضرب الأليم، وألقاهم في السجن تحت التَّرسـيم، وكـان كثيراً ما يستحضرهم ويتهدَّدهم ويسألهم ويتوعدهُم.

واتفق حضُور إبراهيم باشا في تلك الأيام من مدينة دمـشق الشَّام، فأوقفه المُتسلِّمُ على واقعة الحال، وأخبره بما فعل من حَـبس أولئك الرِّجال، فقال له :- "إنك بما فعلـت قـد أخطـأت الغَـرض، وركبت الشَّطط ؛ لأنه من المُستحيل أن يكون القاتل أكثر مـن /١١٦و رجل أو رجُلين فقط، وها أنت قد سجنت نحو عِشْرين رجلاً من أهل البلد من حيث لم يقع لك شُبهة منهم على أحد"، ثم أمر بإخراجهم من السجن وإحضارهم إلى ما بين يديه، فأخرجُوهم وأحضروهم إليـه ؛ فتأمَّل فيهم واستَنطقهُم، وبعد ذلك أطلقهم واستدعى بأحد الجَاويـشية وأصحبه بخَمْسة أنفار من البَلطجية، وقال له أريد منك أن تذهب إلى رأس بيرُوت في الحال من غير إهمال ولا إمْهَال، وتأتيني بأصـحاب الدُّكاكين والخمَّارات الذين يبيعُون المُسكرات، فامتثل ما أُمر، وفعـل كما ذكر.

ولم تكن إلا سَاعة حتى جاءهُ برجُلين من تلـك الجماعـة، فاختَلى بأحدهما وقال له اصدُقني /١١٦ظ بالكلام وإلا انتقمت منك أشد

الانتقام، هل مرَّ عليك منذ يومين أو ثلاثة أيَّام بعض أنفـــار ومعهُـم رجل غريب الدِّيار؟، فقال لا والواحد الأحد إنه لم يمر علي أحد، ثـــم طلب الآخر وسأله ذلك السُّؤال وتهدده بالمقَال فقال نعم يا ولي النِّعم، قد حضر إلى دُكَّاني منذ يومين عند المساء ثلاثة أشـــخاص غربـــاء، فطلبوا منِّي طعاماً وفاكهة ومُداماً، فأتيتهم بالمطلُوب مـــن المـــأكول والمشرُوب، وأقامُوا عندي ولعبوا بالقمار طول ذلـــك النهـــار، ثـــم انصرفُوا بالسلامة والأمان، وفي الصَّباح رجع منهم اثْنَان، فقال لـــه إبراهيم باشا لقد قُلت الحـــق ونطقـــت بالـــصِّدق، وأنـــا أريـــد الآن إحْضَارهما /١١٧و منك حتى أُطلق سبيلك وأصفح عنـــك، ثـــم أمـــر الجاويش أن يذهب معه ويعاونه في التَّفتيش، فذهبا جميعا ولم تكـــن إلا ساعة حتى أتيا بهما إلى حضرته سريعاً، فقـــال لهمـــا "ويْلكُمـــا أصدقاني أين رفيقكما الذي كان معكما في اليوم الفُلاني ؟، فلما سمعا كلامه وعرفا مَرامه رجف قلبهما، وازداد رعبهُما، ولم يـــسعهما إلا الإنكار خوفاً من الهَلاك والبَوار ونزول الدَّمار.

فألقاهما تحتَ الضَّرب والعقاب، ولما طال عليهما العَـــذاب أقرَّا بأنهما قَتلاه وأخذا ماله ودفناه، فالتفت إبراهيم باشا إلى المُتـــسلِّم وأرباب الدِّيوان ومن حضَر في ذلك المكان من الأكـــابر والأعْيَـــان وقال لهم هذان هما المُجرمَان، ليس كما ظَننتُم أنـــتم، /١١٧ظ فتعجَّـــب الحاضرُون من فطنته وقوة ذكائه ومعرفتـــه، فـــأمر بقتلهمـــا أمـــام الجمهُور، وأن يلقُوهما في ذلك المكان الذي قتلا فيـــه ذلـــك الرجـــل المذكُور، وكان ذلك الدُّكان الذي سكروا به، وقتل ذلك الرجل بـــسببه

يُقال له دكان الزَّيْدانيَّة، فأمر بهدمه وتعطيله بالكُلِّيَّة، وبقي مهدُوماً معطلاً إلى أن خرجت الدولة المصريَّة من بلاد سُوريَّة[1].

وفي تلك الأيَّام اعتزَّ الأمير بشير بإمداد إبراهيم باشا وتأيَّد، وطالت يدهُ في ولايته وتشيَّد[2] حتى كان يُحسب أن ذلك الزَّمان كان أول حاكمٍ على جبل لبنان مع أنه كان والياً في الجبل المذكُور منذ خمس وأربعين سنة وكسُور، ولكن كانت /118و يده مغلُولة من مناصب البلاد، فلم يكن يستطيع أن ينفذ أحكامه على حسب المُراد، لأن مُشير الأحكام في تلك الأيام كان تارة لا يقدر أن يُعطيه قوَّة ليتقوَّى عليهم، وتارة [كانوا][3] يستميلونه بالرِّشوة فينعطف إليهم.

فلما تولى إبراهيم باشا التي[4] كانت ترجف الجبال من سَطوته، وترتعد فرائصُ الرجال من هيبته ؛ انبسطت يد الأمير بهيبة هذا الوزير، حتى صارت المناصب وأهل الجبل تخاف من خادمه أكثر ممَّا كانت تخاف من شخصه في الأيام الأُول.

---

(1) يقول المؤلف المجهول أن إبراهيم باشا هو الذي أمر بإنشاء الخمارات في بلاد الشام، ولم تكن تلك المواخير معروفة آنذاك بالشام وهذا واضح من استياء المؤلف المجهول الذي قال ما نصه "وتشوَّف الاسلام بأسوأ حال لأنه شيء مثل هذا عمره ما صار ببلاد الشام" كما أن إبراهيم باشا طلب أن يكون ضمان الخمارات بالشام سبعمائة كيس سنويا، انظر مذكرات تاريخية، ص٦٦.

(2) كذا بالأصل، ولعله أراد "وتسيَّد".

(3) زيادة اقتضاها السياق.

(4) كذا بالأصل.

في تمرُّد دروز حوران مع شِبل العريان وانقيادهم إلى الطاعة بعد العصيان

فلما استَخلص إبراهيم باشا قُطر الشَّام وصفت له الليالي /١١٨ظ والأيَّام كما تقدم الكلام أرسل الأوامر والمَناشير إلى الأمير بشير يطلب منه أن يجمع من الدُّروز ألفاً ومائتي نفر ليدخلهم في سلك العَسكر، فامتثل أمره وبادر بالعَجل، واستدعى إليه مناصب درُوز الجبل، وأخبرهم بما كان، وعيَّن على كل مُقاطعة كميَّة من الشبان، وأمر المَناصب وأرباب الوظائف والمَراتب أن لا يأخذُوا من ليس له عوض، ولا من يكُون به علَّة أو مرض، وأن ينتخبُوهم من ابن خمسة عَشرة إلى ابن خمس وعشرين سنة، وحدَّد لهم في ذلك مدة مُعيَّنة.

فلما شَاع هذا الخبر ونما بين الدُّروز وانتشر أثر ذلك في قلبهم أعظم أثر فهاجَت منهم الشُّبان، وأظهروا الخلاف والعِصيان، فغضب /١١٩و الأمير من أعمال الدرُوز وقال لهم إنكم تريدون أن تعصُوا الحكومة وذلك لا يجُوز، فيلزم أن تطيعوا الأوامر وإلا أدْهَمكُم بالعساكر، وأنهب أموالكم وأقتل أطفالكم، ثم جمع إلى بيت الدين جميع المطلُوبين وأرسلهم إلى عكَّا بالقوة الجبرية امتثالاً للأوامر السنيَّة، وهناك أدخلوهم في وجَاق العسكريَّة.

واتَّفق بعد ذلك بأيام أن إبراهيم باشا كتب إلى شَريف باشا والي دمشق الشَّام يأمره بأخذ نظام من دروز حُوران ووادي التَّيم وإقليم البلان، فأجاب بالسَّمع والطاعة، وشرع في ذلك الأمر من تلك

الساعة، فلما بلغ الدُّروز هذا الخبر زاد عندهم القلق والضَّجر، فأظهروا له التمرُّد والعناد، وعدم الطَّاعة والانْقِياد، فازداد /١١٩ظ شَريف باشا عليهم حنقاً وكدراً، وأرسل لمُحاربتهم عَسكراً فلم يظفر منهم بمُراد لأنَّهم كانوا قد اتَّحدُوا مع عرب تلك البلاد، وانْضَاف إليهم جماعة من درُوز لبنان وسكان وداي التيم وإقليم البلان، وغيرهم من أهل البَغي والفَساد تحت راية الشَّيخ حسن جُنبلاط، والشيخ ناصر الدِّين العماد حتى صاروا في عشرة آلاف مُقاتل بين فارس وراجل، فكانُوا يربطون مسالك الطُّرق وينهبون القَوافل بين بيروت ودمشق ويقتلُون من استفردوه من عسكر النِّظام، ولم يحسبُوا في كل ذلك لعواقب الأيَّام.

فلما رأى شَريف باشا ما فعلوه أرسل إليهم عسكراً آخر فحاربوه وهزمُوه، وكانت دُروز /١٢٠و وادي التيم وإقليم البلان ينجدُونهم بالرِّجال والفُرسان، ولما بلغ إبراهيم باشا هذا الخبر استولى عليه الغيظُ والكَدر، وكتب إلى أبيه بمصر يُعلمه بهذا الأمر، ويلتمس منه إرسال عسكر من الأرناؤُط بالعجل لأن عَسكر النِّظام يتعسَّر عليه الحَرب في الجَبل، فجهَّز له أربعة آلاف مُقاتل تحت لواء مُصطفى باشا كامل – وكان بطلاً هُماماً، وشُجاعاً مِقداماً – فوصل في أقرب زمان إلى عربستان، وحارب الدُّروز في الوَعرة سنة ألف ومائتين وإحدى وخمسين من الهِجرة، وجرت بينه وبينهم عدة وقائع مُنكرة في تلك الأمَاكن المُوعرة.

وكانت دُروز البلاد ومن اشترك معهم في هذا الفساد تنجدهم أولا /١٢٠ظ سرَّاً ثم علناً وجهراً تحت راية شِبل العريان، وكان من

فحُول الفُرسان، موصُوفاً بالشُّجاعة وقوة الجِنَان، فغضب إبراهيم باشا بهذا السَّبب، وكتب إلى الامير بشير من حَلب يذكر له ذلك الخَلل الواقع من درُوز الجبل، ويأمره أن يُبادر في الحال بإرسال حفيده الأمير مجيد[1] قاسم في جماعة من الأبطَال إلى وادي التَّيم وإقليم البلان لإرهاب درُوز لبنان لئلاَّ ينجدُوا دروز حُوران، وأن يُرسل حفيده الأمير محمُود خليل إلى حاصبيا على الأثر في ألف وخُمسمائة نفر ليُقيم في دار سَرايا الأحْكَام مع عسكر النِّظام ؛ فأجاب وامتَثل، وأرسلهما على عجل.

ولما بلغ الأمير مَجيد إقليم البلان أطلق /١٢١و الغارة على العُصاة المُتجمعين في ذلك المكان، فهزمهم[2] على أعقابهم، واستولى على أسْلابهم بعدما قتل منهم مائة وخمسين رجلاً، وملأ قلوب من بقي خوفاً ووجلاً، وأما الأمير محمُود فنزل في دار السَّرايا بمن معه من الجنود، وفي أثناء ذلك قدم إبراهيم باشا إلى حاصْبيا[3] للانتقام من الدروز، وكان وصوله إليها في اليوم الخامس من شهر تمُّوز، وكان قد بلغ الدروز في بعض الأيام أنَّه قادم ذخائر إلى عسكر النِّظام من مدينة دمشق الشَّام فطمع الشيخ حسن جُنبلاط بنهبها وأرسل خُمسمائة نفر لأخذها وسلبها، فالتقوا بها في بعض الطَّريق، وكانت عدة صناديق من البَارود والدَّقيق، /١٢١ظ فلمَّا أبصروها انقضُّوا عليها واستخلصُوها.

---

(١) كلمة "مجيد" استدراك أثبته المؤلف أعلى السطر بين كلمتي الأمير – قاسم.

(٢) كذا بالأصل، ولعله أراد "فردُهم".

(٣) حاصبيا مدينة صغيرة تقع على نهر الحاصباني إلى الشرق من مرج عيون.

واتّفق في ذلك الوقت قدوم مُـصطفى باشـا مـن الـوَعرة بالعَساكر فالتقاهم في الطَّريق واستخلص منهم المُؤن والذَّخائر، فلمـا بلغ الشَّيخين هذا الخبر بادر الشيخ حُسين على الأثـر وقـصد ذلـك المكان بسُبعمائة نَفر، وتبعه الشيخ ناصر الدين بـستمائة وخَمـسين، ولما أشرفُوا على المكان المعهُود أطلقوا على مُصطفى باشا نيـران البَارود، وعلا ضجيجهم كأصوات الرعُـود، فاسـتقبلتهم الأرنَـاؤُط بقلوبٍ كالجبال، واشتبك بينهم القتال، وأخذت نيـران الحـرب فـي الاشتِعال حتى تزلزلت من ضجيجهم أرض وادي التّيم.

وكان الرَّصاص يتناثر كالبرد، ودُخان /١٢٢و البَارود غطَّـى الآفاق كالغَيم، واستمر القتال بين الفريقين نحواً من ساعتين، وكـان إبراهيم باشا يومئذ في حاصبيا بالقُرب من ذلك المكان، فلمـا بلغـه الخبر نهض مسرعاً بأربعمائة مقاتل من الفُرسان، ولما وصـل إلـى ساحة المَعْمَعة ورأى تلك الأحزاب المُتجمِّعـة أطلـق علـيهم نـار الدَّائمة[1]، وأمر العَساكر أن تُبادرهم بالمُهاجمة، فأطبقُوا عليهم مـن كل جانب، وحملوا عليهم كالسَّلاهب[2]، وضـيقوا بهـم المَـسالك والمذاهب، وأخذوا يذبحُونهم كالغَنم، ويقطعونهم تقطيع لحـم علـى وضَم، فقتلوا منهم ستِّمائة وعشرين، وكان من جملة المقتُولين الشيخ ناصر الدِّين، ولم ينج من أصحابه سوى خمسين.

---

[1] كذا بالأصل.

[2] كذا بالأصل.

وأما الشَّيخ /١٢٢ظ حسن جُنبلاط ومن بقي معه من مشايخ الأرهَاط فلما أيقنوا بالعَطب، وعلمُوا أن لا نجاة لهم إلا بالهرب، ولوا بكل خفَّة وسُرعة، وقصدوا قرية شِبعة، فدهمهم إبراهيم باشا في ثاني الأيَّام بجمُوع الأرناؤُط وعسكر النِّظام، فانقلبُوا على أعقابهم يطلبون الفرار، وقتل منهم جُملة أنْفَار، وفر شبل العريان بمائة فارس إلى حُوارن، ودخل المصريُّون إلى القرية فنهبُوها، وقتلوا من وجدوا بها من العُصاة وأحرقُوها، ولم يبق من أهلها إلا من كان طفلاً أو نائحة تصرخ صراخ الثَّكلى، ثم أحرقُوا بعدها أكثر القُرى، وتركوها عِبْرَةً لمن يرى، فندمت الدُّروز على ذلك الرأي الوخيم، ولم يعد يمكنها إلا الانْقِياد والتَّسليم، /١٢٣و والامْتثال لأوامر إبراهيم.

ولما يئس شِبل العريان من بلوغ الوَطر، ورأى نفسه عُرضةً للخطر ؛ ندم على سوء عمله، وأيقن بحلول أجَله، فحضر في جماعة من الأبْطَال إلى إبراهيم باشا - صاحب السَّعادة والإقبال - فاعتذر إليه ووقع على قدميه مُلتمساً منه الرِّضى والعفو عمَّا مضى، فتعطف عليه بمَراحمه، وصفح عن جَرائمه، وغمره في بحر كَرمه، ونظمَهُ في سلك خدمه، وجعله قائداً على ألف فارس من الهوَّارا[1]، فاكتسبَ فخراً واعتباراً وتحسَّنت أحواله بهذه الخدمة وصار له بين الناس منزلة وحُرمة.

حرب نُزيب على وجه مُختصر

وفي سنة ١٢٥٥ هجريَّة الموافقة لسنة ١٨٣٩ مسيحيَّة /١٢٣ظ صدرت الأوامر السُّلطانية إلى حافظ باشا أن يتجهَّز في الحال ويسير

---

[1] كذا بالأصل.

بالرِّجال والأبْطَال لاستخلاص بلاد سُوريَّة من يد الدُّولة المصريَّة، فامتثل الأمر المُطاع، وسَار على قدم الإسْراع في تسعين ألف مُقاتل بين فارس وراجل، قاصداً عربستان من غير تأخير ولا توان، وما زال سائراً بذلك الموكب حتى انتهى إلى نُزب[1]، وهو سهل فسيح الرحاب بين بَراجِيك[2] وعَيْنْتَاب، فزحف إليه إبراهيم باشا بالعساكر المنصُورة، وصَدمه يوم الجُمعة الواقع في [3] من السنة المذكُورة، وبعد المُصادمة من العسكرين والمُكافحة من الطَّرفين تزعزعت جيُوش الأتراك ووقعت في /١٢٤د سُوء الارتباك من تواتر الحَملات والهجمات، وضرب السيُّوف وطعن السُّنكات، فتأخر إلى الوَرا، وتقهقَرت في تلك الصَّحرا طالبة مَرعش وتلك الأطْرَاف، بعد أن قتل منهما نحو ثلاثة آلاف، وأُسر حَافظ باشا وزيرها ومدبِّر أمُورها ومُشيرها، واستحْوذ المصريُّون على مُهمَّاتها وأثْقَالها، واستولَوا على ذخائرها وأموالها.

ورجع إبراهيم باشا ظافراً منصُوراً، وعدوه مُدْبِراً مقهُوراً، وانتهى إلى الأستَانة خبر هذا النَّصر بعد ثمانية أيام من وفاة السُّلطان محمُود، وجلوس ولده السُّلْطَان عبد المَجيد.

في خروج الدولة المصرية من بلاد سُورِيَّة

وكان بعد أن فاز إبراهيم باشا وانتصر في حرب نُزب /١٢٤ظ - كما تقدم الخَبر - ورفعت جيوشه رايات النَّصر والاسْتِظهار،

---

(١) نزب أو نزيب مدينة تقع على التخوم بين الشام والأناضول وهي اليوم على مقربة من خط الحدود السورية التركية، تقع بين عينتاب وبراجيك.

(٢) براجيك مدينة تقع بين سروج إلى الشرق ونزيب إلى الغرب.

(٣) بياض بالأصل.

وحلَّ ما حلَّ بأعدائه من السُّقوط والانْكسار، حاذرت الدول الإفْرنجية أن يفتتح القُسْطَنطينية، ويجلس على تخت السلطنة العُثمانية، ولذلك اتَّحدت الدولة الإنكليزية مع الدولة الرُّوسية والنمساوية البُروسيانية على ترجيعه من تلك الدِّيار، إما بالطَّوع والاختيار، أو بطريق الإكْرَاه والإجْبَار.

وفي ١٥ تمُّوز سنة ١٨٤٠ مسيحيَّة عقدوا في مدينة لوندرا جمعيَّة للبحث والمُفاوضة بهذه القضيَّة، وبعد عقد جلسات مُتعدِّدة فرضُوا عليه شُروطاً وأحكاماً مُقيِّدة، وبنوا على ذلك التَّحالُف والمُعاهدات على ما أرادُوا من المَقاصد والغَايات، وأمْضَى بالمصَادقة /١٢٥و كل من تلك الدُّول المُشار إليها، فكان جُلَّ ما سطَّروه وفَحوى ما استحسنُوه وحرَّروه هو تقرير ذاك الهُمام الأعْظَم والخديوى الأكْرم الأفخم مُحمَّد علي باشا - ذي الأخْلاق الرَّضية - على ولاية الأقْطَار المصريَّة مع قسم صغير من الدِّيار الشَّامية، ويكون ذلك من بعده لذُريته وأولياء عهده، وشدَّدوا عليه في الكلام أنه من بعد وقُوفه عليها بعشرة أيام يسحب عَسكره من أطْراف بر الشَّام بلا نزاع ولا خصام.

فعند وقوف ذلك البطل الهُمام، والليث الباسل الضَّرغام على هذا الطَّلب - الذي يستحقُّ العَجب - عظُم الأمر لديه، ولم يُصادق عليه لكونه /١٢٥ظ خارجاً عن دائرة العدل والإنْصَاف، وكأنَّ ما حملهُم عليه [هُو][1] الميلُ والانْحِراف، فما كان من الملوك المُتحدة

---

[1] زيادة اقتضاها السياق.

والدول المُحتشدة إلا أنها اتفقت مع الدولة العليَّة بإشْهار الحَرب على الدولة المِصريَّة، وأرسلت الدولة الإنكليزيـــة ســـنة ١٨٤٠ مـــسيحيَّة عِمارة بحرية مشحُونةً بالعَساكر والمُهمَّـــات الحربيـــة إلـــى أسَـــاكل سُوريَّة تحت قيادة اللورد شَارلس ستابغُورد، فضرب بيروت الضَّرب المهُول، فسلَّمت في الحَادي عشر من شهر أيلُول، وأما باقي الثُّغـــور كطرابلس وصيْدا وصُور فحيث لم يكن فيها من القلاع ما يقوم بحقِّ الدِّفاع اضْطرَّت أيضاً إلى التَّسليم بعد جهاد عظيم.

/١٢٦و ولما استولوا على هذه الأسَـــاكل شـــحنُوها بالعـــساكر والجَحافل، وقصدوا قلعة عكَّا الـــشَّهيرة بتلـــك المَراكـــب والقـــوَّات الكثيرة، وأطلقُوا عليها مدافعهم وقنابلهم، وكانت المدينـــة تُحـــاربهم وتُناضلهم، وجنُودها تجد في نيل مراكز المجد والظَّفر، غير مُباليـــة بالأهوال والخَطر، واستمر القتال على هذا المِنْوَال ثلاث ساعات بـــلا انْقطاع ولا انْفصال حتى أوشك أن يكلَّ كلا الفريقين سويَّة، وكـــادت تقع الكَسرة على القوَّات الأجنبيَّة، فاتَّفق بأمر الواحد الأحد، والفـــرد الصَّمد وقُوع كلَّة على جَبْخَانة البلد فاحترقت في الحال، وقتلت عدداً كثيرا من الرجال، وبهذه الوسيلة ضعُفت قُواها /١٢٦ظ وسُـــلِّمت إلـــى عـــداها.

وكان حدوث هذا الأمر الربَّاني في اليوم الثالث مـــن شـــهر تشرين الثَّاني، وحينئذ استَولى عليها المُتعاهدون وهم ببطش العساكر المصرية وبسالتهم يتحدَّثُون، ولما رأت الحضرة الخديوية أنها أمْسَت تُحارب أقْوَى الدُّول الأوربَّاوية ؛ سحبت عَساكرها من الدِّيار الشَّامية بعد حرُوب عديدة، ووقائع هائلة شَديدة.

وما زال مُحمَّد علي باشا في عزّه وفخره، ونهيه وأمره إلى أن بلغ الثّمانين من عُمره، فاعتراه مرضٌ سَوْداوي أحدث خللاً في فكره – الذي كانت تضرب بصحتِه الأمثال، وتستمد به فحُول الرِّجال – وبعد ذلك بسنة انتقل إلى /١٢٧د جوار الملك العلاَّم، وكانت مُدة حُكمه خمساً وأربعين سنةً وعَشرة أيّام، وكانت وفَاته في اليوم الثّامن من شهر آب سنة ألف وثمانمائة وتسع وأربعين مسيحية، الموافقة لسنة ألف ومائتين وخمس وستّين هجرية، فتقطّعت عليه القُلوب حسَرات، وانسكبت لفقده العَبَرات، وعظُم ذلك على جميع أهل مِصر، وناحُوا عليه نُواح الخَنساء على صَخر.

فسُبحَان الحيِّ الدّائم صاحب الملك والجبرُوت والصّمَد الذي لا يتغير ولا يمُوت، وكان يُلقب بالخديوي نسبة إلى "خُداي"[1] بالفارسية وهو اسم الله، وجرى هذا اللقب من بعده على أولياء عَهده وخُلفاه الذين سَمت بهم المَراتب، وعلا مَجدهم هام الكَواكب، /١٢٧ظ وسارت بذكرهم الرُّكبان، وهامت الشُّعراء بمدحهم في كل مكان.

ولاية المُهام الأعظَم إبراهيم باشا الأفخَم

تولّى بعد تنازل أبيه، وكان في الأحكَام يقتضيه، وقد ذكرنا فيما تقدَّم مَناقب هذا الأسَد الغَشْمَشَم، والخديوي الأعظَم، وما أجْرى الله على يده من الوقائع المشهُورة، والفتوحات المأثُورة، فلما استبدَّ

---

(١) خداي بالفارسية هي اسم الله المركب تركيبا مزجياً من خود بمعنى الذات ومن آي بمعنى أتى والمعنى "واجد الوجود"، والخديو تعني المالك، آدي شير : الألفاظ الفارسية المعربة، القاهرة ١٩٨٨، ص ٥٢.

بزمام الأحكام قام بتدبيرها أتمَّ قيام، وتحلَّت بحُلـيٍّ بمـآثره الليـالي والأيَّام، فعامل النَّاس بالمعرُوف والكَرم، وأصلَح بين الذِّئب والغَـنم، واقْتَفى أثر والده في العدل، وعُلو الهِمـم، /١٢٨و ومكـارم الأخْـلاق وحُسن الشِّيم، ومن شابه أباه فما ظَلم.

وكان حضرة مولانا السلطان عبد المجيـد خـان[١] [قـد][٢] استدعاه إلى سدَّته المَنيفة، وزيارة حضرته الـشَّريفة، فـدخل إلـى القُسْطَنطينية عام ثلاث وستِّين ومائتين وألف هجريَّة، فقابله بالتَّبجيـل والإكْرَام، واحترمه غاية الاحْتِرام، وفـوَّض إليـه أحْكَـام الـديار المِصْريَّة، وخلع عليه الخِلع السَّنية، ورجع بالعزِّ والإقْبَال على أحْسَن حال وأنعم بال.

---

[١] السلطان عبد المجيد (١٢٥٥هـ/١٨٣٩م : ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م) تـولى السلطنة ولم يكمل بعد عامه الثامن عشر وأقام خسرو باشا – والي مـصر الأسبق – صدرا أعظم ثم لم يلبث أن أقاله وعين محمد رشيد باشا صـدراً أعظم، ثم لم يلبث أن استحدث منصب رئيس مجلس الوزراء الذي أصـبح يتولى مقاليد السلطة ويقاسمه نفوذه في حكم الدولة، كما عمل في الوقت ذاته على الحد من نفوذ هيئة مشيخة الإسلام التي أصبحت في عـصره مجـرد هيئة شورية، وهو والد السلطان عبد الحميد الثاني آخر سلاطين آل عثمان، كما أنه كان هو السلطان الذي قدر له أن ينهي النزاع مع مصر عقب تسوية لندن فيما عرف بفرمان ١٨٤١ المتعلق بحدود مصر ونظام الولايـة بهـا، الذي أقر فيه بحقوق أسرة محمد علي في حكمها وراثيا للأرشد من أبنائـه، عن عصره انظر :-

يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ص ١٤٩ – ١٥١ ؛

Creasy : op cit, pp 451, 478

[٢] زيادة اقتضاها السياق.

واستقرَّ في ولايته الزَّاهرة، ولوائح السُّعود في غـرة جَبينـه ظاهرة، وما زال السَّعدُ خادمه والعز مُـصاحبه وملازمـه إلـى أن أدركَهُ الأجل المحتُوم، واستوفى عمره المعلُوم، وكانت /١٢٨ظ وفاتـه في اليوم العاشر من شهر تشرين الثاني سنة ألف ومـائتين وأربـع وستين هجرية، ودفن باحتفال عظيم بالأسكندرية، وهو ابـن اثنـين وستِّين سنـة، رضي الله عن مساعيه الحسـنة، وكانت مُدَّة ولايتـه اثني عشر شهراً، ورثاه شعراء العصر بكل قصيدة غرَّاء، فمن ذلـك قول الفاضل الأديب والشاعر اللبيب، فخر الأدباء البـارعين مُحمَّـد أفندي شِهابُ الدِّين :-

صـبراً علـى مـا قـد مَـضى ... إذ لا مُخَلِّـص مـن قَـضى

كيـف التـصبُّر والمَنايـا ... ذات عـضبٍ مُنْتَـضى

أوْدَت بـإبراهيم مُـذ ... بلـغ المقـام المُرتـضَى

وإليـه آل الأمـر فـي ... حُكـم الأبالـة وانْقَـضى

/١٢٩و فمـضى وقلـت مُؤرِّخـاً ... الله يَـرحمُ مـن مَـضى

على أنه لم يمُت من بقيت مآثره، ونُشرت في الكون بعد موته مفاخِرُه، فكيف من أبْقَى أنْجَالاً كراماً، ووزراءً عظامـاً كمُـصطَفى فاضل باشا وإسْمَاعيل الذين أضحت مآثرهُما غُرَّة في جَبين الجيل، لا سيَّما مولاي مُصطفى، من رَاق به ورد الزَّمن وصَفا، وحاز غـايتيْ الشَّرف والمفخر، وشاع ذكره في كل أرضٍ وقُطر.

وقد ذكرت في مقدمة الكتاب ما شَاهدته من مَكارم هذا الوزير المُهاب وما أولاني به من جزيل الإنْعَام، التي تَعْجَز عن وصفه ألسنة الأقْلام، فهو أحقُّ من تُهدى له غُرر المدائح والرَّسائل ؛ لأنَّه /١٢٩ظ معدن الجُود ومصدر الفضائل، وفخرُ الأواخر والأوائل، والله المسئول في حفظ دولته الزَّاهرة، وسطوته القاهرة بيده القادرة، ورعايته على توالي الليالي والأيَّام بعينه التي لا تغْفَل ولا تنام[1].

تم الكتاب بعون الله وتوفيقه

---

(١) جاء في آخره "قد تم نسخ هذا الكتاب بقلم مؤلفه الفقير إليه تعالى اسكندر بن يعقوب أبكاريوس عُفي عنه" وإلى الأسفل ختم بيضاوي برتقالي اللون لاسكندر أبكاريوس تتصدره كلمة "اسكندر"، إلى الأسفل منه إلى اليمين قليلاً ختم الكُتبخانة الأزهرية، وأمام الختم إلى اليمين سطرين سطرُهما فيما يبدو أحد موظفي الكتبخانة الأزهرية بالمداد الأزرق الجاف (الكوبيا) يُحصي فيه عدد أوراق المخطوط وعدد مسطراته " ١٢٩ ورقة، ١٢ سطراً".

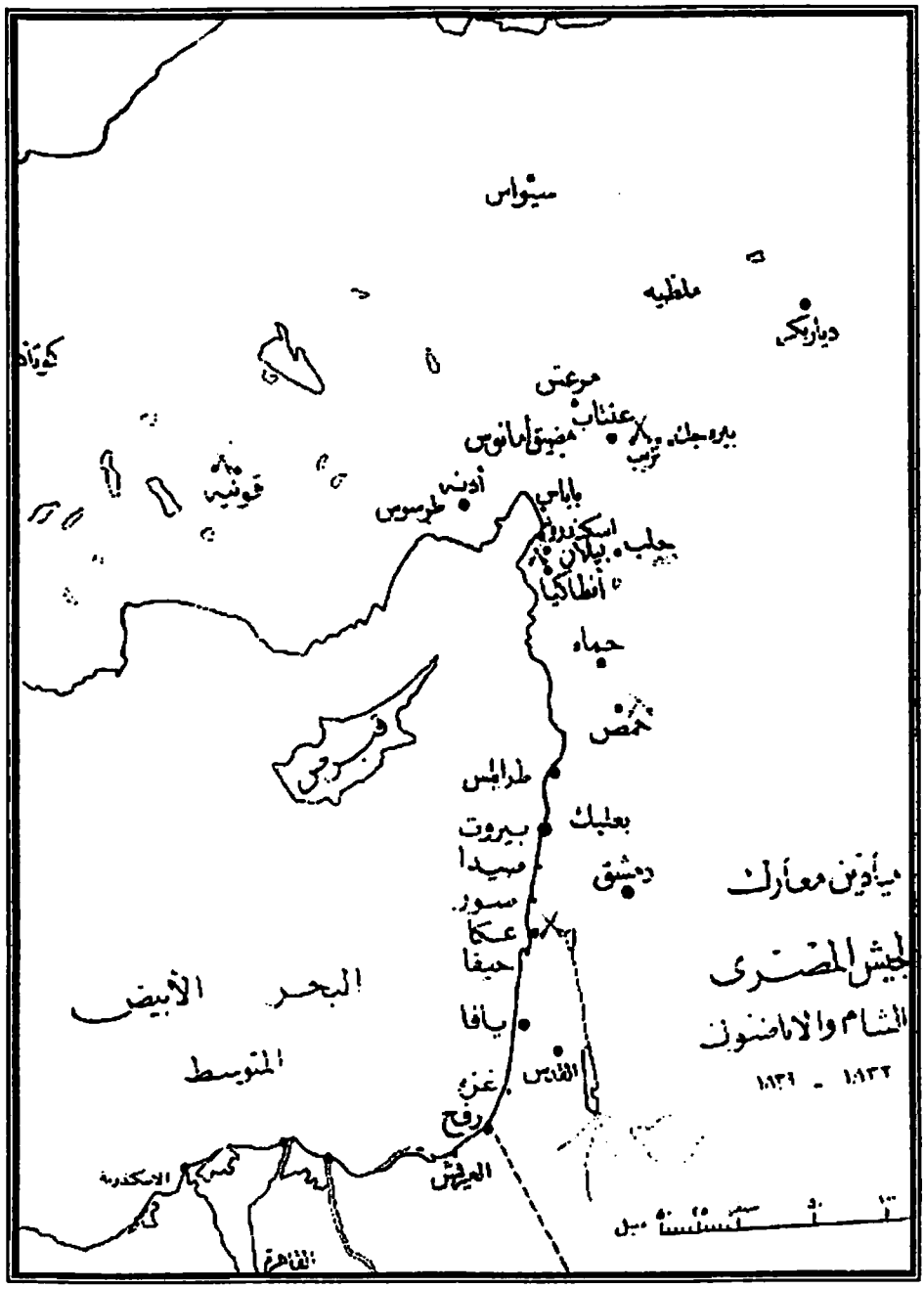
سيواس
ملطيه
ديار بكر
مرعش
عنتاب
بيره جك
مضيق الاناضول
قونيه
أدنه
طرسوس
باياس
اسكندرون
جلب
بيلان
أنطاكيا
حماه
حمص
طرابلس
بعلبك
بيروت
صيدا
دمشق
صور
عكا
حيفا
يافا
القدس
غزه
رفح
العريش
الاسكندرية
القاهرة
البحر الأبيض المتوسط
جيش المصري
الشام والاناضول
١٨٣٢ - ١٨٣١

الفهارس

فهرست قوافي الأشعار الواردة بالنص

قافية الدال

الآحادِ: ٧٠

تشْهدُ: ٣٨

تغْريدًا: ٣٩

تُوقدُ: ١٥٣

عنيد: ٦٥

مُسدِّدُ: ١٤٨

قافية الراء

الحَذرِ: ١٥٧

جهْرًا: ٥٨

حافِرُه: ١١٧

ذكْرًا: ١٠٢

نظرًا: ٩٥

قافية الضاد

قضَى: ١٧٩

قافية الكاف

البُكَا: ١٥٠

مُشْتركُ: ٣٨

يُزكّى: ٧٣

قافية اللام

اسْتطَالا: ٥٩

إلى: ١١٣

العُلى: ٦٧

اللّيالي: ٤٦

مُتذلِّلا: ١٥١

منازل: ٤٣

قافية الميم

تضطرم: ٩٠

الكرم: ٤٠

قافية النون

ضدَّنا: ٨٧

قافية الهاء

باكيها: ١٥٧

لقائه: ٧٢

فهرست أسماء الكتب

البَدر السَّافر في أعْيَان القرن الحاضر: ١٦، ٦٧

ديوان الدَّواوين في أجْوَاد المُتقدمين والمُتأخِّرين: ١٥

روضة الأدب في طَبقات شُعراء العرب: ١٥، ١٧

قصَّة شَهْريار: ١٦

المناقب الإبْراهيميَّة والمآثر الخديويَّة: ١٦

المناقب المُصطفويّة، والمآثر المُحمدية

العلوية: ١٠، ١٦، ١٨، ٣٨
مُنية النُّفس في أشعار عنتر عبس: ١٥
نُزهة النُّفوس وزينة الطُّروس: ١٥
نهاية الأرب في أخبار العرب: ١٥
نوادر الزَّمان في ملاحم عربستان: ١٣
نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان: ١٦، ١٧

فهرست الأعلام

إبراهيم أغا الجوخدار: ١٢٠
إبراهيم الخليل عليه السلام: ٦٠، ٦٥
إبراهيم باشا الصغير: ٧٣
إبراهيم باشا الكبير: ٩، ١١، ١٢، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٣٧، ٤٤، ٤٥، ٥٠، ٦٢، ٦٦، ٦٨، ٦٩، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨٢، ٨٣، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٧، ١٠٩، ١١٠، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٧، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٨
أحْمَد أفندي [ياور إبراهيم باشا]: ١٣٥
أحمد العانُوتي: ٢١
أحمد باشا الجزَّار: ٦٨
أحمد بك الإسْلامبُولي: ١٢٧
أحْمَد بك المِنكَلي: ١٢٧، ١٣٤
أحمد طقطق الدلال: ٢١
أحْمَد فَوْزي باشا: ١٢٩
أحمد مرزا البيرُوتي: ٢١
الاسْكَندر الأكبر: ٥٨، ٦٧، ١٠١، ١٣١
اسكندر بن يعقوب أغا أبكاريوس: ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ٢٠، ٢١، ٢٤، ٢٧، ٣٧
إسْمَاعيل [الأميرالاي]: ٨٩
إسْمَاعيل باشا [الخديو]: ١٢، ٢٢، ١٥، ١٧، ٦٦، ١٨٠
إسماعيل باشا صدِّيق: ١٢
أمين الجندي: ١٥٢
أمين رءوف باشا: ١٢٢، ١٤٤
باكر باشا الخَزنْدار: ٩٨

بشير الشهابي [الأمير]: ٦٩، ٧٣، ٧٧، ٧٨، ٨٢، ٩٤، ١٥١، ١٥٧، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢
بطرس أبُوت: = بيتر أبوت
بُطرس كَرامة: ١٥٤
بيتر أبوت: ١١، ٧٥، ٧٦
الجَبرتي: ٩
جُرجي زيدان: ١٠
حافظ باشا: ١٧٤، ١٧٥
حسن بك المنسترلي: ٧٩، ١٠٢، ١١٠
حسن حُنبلاط: ١٧١، ١٧٢، ١٧٤
حُسين افندي راشد: ١٦٧
حُسين باشا: ٨١، ٩٥، ٩٦، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٨، ١٠٩، ١١٢، ١١٤، ١١٧
حُسين بن محمد علي: ٦٦
حليم بن محمد علي: ٦٦
حنّا بك البحري: ٧٨
الخديوي الأعظم: = محمد علي باشا
خليل باشا باش قُبطان: ١٠٧، ١١٣
خليل بن أحمد الرَّجبي: ٩
الخَنساء: ١٧٨
خَيْر الدِّين باشا: ١٢٩
الداوري الأكرم: = محمد علي باشا
الدرويش أمين: ٦١
درويش باشا: ٦٩
دوربكلر [قنصل]: ١٠٦
دي فارين [بارون]: ١٤٠، ١٤٢، ١٤٨
ديونسيُوس [ترابيب]: ١١
رشيد باشا: ٥٥، ١١٤، ١٢١، ١٧٩
رمسيس الأكبر: ٥٨، ٦٧، ١٠١
رُوسين [بارون]: ١٤٤، ١٤٦، ١٤٨
زيد الخَيْل: ١٠١
ستراتفورد [لورد]: ١١
سَعْد الله باشا: ١٢٩
سعيد بن محمد علي: ٦٦، ١٢٤
سليم الثّالث [السلطان]: ٤٦، ٥٤
سليم بك المنسترلي: ١٢١، ١٢٦، ١٣٥
سَليم بك حِجَازي: ١٢١
سُليمان بك الفَرنساوي: ١٢٣، ١٢٦، ١٣٨
شَارلس ستابفُورد [لورد]: ١٧٧
شَاكر النَّحلاوي: ١٥٨
شِبل العربان: ١٧٠، ١٧١، ١٧٤
شَريف باشا: ١٦٥، ١٧٠، ١٧١
صَخر [أخو الخنساء]: ١٧٨
طُوسُون باشا بن محمد علي: ٦٤، ٦٦

عَامر بن الطُّفيل: ١٠٢
عبَّاس باشا: ٧٣، ٨٥، ٩٦، ١١٢، ١١٩
عبد الرحمن المغربل: ٢١
عبد الغَني النَّابُلسي: ١٥٨
عبد الله باشا [صاحب عكّا]: ٥٩، ٦٤، ٦٨، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٨٦، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ١١٦
عبد الله بن سعُود الوهَّاب: ٦٤، ٦٥
عبد المَجيد [السلطان]: ١٧٥
عبد المجيد خان [السلطان]: ١٧٥، ١٧٩
عُثمان باشا اللبيب: ٨١، ٨٣، ١٢٣
عُثمان بك البرديسي: ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦
عُثمان بك نور الدين: ٧٢، ١١٣، ١٢٠
علي أغا الخزندار: ٦٨
علي باشا الأسْعد: ٩٤
علي باشا الجزايرلي: ٥٤
علي بك الكبير: ٥٠
كِسرى: ٣٨
مارتِينلي [قنصل]: ١١٢
مجيد قاسم: ١٧٢
مُحمَّد أفندي شِهابُ الدِّين: ١٨٠
مُحمَّد افندي مكّاري: ١٦
محمد باشا [والي حلب]: ٩٨
محمد باشا أبي مَرق: ٤٩
محمد باشا البيرقدار: ٨٠، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ١٠٤
محمد باشا الكريتلي: ١٠٢
مُحمد بك الألفي: ٥٢، ٥٤، ٥٦
مُحمَّد بك: ١٢٣، ١٢٥
محمد خسرُو باشا: ٥١، ٥٤، ٥٥
مُحمَّد رشيد باشا: ١٢١، ١٣٨
مُحمد علي باشا الكبير: ٩، ١٢، ١٦، ١٨، ٢٢، ٢٣، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٨، ٤٩، ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٦٠، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٣، ٧٧، ٨٠، ٨٢، ٩٣، ١١٤، ١١٨، ١٢٣، ١٢٤، ١٣٩، ١٤٦، ١٤٩، ١٧٩، ١٤٠، ١٤٧، ١٧٦، ١٧٨
مَحْمُود خان [السلطان]: ٦٩، ٨٠، ١٣٩، ١٧٥
محمُود خليل بن بشير الشهابي [الأمير]: ١٧٢
مُصطفى باشا باش قُبْطان: ٥٦
مُصطفى باشا كامل: ١٧١

مُصطفى باشا: ٥٦، ١٧١، ١٧٣
مُصطفى فاضل باشا: ١٧، ١٨. ١،
الملك الأشرف: ٦٣
مُورافياف [حنرال]: ١٣٩
ميخائيل زكريا الخُوري: ٦:
ناصر الدِّين العماد: ١٧١. ١٧٣
ناصِيف اليَازجيّ اللُّبنانِيّ: ١٤٨، ١٥٧
وليم سدني سميث: ٤٨
يعقوب أغا أبكَاريوس: ١٠، ١١، ١٦، ٢٠
يعقُوب النبي عليه السلام: ٤٦
يُوحنَّا بن يعقوب أغا أبكاريوس: ١٢، ١٣
يُوسف النبي عليه السلام: ٤٦

فهرست الأمم والشعوب والقبائل والجماعات

الأبطال: ٤٩، ٥٢، ٧٣، ٩٠، ٩٦، ١٠٨، ١١٢، ١٢٤، ١٢٩، ١٣٣، ١٧٥
الأتراك: ١٩، ٤٨، ٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٩، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٥٤، ١٧٥
الأحناد: ٥٦، ٨٧، ١٠١، ١١٠، ١١٤، ١١٩
الأحزاب: ٥٢
الأحلاف: ٥٢
الأخلاط: ٩٨
الأدباء: ٤١، ٥٩، ١٨٠
أرباب الولايات: ٥٥
أرْمَن المَهْجَر: ١٩
الأرْمَن: ١١
الأرناؤط: ٤٤، ٥٤، ٨١، ٩٨، ١٠٤، ١٢٤، ١٢٥، ١٧١، ١٧٣، ١٧٤
الأساتذة: ٤٩
الأسرة العلويّة: ١٢
أصحاب الشَّوكة: ٥٨
أصْحَاب المَناصب والرُّتب: ٩٨
أصحاب النهي والأمر: ٥٠
الأصحاب: ٥٢
الأطْفَال: ١٠٣، ١١١
الأعادي: ١٠٠، ١٠٢، ١١٢، ١٢١، ١٢٢، ١٣٠، ١٣٧
الأعداء: ٦٥، ٦٧، ٧٢، ٨٤، ٨٩، ٩٢، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٢، ١١٠، ١١١، ١١٩، ١٢٢، ١٢٤، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٦، ١٣٧، ١٥٤

الأعْران: ٥٢، ٥٧، ٧٩
أعيان البلد: ١٠٨
الأعيان: ١٣، ٢٢، ٤٩، ٥٢، ٥٦، ٧٣، ٧٧، ٨٣، ٩١، ١٠٥، ١٦٨
أكابر الأشراف: ٤٩
الأكابر: ٥٥، ٩١، ١٦٨
آل عُثمان: ٩٣
أمّة الإسلام: ٤٧
الأمّة العيسوية: ٤٨
الأمريكان: ١١
الأنبياء: ٦٤
الإنكليز: ٤٧، ٧٥، ٧٦
أهالي البلاد: ٥٦
الأهالي: ٥٥، ٥٧، ٩٢، ٩٥، ١٣٨، ١٦٥
أهل البَغي والفَساد: ١٧١
أهل البلد: ١٦٧
أهل الشَّوكة والبَاس: ٤٩
أهل المَناصب والشحار: ١٦٦
باشاوات الأتراك: ٩٦
الباشاوات: ٩٧، ٩٨، ١٠٩، ١٢٨
البدو: ٩٩، ١٢٨، ١٣٥
البُروسيانية: ١٧٦
البكاوات: ٥٥
البَلطجية: ١٦٧
بنو الجرَّار: ٧٣
بنو صَخْر: ٧٣
بنو صَقْر: ٧٣
بنو طُوقان: ٧٣
التُّجار: ٦٤
الجَاويشية: ١٦٧
جبابرة العَرب: ٨٩
الجَحافل: ٨١، ٨٥، ١٧٧
الجنُود: ٦٤، ٩٦، ١٠٠، ١٠١، ١٣٩
الجَهابذة: ٤٩
الجيوش: ٤٧، ٤٨، ٧٨، ٨١، ٨٢، ٩٨، ١٠١، ١٠٩، ١١٠، ١١٤، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٤
الحُجَّاج: ٦٤
حُكّام المُدن والأمْصار: ١٠٨
الحكّام: ٤٣، ٧٠، ٧٤، ١٠٤، ١٦٥
الحَواشي: ٧٩
الخُلفاء: ٤١
خيَّالة النِّظام: ١١٢
الخيَّالة: ٩٨، ٩٩، ١٢٧، ١٢٨

الدَّالاتية: ٩٨، ١٢٨، ١٣٧
دُروز البلاد: ١٧١
دروز حُوران: ١٧٠، ١٧٢
دُروز وادي التيم: ١٧١
الدُّروز: ١٨، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٤
الذوات المُعتبرين: ٥٣
الذَّوات: ٤٥، ١٣٠
رُؤساء الطُّوبجية: ٧٦
الرِّجال: ٧٠، ٩٠، ١١٠، ١١٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٩، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٨، ١٥٢، ١٦٧، ١٧٨
الرجَّالة: ٩٨، ٩٩، ١٠٩
الرعايا: ٥٧، ٩٥
الرَّعية: ١٦٥
الرُّوسية: ١٧٦
الزُّوار: ٦٤
السَّباهيَّة: ٩٩
سُكَّان البلد: ٨٥
السَّلاطين: ٥٩
الشُّبان: ٤٧، ١٧٠
الشُّجعان: ٥٣، ١٠٢، ١٣١
الشُّطَّار الحُذق: ٤٩
الشُّعراء: ٤١
الشُّوام: ١٠، ١٨، ١٩، ٢١، ٢٢
الصَّناديد: ١٠٠، ١٣٢
الضُّبَّاط: ٢١، ٢٢
الطائفة المسيحية: ٤٨
الطُّغاة: ٦٤
طوائف العرب: ٦٥
الطُّوبجية: ٧٤
العائلة الخديويَّة: ١٢
العُثمانية: ٤٧، ٧٥، ٨١، ٩٥، ١٠١، ١٠٩، ١١٤، ١١٥، ١١٨، ١٢٣، ١٣٨، ١٤١، ١٤٣، ١٧٦
عرب السَّلط: ٧٣
عرب المنادي: ٩٧، ١١٢، ١٣٠، ١٣٧
العرب الوهَّابية: ٦٤
العرب: ٦٤، ١٢٢، ١٣٠، ١٤٩، ١٥٤، ١٥٨، ١٦٣، ١٦٦
العُربان: ٦٤، ٨١
عَساكر الفرنساويين: ٤٧
العساكر المنصُورة: ٨١
العساكر: ٤٧، ٥١، ٥٥، ٥٦، ٦٤، ٦٨، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨١، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٤، ١٠٧، ١٠٩،

١١٠، ١١٤، ١١٨، ١١٩، ١٢٠،
١٢٣، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٢،
١٤٢، ١٥٣، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٧
عسكر الأعادي: ٩٧
العسكر النظاميَّة: ١٠٤
العُصاة: ٥٤، ١٧٢، ١٧٤
عظماء الأمم: ٣٨
العُلماء: ٤١، ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٥٩
العُمَد: ٥٥، ٥٦، ١٠٥، ١٠٨
الغُرباء: ٦١
الفجرة: ٥٢
الفراعنة: ٥٩
الفُرسان: ٤٩، ٦٤، ٦٧، ٧٣، ٧٤، ٨٢،
٨٥، ٩٩، ١٠١، ١٠٢، ١١٩، ١٢٢،
١٢٥، ١٣١، ١٣٦، ١٧٢، ١٧٣
الفرنساوية: ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠،
٥١، ٦٨
الفُضلاء: ٤١، ٥٩
الفُقراء: ٦١
قبائل الأعْراب: ٦٤
قباطين الإنكليز: ٤٧
قَناصل الدول: ١٠٨
القرَّاد: ٥٥، ٧٨، ٧٣، ٨٨، ١٠١،
١٠٣، ١٢٥، ١٣٨
القوَّاصة: ١٢٨
الكَتائب: ٩٧، ١٣٢
المُورِّخون: ٣٧
المُتأخرون: ٣٧
المُتسلِّمون: ٩١، ١٠٨
المُرسلون الأمريكان: ٦٤
المُسافرون: ٦٤
المُسلمون: ٦٤
المُشاة: ٨٥، ٩٩، ١٠٠، ١٢٣، ١٢٤،
١٣٠، ١٣٤
المَشاهير: ٤٥، ٧٣، ٩٨، ١١٤
مشايخ الأرهَاط: ١٧٤
المَشَايخ: ١٠٥
المصريُّون: ٥٤، ٧٠، ٧١، ٨٥، ٨٩،
٩٧، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١١١، ١٢١،
١٢٥، ١٢٦، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢،
١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨،
١٧٤، ١٧٥
المُعتدون: ٥٢
المُلحدون: ٦٤
الملوك: ٣٨، ٥٨، ٥٩، ١٤٩، ١٥٥،
١٥٦، ١٧٦

المماليك البَحريَّة: ٤٣، ٥٣
المماليك: ٤٣، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٦٨، ١١٥
النُّبلاء: ٥٩، ١٣٦
النِّظامية: ٧٧، ١٢٠
النمساوية: ١٧٦
الهوَّارة: ٨١، ٩٨، ١٠٤، ١٧٤
الوُزراء الأماجد: ٦٧
الوُزراء: ٩٨، ١٠٣
وُلاة الأقْطَار: ١٠٨
ولاة المُدن: ٩١
الولاة: ٤٣، ٧٠، ٧٤، ٩١، ١٠٤، ١٠٨، ١٦٥

فهرست الأماكن والبلدان والبقاع

الأبْلق: ٦٢
أدنة: ١١٢، ١١٤، ١١٨، ١٤٨
أرض القُصير: ٨٣
أرمينيا: ١٠
الأستانة: ١٧، ٣٩، ٦٥، ١١٥، ١٤٤، ١٧٥
الإسكندرُونة: ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨
الإسْكندرية: ٤٧، ٥٥، ٦٣، ٧٢، ٧٩، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٧، ١٨٠
إسكُودار: ١٢١
الأشْرفية [ترعة]: ٦٣
أضَاليا: ١٢٣
إقليم البلان: ١٧٠، ١٧١، ١٧٢
أكْشَهير: ١٢٢، ١٣٧
الأناضُول: ١٠، ١٦، ١٨، ٢١، ٢٢، ٢٣، ١٤٥، ١٤٧
أنطاكية: ٩٦، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٩، ١١٠
أوربا: ١٢، ١٩، ٢٢
أورفا: ١٠٨
أورغلو قَشلة: ١٢٢
بر التُّرك: ٣٧
بَراجيك: ١٧٥
برج النبي صالح: ٨٨
برج كريم: ٨٧
بَرصة: ١٤٢، ١٤٣
البصرة: ٦١
بَعلْبَك: ٨٥، ٩٦
بلاد الإسْلام: ٤٧
بلاد العرب: ٨٠
البُوسفُور: ١٤٥

بيروت: ١٠٩،، ١١، ١٢، ١٣، ١٤،
١٥، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢٤، ٣٧، ٦٢،
٧٥، ٧٩، ١٥٨، ١٦٦، ١٦٧، ١٧١،
١٧٧
بيلان: ٩٥، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٣،
١١٧
ترابيا: ١٤٢، ١٤٦
تلّ السُّلطان: ١٠٧
تل الفخار: ٧٤
الجَامع الأزْهر: ٢٤
جبال طُوروس: ١٨، ١٢٠
الجسر الحَديد: ١٠٥
حنينة شُبرا: ٦٢
حاصبيا: ١٧٢، ١٧٣
الحجاز: ٦٤، ٨٠، ١٤٩، ١٦٣
الحَرمين: ٦٤
حَلب: ٨٠، ٩٣، ٩٧، ٩٨، ١٠٣،
١٠٥، ١٠٧، ١٠٨، ١١٣، ١١٤،
١٢٣، ١٥٣، ١٧٢
حمص: ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٩٤، ٩٥،
٩٦، ٩٧، ١٠٤، ١١٧، ١٥٣، ١٦٦
حُوارن: ١٧٤
حيفا: ٧٢، ٧٤
خليج مَرمريس: ١١٣، ١٢٠
الخَورْنق: ٦٢
دار سَرايا الأحْكَام: ٩٥، ١٧٢
داريا: ٩٤
دكان الزَّيْدانيَّة: ١٦٩
دمشق: ٤٦، ٦٢، ٦٦، ٦٩، ٧٦، ٩٣،
٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٨، ١٠٨، ١٥٨،
١٦٥، ١٦٧، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢
الديار الحجازية: ٦٤
الدِّيار الشَّامية: = الشام
الديار المصرية: = مصر
ديار بكرٍ: ١٠٨
دير القَمر: ٨٣
الرَّمْلة: ٤٧
رُودس: ١١٣
رُوسيا: ١٣٩، ١٤٥
سَالونيك: ٥٦
سلح [قرية]: ١٢٤، ١٢٨، ١٢٩
السُّودان: ٥٩، ١٥٦
سُوريَّة: ١١، ١٦، ٧٢، ١١٦، ١١٨،
١٢٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٨،
١٦٩، ١٧٥، ١٧٧
الشام: ٩، ١٠، ١٢، ١٦، ١٨، ١٩،

٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٣٧، ٤٧، ٥١،
٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤،
٧٥، ٧٦، ٨٠، ٨١، ٩٣، ٩٤، ٩٥،
٩٦، ٩٨، ١٠٦، ١٠٧، ١٢٤، ١٤٨،
١٤٩، ١٥٣، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٩،
١٧٠، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧
شواطئ القرمان: ٩٥، ١١٣
الصعيد: ٤٦، ٥٥
صُور: ٧٩، ١٧٧
صيدا: ٧٩
طَرابزون: ١٢٣
طَرابُلس: ٧٩، ٨١، ٩٦
طرسُوس: ١٢٠
طُقوزلوخان: ١٢٥، ١٢٦
عربستان: ٢٢، ٤٧، ٩٥، ٨٠،٧٦، ٨٣،
٨٥، ٩٣، ٩٥، ١١٣، ١٦٥، ١٧١،
١٧٥
عكّا: ٢٢، ٦٠، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧٣،
٧٩، ٨٢، ٨٣، ٨٥، ٩٠، ٩١، ٩٢،
٩٤، ١١٦، ١٤٥، ١٤٧، ١٥٠، ١٥١،
١٥٨، ١٦٢، ١٧٠، ١٧٧
عكّاء: = عكّا
عكّة: = عكّا
عَيْنْتاب: ١٧٥
غزّة: ٤٧
غَمدان: ٦٢
الفرعَوْنيَّة [ترعة]: ٦٣
فرنسا: ١١٢، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢،
١٤٤، ١٤٦
القاهرة: ٩، ١٢، ٢١، ٢٤، ٢٦، ٤٤،
٤٥، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥١، ٥٣، ٥٥،
٦٢، ٦٣، ٧١، ٧٧، ٩١، ٩٨، ٩٩،
١٤٠، ١٥٤، ١٧٨، ١٨١
قُبرص: ١١٣
القُسطنطينية: ٥٥، ٥٧، ٧٠، ٨١، ٩٥،
١١٤، ١١٥، ١١٩، ١٣٨، ١٤٤،
١٧٦، ١٧٩
القُشلاق: ١١
قصر البهجة: ٩١
القُصير: ٩٦، ٩٧
القلعة السُّلطانية: ٤٩، ٥١، ٦١
قَوالة: ٤٤، ٦٦
قُونيَّة: ١١٢، ١١٣، ١١٨، ١١٩، ١٢٢،
١٢٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٥،
١٣٦، ١٣٧، ١٤٢، ١٤٣
قيْصَرية: ١٢٣، ١٢٥

كريت: ٨٢، ١٤٨
كلس: ١٠٧، ١٠٩، ١١٠
كُوتاهية: ١٤٢، ١٤٤، ١٤٨
لاديك: ١٢٥، ١٢٦
اللاذقية: ٨١
لبنان: ١٧، ٢٣، ٦٩، ٧٣، ٧٦، ٧٧،
٧٩، ٩٤، ١٦٩، ١٧١، ١٧٢
لوندرا: ١٧٦
المحمُودية [ترعة]: ٦٣
مَرعش: ١٢٣، ١٧٥
المزّة: ٩٤
مصر: ١٢، ١٤، ١٩، ٢٢، ٢٣، ٤٣،
٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠،
٥١، ٥٢، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٩،
٦٢، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٠، ٧١،
٧٢، ٧٥، ٧٧، ٨٠، ٨٢، ٩٤، ٩٩،
١٠٤، ١١٥، ١١٨، ١٢٤، ١٠٤،
١٤٠، ١٤٩، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٧،
١٥٨، ١٦٤، ١٧١، ١٧٨، ١٧٩
معرّة النُعمان: ١٠٧
مكّة: ٥٠، ٦٤، ١٥٣
المملكة المصريّة: = مصر
مَنارة خان: ١١٩
المورة: ٧٠، ٧١، ٨٠، ٨٢، ١٥٦
نُزب: ١٧٤، ١٧٥
نمرُود [قرية]: ١٢٠
نهر العَاصي: ٩٨
نهر النّيل: ٦٣، ١٠٦، ١٤٩
وادي التّيم: ١٧١، ١٧٢، ١٧٣
وادي النّيل: ١٨
يَافا: ٤٧
اليمن: ٥٩

فهرست الألفاظ الاصطلاحية

الإبْريق: ١٢٠
الإرادة السَنيَّة: ٧٠
الإرادة الشّاهانيّة: ٥٧
الأساكل: ٤٧، ٧٢، ٧٦، ٧٩، ٨٠،
٨١، ١٠٦، ١٧٧
الأعْران: ٥٢، ٥٧، ٧٩
الأغَوات: ٥٥
الآلايات: ٨٧، ٨٨، ٩٨، ٩٩، ١٠١،
١٠٩، ١١٠، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٦،
١٢٧، ١٢٨، ١٣٤
الإمداد السلطاني: ٤٨
أمير آلاي: ٤٤، ٧٨

الأوردي: ٧٨
الباب العالي: ٥٤، ٧٠، ١١٦، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧
الباش بُزق: ٩٨، ١١٩
الباشْ ياور: ١٤٦
البرفس: ١٣٥
البُروسيانية: ١٧٦
البكاوات: ٥٥
البَلطجية: ١٦٧
البَوارج: ١٠٧
البَوارِيد: ١٠٠، ١١٠، ١٣٤
البَواغيز: ٤٧، ٧٢، ١٢٠
البَيارق: ٩٧
التَّرسخَانات البحريَّة: ٥٧
التَّرسيم: ٩١، ١٦٧
التفويض الخاقاني: ٤٨
الثُّغور: ٤٧، ٧٩، ١٧٧
الجَامكيَّة: ١٠٤
الجَاويشية: ١٦٧
جَبْخَانة البلد: ١٧٧
الجَبخانة: ٨٦، ١١١
الجريدة السُّلطانية: ١١٥
الجَهابذة: ٤٩
حساب الجُمَّل: ١٥١
الحضرة الخديوية: ٧٠، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٩٣، ١١٣، ١١٥، ١١٧، ١١٩، ١٣٩، ١٤١، ١٤٣، ١٤٤، ١٦٥، ١٧٧
الحكومة الكُولَمانيَّة: ٤٣
خيَّالة النِّظام: ١١٢
الدَّالاتية: ٩٨، ١٢٨، ١٣٧
الداوري الأكْرَم: ٤٣، ١٣٩
دستُور الدولة: ١٣٥
رُؤساء الطُّوبجية: ٧٦
الرخصة السنيَّة: ٧٥
السَّباهيَّة: ٩٩
السُّحج: ١٢
السر عسكر: ٨٠، ١٠٢
السِّردار: ٨١، ٩٥، ٩٦، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٧، ١١٤
السُّكة: ٥٠
الششخانة: ١٠٠
الشقّة الرَّسميَّة: ١٤٦
الشنَّك: ٩٢
الصدر الأعظم: ٤٤، ٤٥، ٤٨، ٤٩، ٥٤، ٨٠، ١١٤، ١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٩،

١٣٤، ١٣٥، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤
الصُّولة الحَيْدَريَّة: ٦٠
الطَّوابير: ٨٧
الطُّوبجية: ٧٤، ١٠٩، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٥
الطُّوبخانة: ١٠٠، ١٢٨
عسكر النِّظام: ١٧١، ١٧٢
العُلوفات: ٨٦
العمارة الإنكليزية: ٤٨
العمارة البحرية: ٤٧، ٤٨، ٧٢، ٧٦، ٧٩، ١١٣، ١١٧، ١٢٠، ١٤٠، ١٤٥، ١٧٧
الفُرقاطة: ١٢٠
قبطان باشا: ٧٦
القوَّاصة: ١٢٨
الكَرادِيس: ١٣٣
الكلل: ٧٩، ٨٤، ٨٥
الكُوتر: ١٢٠
المُتسلِّم: ٩١، ١٠٨، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨
محافظة الحدُود والثغور: ٥٠
المسكوبيَّة: ١٤٠
مشايخ الأرهَاط: ١٧٤
المصكُوكَات: ١١٨
المَكاحِل: ٨١
المَناشير: ١٧٠
مناصب البلاد: ١٦٩
المُهمَّات الحربيَّة: ٤٧، ١٢٠
وحَاق العسكريَّة: ١٧٠
الوحَاقات السَّبعة: ٥١

مصادر ومراجع التحقيق

المصادر والمراجع العربيّة والمعرّبة

أثير الدّين الأندلُسيّ (أثير الدين مُحمد بن يُوسف كان حيّاً سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م) .

الإدْراك للسّان الأتراك ، نشرة جعفر أُوغلي أغا ، استانبول ١٩٣٠ .

احمد السّعيد سُليمان

تأصيل ما ورد في تاريخ الجَبرتي من الدّخيل ، القاهرة ١٩٧٩ .

احمد فهيم بيُّومي

حَرب كِريت والمورة ، بحث منشور ضمن الكتاب التّذكاري لإبراهيم باشا بمناسبة انقضاء مائة عام على وفاته ، منشورات الجمعية الملكيّة للدّراسات التّاريخية ، القاهرة ١٩٤٨ .

اذوَارد فنديك

اكْتفَاء القنُوع بما هو مطبُوع ، بيروت ١٩٨٧ .

آدي شير

الألْفَاظ الفارسيّة المُعرّبة ، القاهرة ١٩٨٨ .

اسماعيل البغدادي

هديّة العارفين بأسماء الكُتب والمصنّفين ، بيروت ١٩٨٢ .

إيضاح المكنُون في الذّيل على كشْف الظُّنون ، بيروت (د.ت) .

إلياس الأيُّوبي

مُحمّد علي ، سيرته وأعْمَاله ، مطْبعة الهلال ، القاهرة ١٩٢٣ .

الجَبَرْتيّ (عبد الرَّحمن بن حَسن المتوفّى في حدود عام ١٢٣٧هـ/١٨٢٢)
عجائب الآثار في التَّراجم والأخبَار ، نشرة عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٩٨ .

جُورجي زيدَان
تاريخ آداب اللُّغة العربيَّة ، القاهرة (١٩٥٧) .

خَالد فهْمي
كُل رجال البَاشا ، نقله إلى العربية شريف يونس ، القاهرة ٢٠٠١ .

الخشَّاب (اسماعيل بن سَعد المتوفّى ١٢٣٠هـ/ ١٨١٤م)
خُلاصة ما يُراد من أخبار الأمير مُراد ، تحقيق حمزة عبد العزيز بدر ، دانيال كريسليوس ، القاهرة ١٩٩٢ .

الخُوَارزميّ (أبو عبد الله محمَّد بن احمد بن يُوسُف الكاتب المتوفّى ٣٨٧هـ/٩٩٧م)
مفاتيح العلُوم ، نشرة جوْدَت فخر الدِّين ، بيروت (د.ت)

خيْر الدِّين الزركلي
موسُوعة الأعْلام ، بيروت ١٩٧٩ .

الدَّمرداش (احمد الدَّمرداش كتخُدا عَزَبَان ، كان حيًّا عام ١١٢٣هـ/ ١٧١١م)
الدُّرة المُصانة في أخبار الكِنَانة ، نشرة دانيال كريسليوس وعبد الوهاب بكر ، القاهرة ١٩٩٢ .

الرَّجبي (خليل بن أحمد الرجبي المتوفى تقريباً في حدود عام ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م)
تاريخ الوزير محمَّد علي ، باعتناء دانيال كريسليوس ، حمزَة عبد العزيز بدر ، حُسام الدين اسماعيل ، القاهرة ١٩٩٧ .

السيّد فرج

حرُوب محمّد علي ، القاهرة ١٩٤٢ .

شيْخ الرّبوة (محمد بن أبي طالب الأنصَاري الدِّمشقي المتوفّى ٧٢٧هـ/١٣٢٦م)

نخُبة الدّهر في عجائب البر والبحر ، بيروت ١٩٩٨ .

ابن طَاووس البغدادي (رَضيّ الدين عَلي بن مُوسى المتوفى ٦٦٤هـ/١٢٦٦م)

فرج المهمُوم بتاريخ علماء النجُوم ، النجف (د.ت)

الطّبري (محمّد بن جرير بن يزيد المتوفى ٣١٠هـ/٩٢٢م)

تاريخ الرُّسل والملوك ، نشرة محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٩ .

العبّاسي (عبد الرّحيم بن عبد الرّحمن المتوفى ٩٦٣هـ/١٥٥٦م)

مِنَح ربِّ البريّة في فتح رُودس الأبيّة ، تحقيق فيصل الكندري ، حوليات كلية الآداب جامعة الكُويت ، الحوليّة الثامنة عشرة ، الكُويت ١٩٩٨ .

عبد الرّحمن زكي

حملة الشّام الأولى والثّانية ، بحث منشور ضمن الكتاب التذكاري لابراهيم باشا بمناسبة انقضاء مائة عام على وفاته ، منشورات الجمعية الملكيّة للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٤٨ .

عرَاقي يُوسف

الوجُود العُثماني في مصر في القرنين السّادس عشر والسّابع عشر دراسة وثائقية ، القاهرة ١٩٩٦ .

عُمر طوسون

الجيش المصري في عهد محمد علي ، القاهرة ١٩٩٦ .

ابن كثير (أبو الفدا إسمَاعيل القُرشي الدمشقي ت٧٧٤هـ-١٣٧٢م)

البداية والنهاية ، بيروت ١٩٩٦ .

لويس شيخُو

تاريخ الآداب العربية ، بيروت ١٩٢٤ .

محمّد صبري

مصر من محمد علي إلى اليوم ، القاهرة ١٩٢٧ .

محمّد قنديل البقْلي

التعريف بمصطلحات صُبْح الاعْشَى ، القاهرة ١٩٨٣ .

مجهُول

تاريخ مجهول العنوان نُشر تحت اسم مُذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سورية ، باعتناء احمد غسان سبانُو ، دمشق (د.ت) .

يوحنّا أبكاريُوس

قطف الزهور في تاريخ الدُّهور ، بيروت ١٨٧٣ .

يوسف آصاف

تاريخ سَلاطين آل عُثمان ، تحقيق بسّام عبد الوهاب الجابي ، دمشق ١٩٨٥.

يوسُف إليّان سركيس

مُعجم المطبُوعات العربيَّة ، مكتبة آية الله العظمى ، النجف (د.ت) .

المراجع الأجنبية

Asad Rustum: *Notes on Akka and its defences under Ibrahim Pasha, Beirut 1926.*

----------: *The royal archives of Egypt and the origins of the Egyption Expedition to Syria (1830-1841), Beirut 1936.*

Asad Rustum; F. Boustani: *Libnan al'epoque des emirs Chihab, Beirut 1933.*

Creasy, Edward Shepherd: *History of the Ottoman Turks from the beginning of their empire, London 1856.*

Goldschmidt, Arther: *Biographical dictionary of modern Egypt, Pennsylvania, 2000.*

Mengin, Félix: *Histoire de l' Egypte sous le Gouvernement de Mohammed Aly ou récit des événements politiques et militaires qui ont eu lien dipuis le départ des français jusqu' en 1823, paris 1823.*

----------: *Histoire sommaire de l' Egypte sous la gouvernement de Mohammed Aly, Paris 1839.*

Narzakian, Sarkis: *Memoirs of Sarkis Narzakian, translated by Garine Narzakian, bublishrd by Gomidas istitute, U.S.A 1995.*

Shaw, Stanford Jay: *Btween old and new, The Ottoman Empire under Sultan Selim III, Harvard university press, 1971.*

Zürcher, Erik J: *Turkey, A modern history, third edition, London 2004.*

الفِهرسْت

تقديم بقلم الأستاذ الدكتور رءوف عباس ٣

مقدمة المحُقق ٩

اللوحات ٢٩

مُقدّمة المؤلف ٣٧

ذكر ولاية مُحمّد علي باشا ٤٣

خبر ظهور عبد الله بن سعُود وهجومه على مكّة بالفرسان والجنود ... ٦٤

في وصف نجله الكريم سميُّ الخليل إبراهيم ٦٥

في مسير إبراهيم بالعساكر المصرية لافتتاح الديار الشّامية ٦٨

في حصار عكّا وفتح اساكل عرب استان واستيلاء إبراهيم باشا على
جبل لبنان ٧٦

في قدوم مُحمّد باشا والي حلب وسَرْعَسكر بلاد العرب إلى حِمص بأمر
السُّلطان لاستخلاص أساكل عرب استان ٨٠

في فتح المدينة وهدم أبراجها الحصينة ٨٥

في مسير إبراهيم باشا لافتتاح دمشق ٩٣

في وصول حُسين باشا الى عرب اسنان وهزيمته في موقعتي حمص وبيلان ٩٥
حرب قُونيَة ١١٣
حادثة عجيبة ونادرة غريبة ١٦٥
في تمرُّد درُوز حُوران مع شِبل العربان وانقيادهم الى الطَّاعة بعد العصيان ١٦٩
حرب نُزيب على وجه مختصر ١٧٣
في خرُوج الدولة المصريَّة من بلاد سُوريَّة ١٧٤
ولاية الهُمام الأعظم إبراهيم باشا الأفخم ١٧٧
الفهارس ١٨٣
فهرست قوافي الأشعار ١٨٥
فهرست أسماء الكتب ١٨٥
فهرست الأعلام ١٨٦
فهرست الأمم والشُّعوب والقبائل والجماعات ١٨٩
فهرست الأماكن والبلدان ١٩٣
فهرست الألفاظ الاصطلاحيَّة ١٩٦
مصادر ومراجع التحقيق ١٩٧
فهرست موضوعات الكتاب ٢٠٣